سادر للكتب

ريم جمعه

قرية الأشراف

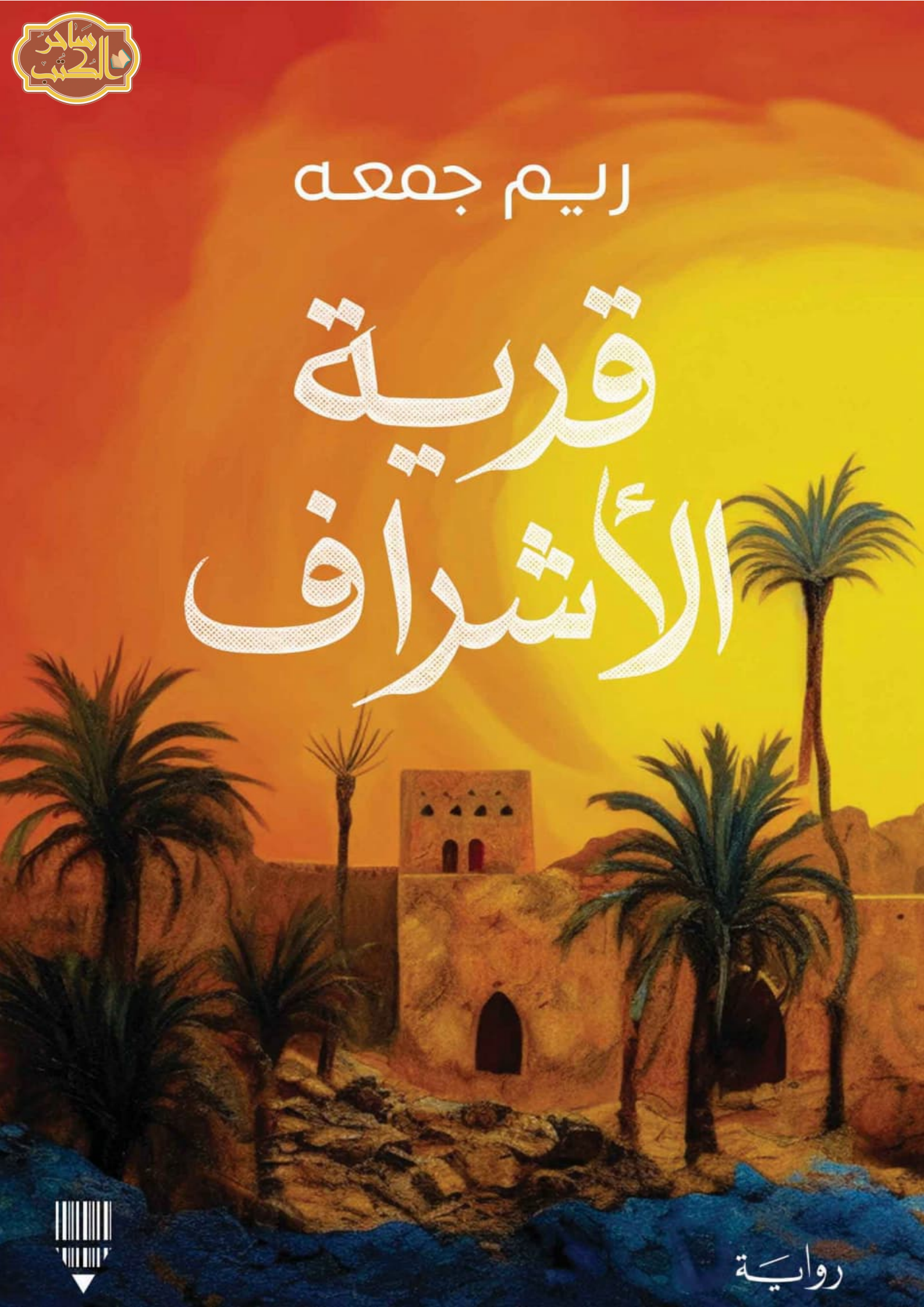

رواية

قرية الأشراف

ريم جمعه

الطبعة الأولـى : 2023

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

تدقـيق لغـوي : شركة المحرر

إخـراج فنـــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 17758/ 2023

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-86855-5-8

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المُحرّر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

إهداء

«أهدي إلى نفسي تلك الرواية التي مقتُها بكل خلجة من عقلي، وعشقتها بكل نبضة من فؤادي. فقط أنت من أهدرت كل طاقتي للاستيعاب، ولكنني ما زلت لم أفهم!».

الكاتبة

المقدمة

«كفرت أم آمنت. أذنبت أم تبت. حسنت نيتك أم ساءت. لا يهمني ما كنت تقصده، بل لا أبالي إلا بما اقترفته يداك. فلست الإله لأحاسبك بما خط فؤادك في صحيفتك، لكن سأقتص منك لما سطرته أفعالك في الوجود. تفكر كثيرًا قبل إتيانك للجرم فأنا كالمرصاد أقف لك وأراقبك وأراك من حيث لا تراني. ونهايتك ستكون بيدي إن أدركتني نظراتك!».

فمن أنا؟

الفتن التي تتخفى وراء قناع الدين تجارة رائجة جدًا في عصور التراجع الفكري للمجتمعات!

ابن خلدون

أقف على تلك التلة التي كانت شاهدة على ما حدث وما سيحدث، على أنقاض أقوام هلكوا فاستخلِفوا بأقوام كانوا أكثر منهم تقوى، بزًا، تجبرًا، وفجرًا. أقف مشدوهة مما كان على امتداد بصري لكنه لم يعمِ بصيرتي. لم أكن عابئة بما سيصيبني، فأنا أعلم تلك الرجفة جيدًا، التي تعتريني عند يقين اللاشعور بداخلي بأن هناك أمرًا جللًا على عتبات حياتي الرتيبة، تلك التي وُجدت في حمضنا النووي منذ بدء الخليقة لتحذرنا مما نحن على بداية خوضه.

أهلًا بكم في قرية الأشراف! تلك القرية التي تقع في صعيد مصر تحتضنها التلال، كبقعة قررت حمايتها من العين المترقبة، كأنها قررت الانغلاق على نفسها، وعلى من فيها. لفظت الدنيا فلفظتها الدنيا وأسقطتها من حساباتها، فلم ترضَ إلا أن تقيم نفسها لتكون شاهدة على ما يمكن للإنسان فعله إن أراد الصلاح.

لقد نسيت حقًا أصول أدب التعامل بين البشر، فحدثتكم عن القرية قبل أن أعرفكم أعزائي على من تتسامر معكم. إن معكم سليلة الحسب والنسب، ابنة الأصول، جميلة المظهر، رقيقة الجوهر، لبقة اللسان المدعوة سالمين. فقط سالمين، بلا اسم بعده قد أنتسب له يومًا، كنّبت شيطاني نَبَت فقرر قطع جذوره. لا أعلم من هو أبي، مُحي اسمه من ذاكرتي منذ زمن ولى. طبعًا لم أخبر هذا الحديث لذاك الواقف بجواري متطلعًا لقسمات وجهي اللامبالية بما تراه. بل أخبرته بما سردته لكم منذ قليل وفقط.

لنعود لقرية الأشراف، تلك مرتي الأولى التي أذهب فيها لقرية مصرية لأمكث فيها مدة من الوقت لا أعلم حقًا كم يومًا تحديدًا،

فهذا مرهون بمدى... لا أعلم بما مرهون حقًا، لكن ما أعمله هو عدم علمي مقدار المدة تحديدًا. لقد كنت أتوقع طرقًا متربة، وروث حيوانات يزينها كرسم سيريالي لا ملامح له ولا ضوابط. وأطفال مشعثة يسيرون كيوم ولدتهم أمهاتهم، ونساء كالدمى صنعت لأعمال المنزل يفترشن الطرقات لا شاغل لهن إلا الحديث على القاصي والداني. لكن والحق يقال لقد كنت مخطئة!

طرق ممهدة بالقرميد الحراري ذي الألوان الزاهية التي يطغى عليها اللونان الأحمر والأصفر. بيوت جميعها من طابقين زاهية الألوان أعتقد أنها مزينة بالذهب وبعضها بالفضة، ما عدا دوّارًا كبيرًا من كبره يقف جليًا شامخًا كمعلم أثري في وسط تلك القرية، يزيدها بهاء فوق بهائها. تنتشر الحدائق في القرية تمتلك زهورًا لم أرَ لها مثيلًا من قبل، ذكرتني بحدائق القصائد الشعرية الست الموجودة باليابان في جمالها وروعتها. يحيط بهذا كله ويتخلله مجارٍ مائية تصدر من بعضها روائح عطرية أخاذه ليست طينية كالعادة، بل كانت مبطنة بأحجار كريمة تلمع كلما سقطت أشعة الشمس على الماء فتنكسر عليها وتنعكس عنها مخلفة لوحة فنية متراقصة تخطف العين فتسر الناظرين، تسبح فيها أسماك ذات ألوان زاهية. لوهلة رأيتها كحوض زينة مائي كبير به ماكيت هو بيوت القرية وحدائقها. تلك هي قرية الأشراف.

أعلم أنكم قد مللتم قليلًا من وصفي للقرية لكن تحملوني قليلًا فللأمانة السردية يجب أن أكمل ما أخبرني به صديقي، فهذه القرية أصبحت كذلك بالجهود الذاتية لمواطنيها، وبفضل جهود المأسوف على عمره، أزكى الله ثراه الشيخ حسن رحمه الله، شيخ القرية

والمفتي بها والمصلح بين أهلها. الذي بقدومه تحولت من قرية جرداء مغبرة، صفراء، لا جمال فيها، ولا رونق. إلى تلك الصورة التي طبعت بأذهانكم بالتأكيد. هذا الذي ما إن وطأت قدمه القرية منعت فيها الجريمة وانعدمت، وساد مكانها التعاون والإخاء بين أهل القرية. أعلم أن ما أقوله قد يكون دربًا من الخيال فهو منافٍ لما جبلت عليه طبيعة البشر الدموية المتشوقة دومًا للخراب والجهل. لكنه للأسف هو واقع أمام عيني وأمام عينكم.

للمرة الثانية نسيت أدب التعامل ولم أعرفكم على مضيفي الواقف بجواري، الذي أكثر ما يثير حنقه هو شخصيتي التي دومًا يصفها كالزجاج المعتم، صحيح أنه سهل الكسر وهش إلا أنه لا يظهر أبدًا ما خلفه أو ما يحتويه، مجدي، الذي تعرفت إليه صدفة منذ سنة. كنت في عجلة من أمري أقود سيارتي مسرعة فإذ بشخص يرتطم بمقدمتها ويسقط مضرجًا في دمائه. توجهت لهذا الممدد على الأسفلت مرتجفة كورقة علقت في دوامة هوائية لا تدري كيفية الخلاص منها، لاعتقادي أن المنية قد وافته، لكنه كان ما زال يتنفس لذا ساعدته للصعود في المقعد الخلفي من السيارة إلى أن تركته أمام باب أول مشفى في طريقي وفررت وسط ذهوله على أمل عدم مقابلته لكن كان للقدر رأي آخر! لقد تواجهت معه بعد الحادثة بأسبوع وفور أن رآني تذكرني وكان مصممًا على إبلاغ الشرطة لكن فور أن بكيت رق قلبه وأخذ يهدئ من روعي!

خذوها من فاهي حكمة الدموع هي أقوى سلاح للمرأة مع رجل ليس بزوجها. وقد فلحت الحكمة مع هذا الشاب الثلاثيني الطويل أسمر البشرة المائل للامتلاء قليلًا مجعد الشعر كثيف الحاجب. الذي

عاد بصحبتي هذا اليوم للقرية لأنها سنوية الشيخ حسن ويوم فتح وصيته، التي أبلغ ابنه ألا تفتح إلا بحضور أهل القرية بأكملها لأنها تمسهم جمعًا.

مجدي كأهل القرية بأكملهم كان لا بد أن يخضع لأوامر المهدي المنتظر الذي أنقذ قريتهم من الضياع، الذي أثبت أن شخصًا واحدًا يستطيع أن يغير ما حوله إن أراد ذلك، ومن كثرة كلامه عن كرامات هذا الشيخ اعتقدت أنه يهول ويفخم في جمال قريته لذلك حضرت معه لكنه كان صادقًا بكل حرف خرج من بين شفاهه الرفيعة.

كانت القرية متشحة بالسواد، تجلس النساء في خيمة كبيرة «شادر عزاء» كما يطلق عليه مجدي فجلست معهم، بينما يجلس الرجال في الحديقة الكبيرة لتساع أعداد أهل القرية والذين ذهب لهم مجدي. كانت عيون النسوة تتفرسني لا أعلم هل هذا بسبب أنني غريبة عنهم أم بسبب فستاني الأحمر القصير، في جميع الحالات أشحت بنظري عنهم لهذا الذي صعد المنبر والذي عرفت لاحقًا أنه ابن الشيخ حسن ويدعى جلال، كان يرتجف عندما أمسك بالمذياع. وبدأ بالحديث رغم غزارة دموعه.

- «قبل أي حديث قد أنطق به، وقبل فضي لتلك الورقة التي بيدي، ليترحم الجميع على والدي، ولنقرأ له الفاتحة رحمة ونور على روحه، فلا شفيع له الآن إلا عمله وما يصله من نفحات غفرانية».

ارتج المكان بنهنهات واضحة ودموع مسكوبة، وأصوات تتلو آيات القرآن بصوت هزته تشنجات متقطعة هنا وهناك. وما إن انتهوا حتى طبق الصمت على المكان مسفحًا المجال لهذا الواقف ليتم حديثه:

أمسك مظروفًا أصفر مستطيل وفتحه وبدأ في سرد ما فيه على مسامع الجميع.

- «إلى أصدقائي وإخوتي وأبنائي، أرجو من الله تظلوا على طبعكم الملائكي، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تتفرقوا، وتذكروا دومًا أن المشاكل ما هي إلا أنفاس الشيطان نفثها بيننا ليدب الشقاق ولكن دومًا يكمن حلها في النقاش والمحاورة. واعلموا أن العمل الصالح يجلي السيئ ويذهبه هباء منثورًا، وأن هناك طرقًا كثيرة لإزالة العقبات لا تؤدي للتهلكة والندم. وإنني أوصي ولدي هذا الواقف بينكم بأن يكون أمينًا على الكنز الذي دفنته والذي بظهوره ستبدأ نهاية كل شيء، وسينجلي الغمام، وستظهر الحقيقة جلية منيرة في كبد السماء. ولا يقترب منه إلى أن يأتي مالكه ومستحقه فيسترده فهو فقط من يستطيع لمسه، فلا يضيعه ولا يهمل في رعايته حتى هذا اليوم. وإلا الويل ثم الويل لكل من كسر الأمانة وخان العهد ونكث بالوعد. وسلامي ودعواتي لكم بالحفظ هي الختام».

سرت همهات بين الجالسين متسائلة عن الكنز وماهيته. لكن ما أثار دهشتي هو جهل فلذة كبد الشيخ حسن بكل ما يحتويه هذا الخطاب من وصايا بما فيها الكنز. وعدم معرفة كنهته أو مكانه. والأنكى هو صمت مالكه أو عدم تواجده بين هذا الجمع الغفير الذي تفرق ما إن رحل جلال والذهول يحيط بكل حركاته وعينه الغائمة.

تلك هي تفاصيل اليوم الأول لي في تلك القرية والذي بنهايته ذهبت لمنزل مجدي، لم يتسنّ لي رؤية أحد من أهله بسبب إرهاقي الشديد فما كنت بحاجته هو النوم، وليس مقابلة وجوه جديدة فلم

أنتظر أحدًا بل صعدت للغرفة المعدة لاستقبالي واحتضنت الفراش كميت احتضن قبره وسكن في ثبات عميق.

***

اليوم الثاني في سراديب تلك القرية. لا أعلم هل ما حدث بسبب الإرهاق أم هو حقيقة، لكنني حلمت بشخص يدعى حسن، بياض وجهه كان يطغى على لون الفراغ الذي يغلف جسده المكتنز قليلًا، رجل ذو ذقن طويل مشذب ومنمق. لا يحيد عينيه الخضراوين ذواتي النظرة الفولاذية عني وهو يحدثني لاهثًا رغم وقوفه وعدم بذله أي مجهود بأن الوقت قد حان. ظللت أسأله: وقت ماذا؟ لكنه كان كالمسجل يعيد نفسه مرارًا وتكرارًا إلى أن فتحت عينيّ السوداوين على سقف الغرفة السماوي غير مستوعبة لبرهة من أنا، من أين أتيت، ما الذي حدث، ومن حسن هذا؟

جلست القرفصاء في منتصف الفراش يغطي جسدي الخمري رداء نوم أزرق، كان شعري الأسود المنسدل أطول منه بقليل، كان والدي يدعوني زنبقته السوداء بسبب لون شعري الذي ارتد أثره على عيني أيضًا فزادها رهبة فوق عتمتها. أعلم أنني أخبرتكم إنه لا والد لي، لكن هناك لحظات عابرة على الذاكرة لا أعلم مدى حقيقتها من خيالها ما زال عقلي يتمسك بها ويداعبها بين كل فترة وأخرى ليسبب له سعادة زائفة لبرهة من الوقت تنجيه من صمت المشاعر القاتل الذي يحتضنه طوال عمره.

لقد عادت روحي الثاقبة مجددًا، وتفحصت المنزل أثناء توجهي لملاقاة أهل هذه الدار. منزل مجدي كما جميع المنازل من طابقين،

غرفتي كانت بالطابق الثاني ملحق بها حمام خاص، ذو لون يشبه الكراميل وأثاث اعتنق القهوة في صبغتها ولمعانها. نزلت لأسفل عبر سلالم رخامية لا تتناسب البتة مع لفظ القرية لأجد مجدي وإخوته يجلسون على الطاولة للإفطار، جلست بجواره من دون أن يدعوني أحد فلقد كنت جائعة حقًا، لذلك شرع في الحديث ليقطع حبل التساؤلات التي غلفت وجوههم جميعًا.

- «صديقتي سالمين، أتت معي البارحة لكن لم يتسنّ لها مقابلتكم بسبب وصية الشيخ حسن، ولم تكونوا متواجدين عند عودتنا». ثم أدار دفة الحديث لتتوجه لي مشيرًا إليهم وهو يقول: «هؤلاء إخوتي أكبرهم أنور الجالس أمامك مباشرة، وأوسطنا فريدة تلك الجالسة بجواره، أما أصغرنا جميعًا هو هيثم ذلك الذي يجلس بمقدمة الطاولة غير عابئ بمن حوله فكل ما يهمه هو الطعام وفقط».

أعتقد أن تلك القرية قد خرجت حقًا من أحد أفلام الأبيض والأسود بسبب أسمائهم لكن حقًا كل شيء يمكن تقبله بسبب ترحيبهم الحار بي. كانت فريدة تقضم أظافرها وتبلعها مع بقايا الطعام الذي تلوكه بين أسنانها، لكنها نظرت لمجدي موجهة كلامها إليه.

- «ألم تلاحظ أن تلك الوصية غريبة جدًا، حتى ولده كانت تبدو عليه الصدمة».

هز مجدي رأسه موافقًا: «فعلًا، لكن ما يشغلني أكثر ما مقصده بكلمة ستظهر الحقيقة جلية منيرة في كبد السماء، عن أي حقيقة يتحدث؟!».

صوت اصطكاك معالقهم بأطراف أطباقهم أتت جميعًا في وقت واحد كأنهم قد اتفقوا على فعل ذلك، متبادلين نظرات فيما بينهم، وأنا أنظر لهم لعلي أفهم ما يدور لكن هيثم أخرج بعض الكلمات التي كان يتخلل كل كلمة وأختها تأتآت فيأخذك الوقت لتفهم ما قاله:

- «ما الذي قصده بالكنز؟ هذا السؤال الأهم».

كان أنور يسند ذقنه على قبضته وأجاب وهو لا يشيح بنظره عني:

- «بل ما يهم من هو صاحبه، فأيًا كان نوع هذا الكنز لا بد من معرفة مالكه، وما الذي سينتوي فعله به؟ تحسبًا لا أكثر».

ظللت أبادله النظرات بنفس القوة وأنا أهمس لمجدي ممازحة.

- «لمَ الكل هنا متحفز للكنز، هل تريدون الفتك بالرجل والاستحواذ عليه؟» ثم بدأت بالقهقهة بصوت عالٍ جعل فريدة تتحفز ضدي لذا سألتني:

- «كيف سمح أهلك لك بالذهاب مع شخص غريب بمفردك لمكان لا تعرفينه ولا يعرفونه هم أيضًا؟».

نظرت لها مطولًا ولولا أن هذا لقاؤنا الأول، كما أني أرغب في ترك انطباع جيد لديهم، لكنت رددت بطريقة أخرى لكنني تحكمت بعضلة لساني، التي هي حرفيًا أخطر عضو بجسدي، وأجبرت نفسي على الابتسام وأنا أخبرها:

- «والدتي توفت وأنا في الثانية عشرة من عمري ولحقها أبي مباشرة تاركين لي الكثير من المال لاعتقادهم أنه ذو أهمية عنهم في هذا العالم ورحلوا». ثم نظرت لها في عمق عينها وأكملت: «إنني

دومًا أضعهم نصب عيني ولم أفعل شيئًا أبدًا قد يخجلهم، فالفتاة تستطيع أن تجلس مع الأسود وتجبرهم على مهابتها ما دامت تقدر نفسها، بينما تلك الخانعة المنحلة فالموت أولى بها ويجب وأدها».

قلت جملتي تلك وعلى شفتي ابتسامة ودودة وأنهيت طعامي وسط ذهول الجميع. وتركتهم ورحلت فلحقني مجدي متعللًا بأنه سيأخذني بجولة في القرية.

- «ألم تكوني قاسية في الرد قليلًا على فريدة؟».

جمال.. كل ما تقع عيني عليه هو الجمال، الهدوء يغلف الجو، والصفو يملؤني لدرجة قاربت منها على التشبع والراحة، مشاعر لم أتذوق طعمها منذ زمن ليس بالقريب أبدًا. كنت أريد الاستمتاع بتلك الحالة الخاصة جدًا لذلك أجبته باقتضاب.

- «أين القسوة في حديثي؟ لم أقل إلا قناعاتي المجردة، أم أن هناك شيئًا لا أعلمه وأتى حديثي على جرح اندمل في القلب، فكان كالملح المتساقط على حوافه فأشعله وألهبه ألمًا؟».

أدركت أنني أردت تبرير إجابتي على شقيقته، فما زاد حديثي إلا الطين بلاءً. لذا غيّرت أساس الحوار، وأنا أنظر إليه:

- «ما سر تلك القرية، فجمالها ليس له مثيل، ما الذي أجبر قاطنيها على تحويلهم لها لقطعة من الجنة لم ينقصها إلا أنهار اللبن والعسل والخمر لتكون جنة حقيقية. تبدو كدولة داخل دولة، لها شرائعها وعاداتها. ما السر أخبرني؟».

علم مجدي أنني أرغب بتغيير الحديث لذلك ابتسم وهو يهز رأسه.

- «أخبرتك مسبقًا أن السر كله يكمن في الشيخ حسن، لقد آتى للقرية منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كانت ككل القرى المصرية بل كنت أكثر بؤسًا وشقاء، فقرية محاطة بالجبال معزولة عن كل ما حولها لم تكن لتكون تحت أنظار أي نظام حكم ذلك البلد يومًا. فكان كالخضر أينما وجد حلت الخضرة والبركة. لن أخبرك أن جميع الأهالي كانوا فقراء، بل كان فيهم من معه المال الوفير لكن كانت تغلف تصرفاتهم الأنانية المطلقة».

سكت شاردًا في الفراغ يستنشق العطور التي تعبق الجو، كان يرسم بحذائه حلقات دائرية. كنت أفكر في هذا الصديق الذي طرأ على حياتي جديدًا فأراني كل ما هو جديد وفريد، هذا الذي أظهر بعطفه ورحمته التي أغدقتني جوانب بشخصيتي لم أرِها لأحد إلاه. أرجع بمحبته الجياشة ما كنت أخبئه منذ سنوات خلف شخصية كتومة هادئة متخذة من لسانها درعًا يقيها من صدمات الزمن وغدر البشر، فلم يعد يحتمل كبدها ما يمزقه من جديد. كان دومًا أمامي يؤثر الصمت والتراجع حتى وإن كان على صواب فقط حتى لا يعكر سلامي النفسي شيء. لا أعلم هل هو جبن، أم حب، أم حكمة سابقة لأوانها، لكنه قطع حبل أفكاري باستكماله لحديثه.

- «لقد كان شيخ الجامع المُعين من قبل الأوقاف للقرية، حضر فكان الناس في ظلمات الجهل فأخرجهم منه لنور، كانوا يغرقون في بحار الأنا والضلال فأرساهم على بر التعاون والمحبة. جعلهم يتصالحون مع طبيعتهم البشرية، وأخبرهم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الحل في تطبيق الشريعة الإسلامية. أعلمهم أنه قادر على حل جميع مشاكل حياتهم مقابل الطاعة التامة

والمحبة، فكل ذنب أو خطأ يرتكب سيقوم صاحبه بتطوير جزء من القرية على حسابه ومع مرور السنين تحولت القرية لذلك الشكل الذي أمامك».

أنهى حديثة بنظرة فخر بما صنعته أيديهم فذهله ضحكتي المدوية -عيبي الذي حاولت إصلاحه على مدار سنين حياتي لكن كان الفشل الذريع هو ختام كل هذه المحاولات- كان يتوقع بدلًا منها تصفيقًا حارًا لمجهوداتهم الجبارة. لكن ماذا أفعل بطبيعتي فأنا لا أعرف معنى الكذب، أخبئ الحقائق لكن لا أكذب ولا أجمل حديثي مهما كان جارحًا باترًا لقلوب من أمامي لذلك أفضل الصمت واعتزال الناس، بينما مع مجدي أكون على طبيعتي دون تجمل أو تكلف أو أن أحسب حسابًا لكلماتي. ما إن هدأت نوبة ضحكي حتى أطلقت سهامي عليه.

- «كان يجب على شيخك حسن إذًا أن يحكم على طبيعتكم الشيطانية وليست الملائكية. إذا أصبحت القرية بهذا التطور بسبب ذنوب أهلها فهم شياطين وليسوا ملائكة».

كور قبضته ليكظم غيظه، لكنني اعتقدت أنه سيهم بضربي لذلك رفعت معصمي لأحمي وجهي كرد فل طبع في حمضي النووي. صدمه تصرفي هذا فأمسك يدي برفق وهو يقول: «أنا لم ولن أضرب امرأة قط في حياتي، ورغم وقاحة لسانك إلا أنني اعتدت عليه بالفعل، لنعود لحديثنا ولأوضح لك الأمر فلقد تم بناؤها بالتكفير عن ذنوبهم، نحن بشر لسنا ملائكة ولا شياطين، نخطئ ونتوب ونكفر عن ذنوبنا، وخير الخطائين التوابون. جميعنا يملؤنا الذنوب والآثام

وقلة قليلة من تكفر عن ذنبها حتى إن تلك الحديقة التي على مرمى بصرك من قام ببنائها أنا وأخوتي، فبحجم الذنب يكون حجم التطوير بالقرية».

كان يشير بإصبعه إلى تلك الحديقة التي أقيم بها العزاء. عقدت كلتا يدي أمام صدري واقتربت منه يعلو شفاهي بسمة خبث متشفية لما سأفعله. فلقد داعبت خده بأطراف أناملي بطريقة أجفلته هامسة في أذنه ممازحة إياه.

- «ما هو الذنب الكبير الذي وقعت فيه أنت وإخوتك لكي يكون التكفير عنه بهذا الحجم؟».

نظر إليّ بعيون كالجمرات تمنى لو تحرقني وتحرقه معي ندمًا على إحضاره لي في قريته الغالية، لو شطرني نصفين بلسانه الذي جعله حبيس فكه لعلمه اليقيني أنني سأرد الإهانة ليس فقط ضِعفًا بل عشرة أضعاف فعله، شعرت بمدى غضبه عندما جذبني خلفه لنستكمل جولتنا في هذه القرية، قرية الأشراف.

***

تحاشى معي الحديث تمامًا وأشغل نفسه بالسلام على أهل القرية والسؤال عن أحوالهم، يبدو أن الجميع هنا يعرفون بعضهم حق المعرفة، فبعيدًا عن إيمانهم التام بأن البيوت هنا ليس بها أسرار، فالكل يعرف ما حدث ببيوت الكل بلا رادع، بلا حاجز، بلا حرج. جميعهم قد اشتركوا في ذات النظرة الاستفهامية عن ذاتي ونفس الترحيب الحار المصحوب بالدعوة لتناول الطعام في جميع المنازل، لم أشعر أنه كرم، ولكن فضول لمعرفة المزيد والمزيد.

كانت تقف قبالتنا امرأة خمسينية، كانت مشغولة بالحديث مع الكثير من النسوة، يقف خلفها رجل أحدب تعلو التجاعيد وجهه يدون كل ما تهمس له به بسرعة لا تتناسب مع عمره الذي حفر على جلده. هيئتها كانت لا تتناسب مع لقب ريفية بل سيدة أعمال في أرقى الأوساط رغم عدم تخليها عن اللباس الريفي الجلباب الذي كان بلون عينيها «فيروزي»، تزينه زهور بنية صغيرة مناسبة لبشرتها الخمرية، تبتسم للجميع بود وتوزع نفحات معونية للمحاوطين لها.

نظرت باتجاهي وأشارت لمجدي بالإقبال عليها، فاتجهنا نحو ذراعها الممتدة أمامها لاستقبالنا قبل الوصول لها حتى. مرحبة بصوتها الودود:

- أهلًا أهلًا، بالغالي ابن الغالي. كيف حالك يا ولدي؟

- أهلًا بك يا خالة، كيف حالك؟

كانت تحدث مجدي، لكن كان نظرها محبتًا على وجهي بتساؤل ظاهر جلي على قسمات ووجهها، ولكن استحى لسانها من نطقه. فرحمها مجدي من فضولها بأن أجاب:

- صديقتي سالمين، حضرت لتمكث في منزل عائلتي لمدة من الوقت. أرادت رؤية القرية والتعرف على أهلي.

علامات الصدمة حلت محل الفضول، مع لمحة ضئيلة من الاستنكار الذي حاولت إخفاءه بالتبسم والترحيب بي.

- أهلًا بنيتي، أتمنى أن تكون القرية قد أعجبتك.

رسمت نصف ابتسامة على وجهي وأنا أرد عليها بصوت خفيض:

- القرية أذهلتني الحقيقة، لا يجب أن يطلق عليها قرية من الأساس، يبدو أن مستقري سيكون هنا بالنهاية.

نظرت لمجدي وعلامات الخبث زينت ضحكتها، فوارى نظره عنها خجلًا وعلامات الحمرة كست وجنتيه، بينما علامات البلاهة قد ملأت نظرتي لهما. ولم يخرجني من شرودي سوى سؤال مجدي لها:

- كيف حال المنح التي تغدقين بها أهل القرية والمحتاجين؟ احفظي فلوسك يا خالة، الزمن كالبحر قد يغدر بك في أي وقت.

ربتت على كتفه، كانت قسماتها محفورًا بها الحنان. لمحة حزن كست وجهها، مع انكسار ضحكتها قليلًا، مما جعل صوتها يخبو كأنها ستحكي ما يخجلها ويعري جرحًا غائرًا كالأخدود في فؤادها.

- ولمن سأحفظ المال، فمنذ وفاة زوجي وقد هانت الدنيا في عيني، لكن ما مزع روحي وشتتها هو أن ابنتي اشتاقت لأبيها فلحقته. ولم يرحما الاثنان وحدتي ووحشتي في هذه الحياة. فلمن سأترك المال يا ولدي. هذا المال يشتري لي الونس فكما ترى لا يخلو منزلي ولا طريقي من الملتفين حولي، أنا الأكثر احتياجًا لهم في هذه الدنيا.

في أسى أجابها: «رحم الله الجميع وطيب ثراهم، وبرّد قلبك وأثلجه. سأتركك لأناسك الآن».

رحلت أنا ومجدي وما زالت عيناها معلقة بوجهي، وما إن ابتعدنا حتى أخبرني مجدي قصتها دونما أي طلب مني:

- «الحاجة سنية، رحل زوجها منذ زمن، كنت صغيرًا جدًا في هذا الوقت. ولم يمر إلا وقت قليل جدًا حتى اختفت ابنتها، والبعض قال إنها غرقت في المجرى المائي في القرية ولم يعثر على جثتها حتى الآن. ظلت واقفة تنتظر ابنتها لمدة أسبوع بأكمله. ثم انتظرت جثتها لأكثر من عشرين عامًا ولم تصل إليها حتى الآن، لكنها رغم كل هذا الحزن لم تفقد جمالها ولا رونقها. وكما رأيت لها في الخير باع كبير. فلا توجد فتاة على مشارف زواجها إلا وساعدتها في جهازها. كذلك علاج المرضى. ومداواة المنكوبين. والكثير الكثير. لم تبخل يومًا على أحد قط ما دام في استطاعتها مساعدته».

شرد للحظات مستحضرًا ذكريات مر عليها عقدان وأكثر، كان منكفئًا على وجهه يلتقط شيئًا ما يلمع على الأرض، لكنه اكتشف أنها مجرد ورقة صفراء لامعة لا أكثر فألقاها وهو يكمل:

- «كان من المفترض أن أتزوج ابنتها عندما نكبر، لكن القدر وضع كلمة النهاية قبل بداية القصة من الأساس. كما أن والدتي -رحمها الله- لم تكن أبدًا لتوافق على الزواج بيني وبين هذه الطفلة المتوفاة».

- «لمَ؟».

- «قبل زواجها كان بينها وبين أبي قصة حب ملتهبة، علم بها القاصي قبل الداني. لكن عندما حضر ذو الجاه والمال تمت الصفقة وتم تزويجها في أقل من ثلاثين يومًا، وخسر أبي قلبه وقرر الزواج ممن تحبه وكان من وقع عليها النصيب هي والدتي، كانت أيضًا قد ورثت الكثير من والدها، فاعتبر أبي المال تعويضًا عن مصابه.

وعندما مات زوجها كان أبي قد قرر استعادة أمجاد الماضي معها، لكن وقفت له أمي بالمرصاد فقرر التراجع عن قراره بالنهاية. لم يكن ليقبل أن يخسر كل المميزات التي كان توفرها له تلك الزيجة».

قاطع حديثه صوت منادٍ باسمه بأسلوب مرح، فالتفتْ لأجد فتى قمحي اللون ثلاثينيًا، منتفخ الوجه والجسد، يترنح في مشيته يمنة ويسرة كمن يحتاج لشيء يستند عليه حتى لا ينكب على وجهه. رغم طوله الفارع لكن شحمه قد قلص هذا الطول للناظر إليه فجعله يعتقد إنه ذو بضع وخمسين مترًا فوق المئة لا أكثر. أخذه مجدي بين ذراعيه شوقًا وصداقة له.

- «الشيخ مراد، أم الدكتور مراد؟ أين هي أراضيك يا رجل هذه الأيام؟».

كان ما زال محتضنًا له، متبادلين القبلات وهو يضحك ملء شدقيه:

- «هل نسيت ما كنت تلقبني به في صغرنا، أم أن تواجد الجميلة أخفت الوحش الذي بلسانك».

ضحكت على ضحكهما، صدق من قال إن الأنقياء دومًا يغلف قلوبهم طبقات كثيرة من اللحم تمنع السواد من الوصول إليه، كان يلهث بشدة أثناء ضحكه كأنه هدّ الجبل بأكمله بمفرده.

- «ليست الجميلة السبب، أخاف أن تصيبني إحدى دعواتك ويؤمن خلفك المصلون فأصبح من القردة والخنازير».

- «منذ أن عاهدتك وأنت منهم فلا تتحجج بالدعوة».

وأخذا يقهقهان إلى أن شق صوت أذان العصر عنان السماء فكان بمثابة هادم اللذات بين الأصدقاء، ففرقهما كل منهما في طريقه. هذا للمسجد وذاك مع جميلته في رحلة الأقدام ولكن ليس عبر الغابة بل عبر الجنة ونعيمها. أكمل ما كنا بصدده:

- «لنعود لقصة أبي، إنه..».

قاطعت حديثه المسترسل قبل بدئه، فحقًا لم تكن لي رغبة في مثلث الحب الشهير بين والده ووالدته وتلك المدعوة سنية. لذلك قمت بقلب دفة الحديث:

- «يبدو أنك ومراد أصدقاء منذ زمن؟ على الرغم من التباين الجلي في طبيعتكما».

مط شفتيه امتعاضًا على قراري المفاجئ، ولكنه قرر في النهاية كالمعتاد الخضوع لمطالبي المزاجية فجاراني قائلًا:

- «مراد صديق الطفولة، كان ذا روح مرحة نقية، لكن كان عيبه الوحيد وما زال شهيته المفتوحة. افترقت طرقنا في مرحلة الجامعة درس الصيدلة وأصبحت لديه صيدلية هي الأكبر في البلد، ولا أبالغ إن قلت الوحيدة، فوالده هو الطبيب الشرعي هنا، يملك من المال الكثير ولم يبخل يومًا على ولده. هذا الذي أصبح بعد الشيخ حسن -رحمه الله- شيخ الجامع بسبب ثقافته وعلمه إلى أن تحضر الدولة شيخًا آخر في قامة الشيخ حسن».

- «هل للشيخ حسن تلك المنزلة والهيبة؟».

- «لقد تحولت القرية كليًا منذ قدومه كما قلت لك سابقًا، وبالطبع

لم يغفل ذلك الأمر على أعين الدولة، فلقد علمت أنه الآمر الناهي رغم عدم تقلده أي منصب سياسي، وبسبب جهوده في تطوير القرية أصبحت له مكانة أيضًا لدى الجهات السيادية، لهذا لن تغامر الدولة وتحضر شيخًا لا مكانة له، بلا حجة، ولا يملك البرهان، ليكون بديلًا حتى يتقبله أهل القرية».

هززت رأسي شاردة أغمغم:

- «لن تُحضر أحدًا، بل ستترككم في غياباتكم تتخبطون. لقد استفتيتم أنفسكم وقرعتم أقلامكم فوليتم مراد عليكم، فلما تتدخل وتمزع ما تنسجون، وقد انتهيتم بالفعل من إلباس ملابس الولاية لمن هدأت له سريرتكم. فإن أصبتم كان لها الثواب، وإن أخطأتم، قالت إني بريئة مما تفعلون. لن تُحضر أحدًا».

- «ها قد وصلنا لنهاية رحلتنا اليوم، إلى عجيبة الدنيا الثامنة، منزل الحاج سالم».

كان هذا رد مجدي على غمغمتي، التي في الغالب لم تصل لأذنه. نظرت لما يشير إليه بسبابته لأجد المنزل الكبير الذي رأيته من على التلة، كان بُعد المسافة يُظلمه كثيرًا. هل تعلم قصور سليمان أعتقد أن هذا المنزل هو أحدها، بشكله، وكنوزه، وخدمه. منزل يحمل اخضرار الريم في لونه، اتساع سفوح الجبال في حجمه، حركة خلية النحل في دأبه. استفهمت من مجدي عما يحدث.

- «ما كل هؤلاء الناس؟ ولمَ بوابته مفتوحة على مصراعيها بتلك الطريقة؟».

متجولًا بعينيه بين ثنايا البيت باحثًا عن شيء أو شخص ما، هامسًا بصوت بالكاد سمعته ليس بسبب حساسية ما سيقوله، بل لإجابته لي بنصف عقل، بينما يطوف النصف الآخر في البحث عن المجهول.

- «أنت تعلمين أن قريتنا بين الجبال، والمسافة بينها وبين أقرب قرية مسيرة أكثر من يوم. لكنها على الطريق الرئيسي بين القرى والمحافظات الأخرى، فيمر بنا الكثير من الغرباء. لذلك نذر الحاج سالم منزله مكانًا للاستراحة والتزود بالطعام والشراب لكل عابر سبيل أو محتاج أو تائه قد ضل الطريق. هذا منزله كما ترين دومًا يضج جنباته من الأرجل الطوافة به. لكنني لا أرى الشيخ سالم كنت أود أن أعرفك عليه».

أجبته في وهن وقد ضغطت بطرفي الإبهام والوسطى على جانبي ناصيتي «لا يهم سأتعرف عليه بالتأكيد يومًا ما، لكن حان وقت العودة للمنزل فلقد تورمت قدماي، وشق رأسي نصفين من الصداع كما شق موسى البحر ليعبر من خلاله!».

هز رأسه بالإيجاب. وعدنا أدراجنا مع مغيب الشمس عن كبد السماء، وغروب البشر عن طرقات البلدة. يبدو أن اختفاء قاطني القرية داخل منازلهم مع ظهور القمر هو العادة الوحيدة التي قررت تلك القرية التمسك بها كإظهار ولائها لعادات الفلاحين وتقاليدها.

عدت للمنزل ملقية بحذائي دونما اكتراث بمكان استقراره، توحدت مع الأريكة المتواجدة في صالة منزل مجدي دونما اهتمام بالمتواجدين في المنزل وآرائهم، شاردة بفكري بما رأيته اليوم من

عجائب في هذه القرية دونما اعتناء بما يقوله مجدي. فكل ما رغبت به حقًا هو الهدوء ولو لثوانٍ معدودة، فلم أعتد طوال حياتي على هذا الكم من البشر وصخبهم. لم أعتد على كثرة العيون المتفحصة، على إلجام لساني عن الصراحة، وتقبل المجاملات بصمت مطبق، نعم، نعم إن حقًا ما أبتغيه هو الصمت. صمت العالم من حولي لبضع دقائق في ساعة ما. ولكن هيهات أن أنال ما أريد في ظل هذا الشبح الضبابي القابع أمامي الذي انتبهت أخيرًا لكلماته.

- «ما بك؟ لِمَ لَمْ تجيبي عن سؤالي؟ ما رأيك بالقرية؟ بل ما رأيك بالمكوث فيها؟».

هززت رأسي بهدوء بعيون مغلقة قليلًا أجبته: «ما رأيي بها، وهل يمكن أن يتكون لي رأي من ثاني يوم فقط لتواجدي. قد يكون ظاهرها رائعًا براقًا يسلب العقول ويعمي الأبصار، لكنه لا يعمي ما في الصدور التي لتقنعها لا بد من الغوص في باطن تلك القرية وخفاياها. هذا الباطن هو حقيقة كل شيء. فلقد كان الشيطان في يوم ما عابدًا تقيًا ورعًا في ظاهره لدرجة أن البعض قد اعتبروه ملاكًا، لكن كان باطنه ذا طبيعة نارية متمردة أبت التقيد لذلك طرد من رحمة الإله».

نهضت من أمامه بخطى متثاقلة متهالكة ناحية غرفتي للاستحمام لإراحة عقلي قبل جسدي مكملة حديثي:

- «اعذرني، فأنا كمن كان ينظر طوال حياته على الدنيا من خلال ثقب أجوف قرر أن يجمح على حائط قبو مظلم، وفجأة دمر ذلك القبو والحائط. أحتاج فقط بعض الوقت لتعتاد عيني على النور،

لأرى الحقيقة واضحة وكاملة، بلا تشويش أو تغليف».

- «ما الذي تعنينه بحديثك هذا؟».

لوحت له بيدي مودعة إياه صاعدة أول درجات السُلم كناية عن نهاية الحديث بيننا لهذا اليوم!

***

صبيحة اليوم الثالث، ذات الحلم يتكررا مَن حسن هذا؟ وهل هو ذاته الشيخ حسن؟ وإن كان ما الذي يريده وما مغزى حديثه وحركاته؟ في عجالة نزلت لأسفل لأسأل مجدي عن الحلم قبل أن أتناساه، لكن يبدو أن مجدي قرر معاقبتي على تصرفي معه بالأمس لتركه في منتصف حديثه دونما إكمال؛ فرحل قبل أن أستيقظ، تاركًا لي دليلًا آخر يكمل معي رحلتي في القرية، ولم يكن هذا الدليل سوى ابن رفيق أحلامي تلك الأيام، جلال!

- «أعتقد أنك تدعى جلال أليس كذلك؟ لكن أين مجدي؟»

هز رأسه بالإيجاب. وقال بصوت هادئ واضعًا يده خلف ظهره:

- «بالفعل أنا جلال، أرسلني مجدي لأكون في خدمتك اليوم. فلديه الكثير من الأعمال ويعتذر لك عن تركه لك هذا النهار».

ثم خطا خطوات مرتجفة متأرجحة مترددة باتجاهي، متلفتًا برأسه كالبوم في كل الاتجاهات، مما حدا بجهازي الدفاعي التحفز ضده رغم أن ضآلة جسده لم تكن تستحق هذه المبالاة، لكنه همس بهدوء:

- «لكنني قادر على أن أسليك حقًا هذا اليوم، فلقد علمت ما هو الكنز من وصية أبي، ومن صاحبه. إن رغبت أصحبك لمنزلي لأريك إياه، الأمر حقًا يستحق المغامرة».

غمز بعينيه البنية بطريقة مرحة. على الرغم من تعجبي التام من كيف أن يخبر مثل هذا السر لشخص غريب تمامًا عليه وعلى البلد، لكن ما شجعني هو لمعان حدقة عينه بطريقة تدل على مدى حجم الأدرينالين الذي ضخ بجسده لمجرد تذكره الكنز وهذا يدل فعلًا على قوة المغامرة. كما أن بنيته الجسدية لا توشي بالخطر، ولغة جسده التي توحي بالتذبذب والخوف مما يحيطه تجعله مصدر أمان لمثيلاتي. لذلك قبلت فورا طلبه وذهبنا معًا لبدء هذه المغامرة.

كان منزله خارج القرية، على أطرافها المهجورة كما دعاها. لم علم أن هناك جانبًا مظلمًا لتلك القرية متمثلًا في هذا المنزل، يحيطه العفن والمياه الضحلة من كل جوانبه، متهالك قديم آيل للسقوط كمن شاخ فجأة بعد موت صاحبه.

ما إن خطوت داخل المنزل وبدأ الشك يساورني، فهذا المنزل لم يسكنه أحد منذ عقود. الأثاث متهالك وملقى في كل جوانبه تعلوه الأتربة طبقات متراكمة، مرسوم على سقفه بخيوط العنكبوت حلقات متداخلة ومتقاطعة تتدلى منها بقايا حشرات علقت في الخدعة ولم تستطع النجاة من هرم الغذاء الذي فرض عليها بغير رضاء منها أو اختيار. حاولت السيطرة على هذا الناقوس الذي دوى صوته في قفصي الصدري بأن الأوان قد حان لترك تلك المغامرة والرحيل. لكن هيهات فلست أنا من تترك الأمور عالقة في المنتصف، فلن يسمح لي

فضولي بالرحيل حتى وإن رغبت. قلت له ممازحة:

- «يبدو أن الشيخ حسن كان كالمسيح خاليًا من الذنوب، ليكون منزله على تلك الشاكلة، لم يطوره أو يجدد فيه بتاتًا. أليس القاعدة التي وضعها كدستور هنا أن الذنب يقابله تطوير وتجديد لمكان إقامتك وبلدتك لتنال المغفرة».

سعلت مرتين نتاج تعفن رئتي من الرائحة المقززة التي تفوح من المنزل؛ فضحك جلال وهو يقول بصوت جهوري:

- «ألم تعلم أن أهل القرية قرروا بناء مقام له فوق مقبرته. يطوفون حوله ويتبركون به ويتقربون من خلاله لخالقنا الواحد الأحد. أرى أنك قررت الانسحاب قبل بدء اللعبة حتى».

ارتفع حاجبه وظهرت نظرة تحدٍّ لم تزق لي، كان كالثعلب يعلم جذب طريدته لمصيدته. خطوت بخبات نحو مصيدته متحدية إياه، أجول ببصري في أرجاء المنزل لأدرسه.

- «لا بتاتًا لم أنسحب قط من قبل، فلست أنا ممن يجب عليها الانسحاب. لكن اخبرني هل حقًا تقطن بهذا المنزل بمفردك وهو على تلك الحالة؟».

لم أتلقَّ جوابًا لذلك نظرت لمكان تواجده لكنني لم أقابل إلا الفراغ. كأنه توحد مع الأرض واندمج معها. ظللت أناديه لكن لا جواب، عدة دقائق مرت كالدهر أدور حول جزعي في كل الاتجاهات لعل هناك دليلًا على موقعه أو موقعي لكن لا أثر أو آثار. فقط صدى صوتي المنادي باسمه يتردد في الأرجاء منتهكًا حرمة الصمت وجلاله،

ليفرض رهبة على الموقف كله.

عندما قررت الانصراف ظهر من العدم حاملًا في يديه كتابًا يبدو عليه القدم، ناولني إياه لأتفحصه. كان غلافه من جلد كالحراشف كجلد تمساح جف وأصبح جيفة فقرروا الاستفادة من بقاياه. كانت صفحاته من جلد حيوان رقيق محفور فيها كتابة عربية واضحة وصريحة لكن الكلمات كانت كترجمة لشيء ما. رائحة نفاذة تفوح من بين ثناياه ليست كرائحة الكتب المحببة لقلبي جعلت رأسي يتراجع للخلف قليلًا كرد فعل طبيعي لجسدي لتفادي تلك الرائحة. يتوسط الغلاف مثلثان متقاطعان زواياهما كانت ست جواهر لم أرَ لهن مثيلًا من قبل، وتتوسط المثلثان جوهرة حمراء كبيرة، كانوا السبعة يحملون ألوان قوس قزح ذلك الجمال الذي يظهر بعد ليلة مطيرة كدليل على أن الظلام لا بد له أن ينجلي ويحل محله الصبح بإشراقته. حاولت قراءة ما بداخله لكن صوت جلال قاطع كل شيء.

- «ما تحميله بيدك هو الكنز. حافظي عليه بروحك فأنت يا صغيرتي مالكته الوحيدة، حضورك للقرية لم يكن محض صدفة، بل كان مقدرًا من قبل مولدك!».

حاولت أن أناوله هذا الكتاب، غير مصدقة للعبث الذي يهذي به، أي كنز وأي قدر يتحدث عنه. اللعنة عليه، على قدره، بل اللعنة على تلك القرية جمعاء.

- « خذ يا هذا كتابك. فلست في مزاج يسمح بالمزح، ولا أصدق كل ما خرج من بين شفاهك الآن، لذاك من فضلك أصمت وأرجعني لمنزل مجدي».

لم يعر انتباهًا ليدي الممتدة، ورحل عبر باب المنزل تاركًا لي القرار للحاق به أم التسمر بمكاني في هذا المنزل الموحش، لحقت به مهرولة عبر الطرقات وأنا مصممة بأن يسترجع وديعته فأنا لم أقبل بهذا الكنز ولم أحضر لأجله من الأساس، لكنه توقف فجأة فلم أستطع تفاديه مصطدمة بصدره لكنه على الرغم من هزاله كنت كمن أرتطم بحائط صد لم يتحرك قيد أنملة رغم اندفاعي، بل أمسك يدي لأستعيد توازني.

- «أنا أعلم عن أحلامك بوالدي التي تراودك ليلًا، هو من أخبرني. أخبرني أيضًا أن هذا السر هو ما سيجعلك تقبلين بالمهمة. فالكنز ليس كما تتوقعين، بل هو مفتاح جهنم إن أردت الحقيقة. أعتذر لك هذا الكتاب لا أستطيع استعادته. كان جاثمًا على صدري ولقد أزحته الآن، حان وقت العين الثالثة، لقد آن الأوان لفتحها».

ما تلك المصيبة التي حلت فوق رأسي، كيف علم بالأحلام، وما مقصده بأنه كنز ملعون، ولمَ أنا؟ كان اتساع حدقتَي عيني دليلًا على ما يعتمر صدري من انفعالات. ألقيت نظرة خاطفة على الكتاب وأعدت بصري مجددًا إليه، لكنه كان قد اختفى ثانية. وإذ بي أمام منزل مجدي على الرغم من أن حديثي مع جلال كان على مشارف القرية! يبدو أن الإرهاق داعب عقلي فعلًا وجعل كل الأمور تختلط ببعضها تاركة دوامة عاتية تعصف بذاكرتي وقوتها.

على الرغم من شرودي فيما يقبع في ذلك الفراغ بين ذراعي وجسدي، إلا أن قدمي كانت تعلم الطريق جيدًا لداخل منزل مجدي، ضجة لأربعتهم كانوا واقفين كالجنود المنتظرين فقط لأمر زعيمهم

للفتك بي. عيون كالجمرات تحرقني من كل صوب، وثور هائج يتقدم صوبي بكل قوته ممسكًا يدي، هذا الذي أحضرني لهذا المكان في أول الأمر.

- «أين ذهبتِ، ولما لم تتركي معلومة عن مكان تواجدك مع أحد قاطني المنزل، لقد جف دمي في عروقي خوفًا عليك».

جذبت يدي من بين قبضته بحدة تتناسب مع تلك العيون الشامتة التي تتطلع في موقف أخيها معي. كما لو كانت تتمنى أن تكون تلك القبضة محاوطة لعنقي لدكّه وليس فقط لمعصمي. ولا أعلم حقًا سبب كرهها الجلي.

- «ليس معنى أني في ضيافتك أن أكون عبدتك تتحكم بي كيف تشاء. ثم كيف لك السؤال وأنت من قمت بإرسال جلال ابن المدعو حسن ليحل محلك هذا اليوم بسبب مشغولياتك وأمورك المهمة التي طرأت فجأة دون حتى أن تعلمني بهذا القرار. كل الأمر قد استغرق فقط ساعة فلمَ هذا الصراخ والعويل؟ وتلك المحكمة التي نصبت للساحرة التي يجب حرقها لمخالفتها لقواعد منزلك العزيز».

ارتخت يده بجواره، صاحبها صوت شهقة مدوية كموسيقى مصاحبة لحركاته تأتي من فم أخته المستترة خلفه. كأنه لم يستوعب ما سمعه فقال في تردد وتأنٍ وترديد الكلمات الناطق بها مرتين، كمسجل قرر يعيد نفسه بنفسه.

- «مع، مع.. من كنت، كنت تتجولين بالقرية، بالقرية».

- غالبت دموعي حتى لا أنكسر أمامهم مجيبة تساؤله بأنفة: «لقد

سمعتَ ولن أكرر كلامي مرة أخرى، واحذر مرة أخرى أن تعاملني بتلك الطريقة. هل فهمت؟».

كان يشير بإصبعه للساعة المعلقة بالجدار التي تشير عقاربها إلى أنها تجاوزت الحادية عشرة مساء كتبرير لفعلته، نظرت خارج الدوار وإذ بالمساء قد حل، ويعلو صوت سيمفونية معزوفة من فم القطط والكلاب ولم ترضَ الضفادع إلا أن تضع لمستها السحرية بصوتها على تلك المقطوعة المزعجة التي تصم آذان المستمعين.

حاولت تمالك أعصابي لأني على يقين تام بأن الأمر لم يستغرق حقًا أكثر من ستين دقيقة، فلقد نظرت للساعة التي تحاوط معصمي الأيمن دومًا كما أحب أن أرتديها عند خروجي من منزل هذا الحسن. كما أن الشمس كانت تتوسط كبد السماء عند وصولي لمنزل جلال. فكيف شرق الوقت هذا ما لا أفهمه! كيف مرت أكثر من اثنتي عشرة ساعة دون وعي مني هذا ما لا أستوعبه أو أفقهه. صوت آتٍ من خلف كتفي اليسرى كبوق إعلان بداية الحرب.

- «سالمين، انظري إليّ. هل تناولت مخدرًا ما سبب لك بعض الهلاوس، هيا أخبريني ولن أغضب أعدك». صمت برهة لعلمه اليقيني بثقل ما سيقوله: «أم كنت مع شخص آخر تقضيان وقتًا ممتعًا معًا، وأردت تبرير غيابك بتواجدك مع جلال».

لم يلق إلا صفعتي ردًا على صفاقته وتجاوزه. لم أبالِ بعاداتهم البالية، أو بأفضلية الرجل على المرأة. لم أبالِ بأنه رجل شرقي أهينت كرامته وهدرت على يد امرأة من ذات سلالته تدرك تمامًا فداحة ما فعلته. لم أبالِ ببساطة لأنه لم يبالِ بأن يصون لسانه

ويلجم غضبه أمامي، فتلميحاته ذات طبيعة نارية لا تخمد إلا بعد أن تحيل كل ما حولها ركامًا.

- «لقد كنت مع جلال، ولم أبقَ معه إلا ساعة واحدة بمنزل أبيه بسبب الكنز. لا علم لدي كيف تبدل النهار بالليل، أعلم فقط أنني لا أهلوس ودليل كلامي هذا الكتاب الذي أمسكه فجلال هو من أعطاني إياه».

أربعة أذرع تحاوط جذعه، يقابلها أربعة أقدام تتشبث في الأرض محاولة ثنيه عن الفتك بي ثأرًا لكرامته، ولم يفحلوا إلا بعد جهد مضنٍ تلجيم غضبه فلم يتمكن من الوصول إليّ إلا بحديث يصم آذان كل من يسمعه في نطاق قريته والقرى المجاورة.

- «عن أي جلال تتحدثين، هذا الميت الذي قمنا بدفنه في صباح هذا اليوم، هذا الذي أخذت أنا وإخوتي مع أهل البلد واجب عزائه اليوم، هذا الذي ما زالت جثته دافئة تحت الثرى، هذا الذي صوانه ما زال منصوبًا لم يفض بعد، هذا الذي ارتشحت النساء بالسواد من أجله. هيا أخبريني هل هذا هو جلال الذي كنت معه، وتريدين إقناعي بتراهاتك تلك فكيف بالله عليك؟!».

هوى جسدي على أقرب كرسي من هول ما سمعت، من الذي مات، ومن الذي كنت معه؟ هل هذا مزاح من مجدي وصديقه ليرد لي ما أفعله معه. لكن هيئته لا توحي بالمزح أبدًا. وهل سيشترك إخوته معه بالمزح، وإن اشتركوا هل تشترك الشمس أيضًا؟ هناك شيء ليس مفهومًا! إن كنت أتخيل فكيف وصل هذا الكتاب اللعين بين أصابعي! أجبت بصوت مرتجف وجسد يهتز بقوة الصدمة الواقعة عليه.

- «جلال هذا شاب في العشرين من عمره، بشرته بيضاء صافية كالحليب، نحيف الجسد كجذع شجرة أجوف في يوم خريفي جاف، عيونه بنية. ألدغ الحرف واللسان. أليس هذا هو ذاته جلال حسن. هذا من قابلته اليوم. ودفع هذا الكتاب لي كدليل يثبت براءتي مما تلومونني فيه. صدقني يا مجدي فأنا لم أكذب قط».

هدأ صديقي أخيرًا واستكان، حل العقل محل الفؤاد المشتعل غيرة، لينظم الأمور المتشابكة ويحللها ليخرج بشيء منطقي واحد مما حدث. أخرج هاتفه المحمول عبث فيه قليلًا بسرعة بيد تنتفض من إثارة الحدث. إلى أن توقف فجأة ووضع الهاتف قبالة وجهي، تحتل شاشته صورة الشاب الأجوف.

- «هل هذا هو جلال الذي كان معك؟».

جاءت إيماءتي الموافقة على حديثه كالصاعقة التي أصابت الجميع فخروا جميعًا بجواري، صامتين كأن على رؤوسهم الطير لأكثر من نصف ساعة أو يزيد. كل سابح في ملكوته محاولًا مداراة عوار عقله وفهم ما حدث. لكن كان الجميع مثلي كالأنعام، بل أضل لا نفقه شيئًا مما حدث! كانت كلمة الفصل من فم هيثم الذي زادت تأتأته وهو يقول:

- «أعطني هذا الكتاب، لأرى ما به».

قام أنور وجذب الكتاب من يدي والتف حوله هو وإخوته يتفحصونه، يحاولون قراءة ما بداخله أو فهمه، أيهما أقرب. عاصفة قوية هبت بعقلي شتتت تفكيره السليم، أحاكت أنسجة غليظة من قماش أسود حول تلافيفه فأعتمت تحليله للأمور، صداع ظل يطرق

بيد حديدية على جدران جمجمتي فأحال الدقائق التي مكثتها مع هذه العائلة للانتهاء من مسرحيتهم الهزلية بالفهم إلى سعير كل ما أرجوه هو الفكاك منه.

- «ما هذه اللغة الغريبة المكتوب بها الكتاب، إنها غير مفهومة!».

كانت تلك هي جملة النهاية، فما إن نطقتها فريدة وأمّن عليها إخوتها، حتى جذبت منهم الكتاب غير مصدقة ما الذي يبتغونه من وراء تصرفاتهم تلك. أمشي الهوينى بتجاه غرفتي، وأنا أخرس الجميع بقولي الهادئ.

- «ما بالكم هل محيت العربية من قاموس فهمكم حتى لا تفقهوا ما خطه القلم في هذه الصفحات، لقد كتب بلغة عربية مبينة. لكن لا طاقة لي للقراءة. فلقد أجهدت اليوم وفرغت بطاريتي. نكمل حديثنا غدًا إن كان لحياتكم شروق».

أرحت جسدي على فراشي الوثير حقًا، تذكرت الكلمات التي قرأتها في أحد صفحات الكتاب، كانت بالعربية لكنها ليست مفهومة بتاتًا، جلست أخطها في الفراغ المنتشر في الغرفة وأتمتم بها لنفسي لعل فعلي هذا يرشدني للمغزى منها. حفظتها عن ظهر قلب بمجرد وقوع بصري عليها، كان مكتوبًا بلون أحمر قانٍ: «من يرى جميع ما حدث، بعضه في يقظته، وبعضه في نومه. من يتخيل بذاته الأشياء ولا يراها ببصره. هؤلاء تكون أقاويلهم أقاويل محاكية، ورموزًا وألغازًا وتشبيهات. فمنهم من يقبل الجزئيات ويراها في اليقظة ولا يقبل المعقولات، ومنهم من يقبل المعقولات ويراها في اليقظة ولا يقبل الجزئيات، ومنهم من يقبل بعضها ويراها دون البعض. لكن من يمتلك

القوة الباصرة فإن المحسوسات الواردة عليه من الخارج لا تستولي عليه استيلاء يستغرقه بأسره. بل تكون كالرسوم العائدة إلى رأسه وتنعكس على حاسته المشتركة والقوة المتخيلة؛ فيصير ما أعطاه العقل الفعال من ذلك مرئيًا لهذا الإنسان»(1).

كنت أدور في دوائر مغلقة إلى أن قرر جفناي إزاحة هم التفكير من أمامي، والتقيا أخيرًا بعد فراق طويل. وغلف الظلام حدود رؤيتي، وهدأت سريرتي، وانتظم نفسي، وغشي الهدوء عقلي، وحل النوم ضيفًا مرحبًا به بعد أرق طويل، على يومي الثالث لينزل الستار على مسرح أحداثه.

***

صوت طرقات مستمرة على باب حجرتي تنبئ ببداية اليوم الرابع قبل بروز خيوط نوره في الأرجاء، نهضت متململة لاعتقادي بأنه مجدي قد حضر للاطمئنان بأني بخير. لذلك فتحت الباب وأنا أخبره بدلال.

- «إن كنت قد حضرت للاعتذار عما بدر منك تشكيكًا في أخلاقي، فلتعتذر صباحًا أمام الجميع معلما أهنتني. لم أكن أتوقع ذلك منك بتاتًا».

- «بالتأكيد لم أفعل شيئًا خاطئًا لأعتذر لك، لكنني حضرت للترحيب بك في منزلي يا بنيتي».

كان هذا الحديث صادرًا من رجل خمسيني، ما زال محتفظًا بلون شعره الأسود على الرغم من عمره. يرتدي جلبابًا أسمر انعكس لونه

على بشرته القمحية فزادتها إشراقًا. كنت أتفحصه بحالة من السكر الناتج عن عدم استفاقتي كليًا من النوم.

- أنا الحاج سعد، مالك هذا المنزل ووالد مجدي. أتسمحين لي بالدخول.

ابتعدت قليلًا عن الباب متعجبة من ميعاد حضوره، ليتمكن من المرور للغرفة. جلس على الكرسي المقابل للسرير وهو مبتسم منتظرًا أن أجلس ليكمل حديثه.

- «لقد أتيت لأرحب بك. عدت لتوي من رحلة عمل. وسأذهب باكرًا في رحلة أخرى. فهذا الوقت الوحيد المتاح لي لرؤية وجهك الجميل».

- «أهلًا بك عمي، لقد شرفت حقًا برؤيتك. كان الله في عونك وأعانك على ثقل حملك، وواجباتك».

تنهد بقوة: «حملي كبير يا ابنتي، وثقيل لدرجة تمنعني عن رؤية أبنائي إلا وهم نيام. ما عدا هذا الشقي أنور، يكون مستيقظًا لكنه ملهي في خصوصياته ولن أقاطعه بالتأكيد، ولن أعلمه بعلمي لها». غمز لي في نهاية حديثه مع ابتسامة جانبية ما لبث أن خبت.

كنت أنظر له في شفقة. متسائلة هل كان والدي مثله، هل كان يشبهه، أم كان من جلد آخر وجنس آخر، لا قلب له لينبض بحبي، هل تخلى عني أم ما الذي حدث ليختفي بين ليلة وضحاها كأنه لم يكن موجودًا يومًا. المحترم الجالس أمامي يبذل قصارى جهده فقط لتوفير حياة رغيدة لأبنائه وهم نيام يضنون عليه برؤيتهم، يا

لهم من حمقى لو يقدرون هذه النعمة المدعوة الأب لأقاموا تحت قدمه معبدًا وتعبدوا في محرابه ما حيوا. فززت بسرعة متجهة لباب غرفتي:

- «سأذهب لأوقظهم لك لتراهم، هم أيضًا بالتأكيد يشتاقون لرؤيتك».

جذبني بيد حانية فأجلسني ثانية مقررًا الرحيل من غرفتي وهو يقول.

- «لا تلقي بالًا، هم سيأتون إليّ قريبًا. تصبحين على خير يا بنيتي، أتمنى لك يومًا هادئًا».

خاصمني النوم بعد خروجه، ظللت أتفكر في هذه الدنيا وأحكامها. فهي دومًا تعطي لمن لا يرغب وتأخذ ممن هو أكثر احتياجًا. لن يشعر بأهمية الأب ودفء حنانه إلا من هو مثلي المحروم منه والمواجه لكل صعاب الحياة بمفرده، لفقدانه هذه الدرع التي كانت تقيه من هجمات الزمن وسهامه.

أتى الصباح، سكت كلام عقلي المباح، صوت القانطين في القرية قد لاح، رائحة الطعام الذي يداعب الحواس قد فاح. نزلت لتناول الإفطار مع عائلة مجدي وفي نفسي حاجة قررت إخراجها بوجوههم كبركان ثائر على وشك الانفجار من فرط التفكير والتألم على حال والدهم. صريحة أنا دومًا كنت وما زلت، لا أقبل الخطأ ما حييت ولا أسكت عنه أبدًا. لكنني أثرت طريق النصح بالتي هي أحسن لألطف الأجواء مع عائلتي الجديدة.

- «هل تعلمون لقد حرمت من والدي في سن صغيرة جدًا، لم أعد أتذكر حنانه أو لحظاته معي، لم تطبع في ذاكرتي صورته لتغنيني عن البحث في كل شيخ كبير على وجه قد يماثل وجه والدي، كنت أسمع صديقي الوحيد يحكي لي عن قسوة والده معه فكنت أحسده على تلك القسوة لارتباطها بنعمة حرمت منها. ألستم معي في أن الوالد في حياة أبنائه كالنخيل يظلل عليهم ويحميهم من القيظ، يشبع بطونهم برطبه، ويتخذون من سعفه سقفًا ليأووا أسفله؟».

هز الجميع رؤوسهم دون أن يتفوهوا ببنت شفة. يعلو وجوههم تساؤل عن سبب هذا الحديث المفاجئ، وعن هذا الذي وراء لطفي الزائد معهم هذا اليوم. فأكملت لأشبع فضولهم.

- «لقد زارني والدكم بالأمس، أو بالأدق قبيل الفجر بقليل ليرحب بي في منزله المتواضع، ولكم كان حزينًا على بعدكم عنه رغم انعدام المسافات بينكم، مفطور قلبه على جحودكم. متمنيًا أن يذوب الثلج المغلف لأفدتكم فترق لحاله وكبر سنه وضعف جذعه ووهن عقله!».

ألقى مجدي ما كان قد اقتطعه من رغيف ممد أمامه في طبق بيضاوي الشكل، وهو يكز على أسنانه غيرة لا غضبًا:

- «كيف تفتحين باب غرفتك لغريب في منتصف الليل أو الفجر، أيًا كان الوقت كيف تدخلين رجلًا لغرفتك وأنت فتاة وحيدة. ما بالك كيف تفكرين!».

ضاق اتساع عيني استنكارًا، لهذا الهراء الذي أسمعه. كنت أتوقع أنه سيعتذر من حديث أمس لا أن يطعنني بذات السكين مرتين متتاليتين.

- «عن أي غريب تتحدث، وهل هذا هو كل ما أثار حفيظتك في حديثي فانتبهت له، وهل يعد والدك غريبًا؟ أي جحود يغلف روحك السوداء يا مجدي!».

قررت أن أتمالك نفسي. فأخذت نفسًا مطولًا على عدة شهقات، ثم أكملت بصوت خفيض لكنه مليء بالغيظ:

- «لقد استقبلته اعتقادًا مني أنه أنت في بادئ الأمر، ثم استقبلته بعد ذلك لأخفف عنه تلك الوحشة التي تغلف حياته بسبب انشغالكم الدائم عنه. استقبلته بغرفتي لأهون عليه حزنه بسبب عمله الذي بسببه يعود متأخرًا مما حرمه من جو عائلته الذي يريحه فقط ليضمن راحتكم، استقبلته وجلست معه لأن جميعكم كنت تغطون في سبات عميق، ما عدا أنور كان مستيقظًا لكنه كان ملهيًا فيما كان يفعله فلم يرد إزعاجه».

كان الجميع قد توقف عن الطعام بالفعل يشاهدون مناوشتي مع مجدي، الذي قرر أنور التدخل فيها ارتباكًا بسؤال قصير وحيد:

- «ما الذي تقصديه بما كنت أفعله؟».

أنا لا أصدقهم حقًا، هل هم صم لا يعقلون، أم على قلوبهم أقفال لا يتدبرون حديثي ويعقلونه. أم على أبصارهم غشاوة فلا يرون حال أبيهم التي آل إليها بسببهم؟

- «على كل إنكم ستذهبون لتجلسوا معه في القريب العاجل، هذا ما أخبرني به. لذا أعتقد أنه سيعقد لكم اجتماعًا ما أو ستذهبون معه بنزهة عائلية».

صوت تهشم زجاج جعل بصري يتجه ناحية الصوت، لأجد فريدة صاحبة الكوب المهشم بقسمات يتملكها الرعب تتبادل الصمت وذات التعبير مع إخوتها. إن أراد أحد أن يجسد الرعب لم يكن ليجسده بتلك التعابير المطبوعة على وجوههم. عيون غائرة هلعًا، اصفرار علا الجلد فجأة، غبرة أسقطت على الوجوه لتشحبها مرضًا، انحناءة في الظهر زادت أعمارهم عمرًا آخر. جُلت بينهم بنظراتي، التي ما إن التقت بوجه مجدي حتى رفع يده يشير لشيء خلفي معلق على الجدار. كان يشير إلى صورة معلقة بالجدار، تمعنت فيها لأجد أنها صورة والدهم.

- «إنها صورة لوالدك، قلت لك لقد قابلته بالأمس وأعلم شكله جيدًا».

انساب حديثة متهدجًا ليعبر عما يعتريه من رهبة:

- «انظري مجددًا، تفحصي الصورة جيدًا».

في تلك المرة رأيت تلك الشارة السوداء الموضوعة على أحد جانبي الصورة، هل هؤلاء القوم مختلون كيف يضعون تلك الشارة على صوة أبيهم وهو حي يرزق. لكن عندما نظرت لهم مجددًا أكمل مجدي حواره معي.

- «لقد توفي والدنا منذ أكثر من ثلاث سنوات، فكيف رأيتِه بالأمس؟».

أطلقت ضحكة قصيرة بلهاء لم أكملها بسبب تلك الغمامة السوداء التي اجتاحت عقلي قبل عيني فشلته تمامًا وسقطت مغشيًا عليّ

وسط مناداة مجدي باسمي محاولًا لحاق جسدي قبل ارتطامه بأرضية الصالة.

عند استفاقتي شعرت بألم في مؤخرة جمجمتي، يبدو أن مجدي لم يستطع الوصول لجسدي في الوقت المناسب. تحسست مكان الكدمة وتأوهت بصوت واهٍ قبل أن أفتح عيني. كانت عائلة مجدي تحيط بفراشي من الجهات الأربع وفي أيديهم نوع غريب من العلاج، لكن دون كوب ماء حتى. حاولت استجماع قوتي لأقرأ الاسم المتواجد على شريط الحبوب، لأجد أنه تيفرانيل الذي قد قرأت عنه مسبقًا بأنه على الرغم من أنه علاج رخيص الثمن للاكتئاب، إلا أن له آثارًا جانبية خطيرة يكمن أخطرها في توقف عضلة القلب نتيجة كثرة تناوله، لكن لمَ يحضرون لي علاجًا للاكتئاب؟

- «لمَ تحملون شرائط الحبوب تلك بأيديكم؟ لست مريضة لأتناولها».

تأملوا بعضهم بعضًا لبرهة. قبل أن يستفسر هيثم:

- «أيدينا فارغة تمامًا، عن أي دواء تتحدثين».

ما هي اللعبة النفسية التي يمارسونها، هل يخضعونني لتجربة ما؟ رمقته في تحدٍّ وهن:

- «بل هناك علاج بأيديكم، وبالأصح تيفرانيل. أليس هذا اسمه أم قرأته خطأ؟».

ما إن خرج اسم الدواء من فاهي، حتى انقض هيثم على مجدي كليث يريد الفتك بغريمه. وسط صراخ فريدة، ومحاولة أنور جذب

هيثم بعيدًا لكن هيهات، فهذا المتلعثم في قوله، الهادئ في خطواته، يتميز بغضب عارم يكسبه أضعاف قوته فيحيله من جدول ماء هادئ وديع لبحر لُجّيّ يغشاه موج من فوقه موج فيغرق السابح فيه في ظلماته.

- «أي لعبة يا مجدي، تمارسها مع تلك الفتاة؟ والله لأقتلك إن حاولت الاستخفاف بعقولنا».

جذب أنور كليهما بعد جهد مضنٍ وكثير من اللهاث، منبهًا إياهما بنظراته على تواجدي. تاركين خلفهم فريدة تراقب في صمت تلك الممددة في تراخٍ أمامها، التي فجرت الموقف كله بكلمة واحدة وهي أنا.

ظللت أكرر سؤالي عليها عن سبب ثورة هيثم على مجدي، لكنها آثرت الصمت واتخذته إجابة صاحبتها تأملات خيالية لكيفية الفتك بي بأبشع الطرق المتاحة ليدها وعقلها. ولم ينجدني منها سوى دلوف مجدي للغرفة بعد أن تناهى إلى مسامعي قوله: «إنه حقًّا لا يعلم ما الذي يحدث، وقاسمهما إنه من الصادقين». فكان دخوله بمثابة نجدة لي من أفكار فريدة لمئة وواحد طريقة للتخلص من بدني وعيشتي.

***

صوت صراخ أنثوي هستيري مكتوم يأتي من الغرفة المجاورة لغرفتي. صوت فريدة شق سكون الليل فأيقظ كل الحالمين فزعًا، مهرولين متخبطين في غفلتهم يعمهون. خُلع باب غرفتها بين أيدي إخوتها المندفعين للاطمئنان عليها، ليجدوها في حالة بكاء

هستيري اختلطت فيه دموعها مع عرقها الغزير المنهمر من جبهتها، مرتجفة الجسد مضطربة الحركة، ملقى حولها ملقى كثير من شرائط تيفرانيل، وحول فمها زرقة غريبة.

اقترب منها هيثم لكنها دفعته بعيدًا عنها، وكلما حاول إمساكها كانت تخمشه وتغرس أظافرها في جسده راكلة له بقدمها، ظلت على تلك الحالة إلى أن استطاع في النهاية السيطرة عليها واحتضنها بقوة ليسكن ما فيها من جزع.

- «اهدئي، أنا هيثم. لن يحدث لك شيء. كلنا بجوارك الآن».

ظل يكرر تلك الجملة كثيرًا على مسامع تلك المرتجفة بين أحضان أخيها، وكأن أشباح الدنيا كانت تطاردها. ظل يكررها إلى أن أمنت تمامًا تحت جناح أخيها. بعد فترة وجيزة بدأت في الحديث بصوت منهك كصوت ورقة مستنجدة وهي تقاوم مهب الريح.

- «لقد كنت نائمة، لكن شعرت بمن يكبل يدي بقوة ذراعه، اعتقدت في البداية أنني في حلم مزعج، لكنني تنبهت أنه حقيقة عندما حاول دس تلك الحبوب في فمي، قاومته ولضعف جسده الجاثم فوق صدري دفعته بعيدًا عني. وبصقت الحبوب في وجهه وشرعت في الصراخ، لكن عندما أضيئت الغرفة لم أجده فيها!».

ثم شرعت في الانتحاب مجددًا. كان الجميع يوازنون بين حديثها وبين الدلائل التي تؤيد وتقيض كلامها في آن واحد. أمسك أنور معصمها يتفحص الاحمرار المتواجد عليه يسألها وهو يعلم كذب سؤاله مسبقًا، لكنها كانت محاولة منه في منطقة الواقع اللامنطقي وغير المجاب عليه.

- «ربما كنتِ تحلمين بالفعل، وكل ما حدث مجرد كابوس لا أكثر».

ألقت الحبوب بوجهه كإجابة عن سؤاله بدليل دامغ باتّ بأن ما قصّته قد حدث بالفعل مهما كانت غرابته. همت بالرد على أخيها، لكنني لم أمهلها الوقت لهذا الرد. حيث ودون تفكر أو وعي مني، دون احتساب ما سيترتب على ما سأتفوه به تاليًا، وبغباء شديد منقطع النظير قلت لهم جميعًا بعيون محدقة في زاوية الغرفة.

- «جلال من فعل ذلك، وما زال واقفًا خلف مجدي فكيف لم تروه؟!».

قفز مجدي من مكانه ينظر إليّ كنظر المغشي عليه من الموت يحاول أن يستشف من تقاسيم وجهي هل أمزح أم أنني من الصادقين، فأكملت وما زالت عيني تتطلع في نقطة تتمركز خلف كتفه اليسرى.

- «نعم، ها هو ما زال واقفًا تعلو وجهه ابتسامة شامتة، ويحمل بيده العديد من شرائط الدواء».

حمل أنور أخته التي كانت ما زالت لم تقو على الحركة، وفرّا هاربين من الغرفة ولحقهما هيثم ومجدي بعد أن أمسكني من كتفي لأستفيق من حالة الجمود التي انتابتني. وسط عجيج مرتبك يصدر من الجميع. سمعت صوت مجدي يجلجل بالطرقة المحيطة بالغرف من الخارج.

- «لقد، لقد رأيت جلال. فور خروجي من الغرفة وعندما ذهبت خلفه لم أجد شيئًا كأنه سراب أم أنه كان حقًّا سرابًا».

تمت إضاءة مصابيح المنزل أجمع فأحالته الأضواء لشمس ساطعة وسط ظلام الليل الدامس. جلسنا متجاورين على أريكة الصالة وكراسيها نستمد الأمان من تواجدنا معًا، لعل جلال يظهر مرة ثانية فيكونون له كالمرصاد يؤازرون بعضهم بعضًا. لكن هل حقًا يستطيعون فعل أي شيء مع شخص مات ودفن! إنه حقًا مثلما قال مجدي سراب يجذبك أملًا في الارتواء لتموت في النهاية عطشًا.

كان الجميع محدقين بي بشك في جو يسوده التوتر والصمت القاتل. ولا أعلم السبب فهل أنا من فعل ذلك بفريدة؟ بل أنا أكثر من تضرر فيهم منذ مجيئي لتلك القرية.

- «هل تعلمين أنك قدم شؤم، فمنذ حضورك للبلدة حضرت تلك الأحداث الغريبة. يا ليت مجدي تركك بمنزلك، ويا ليته لم يقابلك من الأساس!».

كنت على وشك الرد على فريدة سليطة اللسان، إلا أن مجدي جذبني من يدي ليخرجني خارج المنزل، فجوّه الخانق لم يكن ليتحمل مشاحنات أكثر مما رأيناه اليوم. ظل يجرني خلفه بمشيته السريعة إلى أن وصلنا إلى شاطئ أحد القنوات المائية المتواجدة بالقرية. جلست أسفل شجرة كانت تقف بشموخ صامت تسمع وتراقب كل ما يحدث بالقرية. شرد بصري في مدى صفاء صفحة المياة التي أمامي والسمك الملون الذي يسبح فيها لهوًا. كنت أرى أحداث هذا اليوم والأيام السابقة له تنعكس على الماء، أحاول ربطها معًا لعلي أصل لبقعة ضوء ترشدني على الإجابة.

اختفى مجدي من أمامي لبعض الوقت ثم عاد ماذًا يده أمامي

حاملة كوبًا من الشاي فأخذته منه. جلس صاحبها في صمت بجواري، فاسحًا المجال لعقلي ليهدأ من التساؤلات التي تدور فيه. فعلى الرغم من حقارة حديث فريدة إلا أن جزءًا صحيحًا فيه، لكن في المقابل كل الأحداث الغريبة كانت بعد موت جلال وليس بعد حضوري للقرية. حاولت كثيرًا ربط الأحداث ببعضها إلا أنه في كل مرة تنفلت الخيوط من يدي وأرجع ثانية لنقطة البدء أجمعها معًا لكن لا جدوى. أنا لا أملك أي معلومات عن جلال هذا أو عائلة مجدي، ليدفعه للانتقام منهم. كذلك لا أملك أي معلومات عن والد مجدي، وتلك هي زيارتي الأولى للقرية، فكيف أطلب من عقلي تحليل المجهول ووضع سبب منطقي له.

- «هل لك أن تخبريني عما خط بالكتاب الذي كان معك؟».

سألته دون أن أجاوبه. دون الالتفات له. فعلى الرغم من سماع حديثه لكن شرود عقلي حال دون التفاعل معه بإجابتي.

- «كيف مات والدك، هل لك أن تخبرني؟».

- «لقد كنت ذاهبًا لحضور ندوة للشيخ حسن ووجدت أبي ملقى على الطريق يبدو أن سكرات الموت أتته وهو ذاهب للجامع لسماع نفس الندوة. التقرير الطبي جاء أن الوفاة كانت بسبب أزمة قلبية ولا شبهة جنائية».

وضعت كوب الشاي من يدي، كان يتحدث بلا ذرة حزن أو ألم، بلا لحظات صامتة لترتيب أفكاره، كأن الإجابة قد جهزت من زمن على سؤال علم مسبقًا بأنه سيتم طرحه.

- «لم تجيبي عن سؤالي».

- «لأنه لم يتسنّ لي قراءته حتى الآن، فمنذ مقابلة جلال في منزله، وإعطائي الكتاب، عج يومي بالأحداث الغريبة والتي لا أجد لها تفسيرًا. هل لك أن تخبرني كيف في ظل هذه الأحداث أستطيع التفكر بأي شيء آخر؟ اللعنة يبدو أن تلف منزل جلال تسلل إلى روتين حياتي فأتلفها هي الأخرى».

- «أي تلف كان بمنزل الشيخ حسن؟».

ضحكت ضحكًا هستيريًا يعبر عن حجم التوتر بداخلي. كان مجدي يضع يده على فمي محاولًا كتم جلجلة صوتي حتى لا يوقظ الراقدين في البيوت المحيطة بجلستنا. في النهاية سكنت وزفرت زفرة حارة وأنا أستند بمقدمة رأسي إلى كفه الممتدة في الفراغ لأستمد منه الاتزان.

- «بل تقصد ما السليم في هذا المنزل؟ منزل على أطراف القرية تحيط به مياه مستنقع عطنة، تتخلل جدرانه خيوط بيت العنكبوت، وأثاثه مهترئ ملقى حزين من إهمال البشر له منذ عقود».

- «أطراف القرية؟ فلتأتي معي لتريني هذا المنزل. هيا بنا».

ذهبنا معًا، يحاوطنا جيش جرار من الكلاب الضالة التي بدأت في الانسحاب تدريجيًا كلما اقتربنا من منزل الشيخ حسن. كان نعيق البوم يبدو كلحن حزين لكائن لا يجد من يشاطره وحدته. توقف مجدي فجأة ما إن وصلنا لبوابة المنزل. وتيبس جسده كمن تحول إلى صخرة منحوتة على هيئة بشري ترفض التحرك بتاتًا. نظرت له

مستفهمة.

- «ما الذي أصابك. هذا ندخل للمنزل، لأريك الحجرة التي دلف إليها جلال وبصحبته الكتاب».

كانت قبضته تحاوط معصمي فتؤلمه دون وعي منه أو إدراك. يهز رأسه نفيًا وهو يقول بصوت هامس بالكاد سمعته رغم هدوء المكان الخالي من كل أنواع الحياة.

- «ليس منزل الشيخ حسن، ليس منزل أحد من الأساس. لا يُعلم من صاحبه منذ سنوات طويلة. ويحرم علينا دخوله فهو منزل مسكون وتصدر منه أصوات مرعبة كل ليلة. لذلك هجر الناس المكان المحاوط به، هذا ما أخبرنا به الشيخ حسن عندما سأله أهل القرية عن هذا المنزل. فلنذهب من هنا».

حاولت تلطيف الأجواء والتهدئة من روعه: «هناك مثل مصري يقول ما عفريت إلا بني آدم!».

- «سالمين! لنذهب من هنا الآن، ثم نكمل حديثنا».

يقال إن المحرك الرئيس للحياة هو الخوف، فالخوف هو مفجر طاقتنا الداخلية، محفز غرائزنا المطموسة بفعل التحضر والراحة، تلك التي زرعت في حمضنا النووي وورثناها من أجدادنا منذ آلاف السنين. خوف مجدي من هذا المكان جعل صوته يصدر بلهجة آمرة لا تقبل الجدال أو النقاش، هذا الخوف جعلنا نقطع المسافة التي استغرقناها في ساعة كاملة من الزمن ذهابًا، في أقل من خمسة عشر دقيقة إيابًا. لنصل لمنزله ونصعد غرفتي دون مبالاة بهؤلاء

الجالسين ويكاد يقضي عليهم فضولهم لمعرفة ما حدث لمجدي ليبدو في تلك الحالة. هذا الخوف الذي جعل إخوته وبنظرة واحدة منه لا يتحركون من أماكنهم، يتخذون الانتظار خليلًا لهم إلى أن يمنّ مجدي عليهم بالشرح والتوضيح.

أغلق الباب خلفه محتضنني بشدة لا أعلم سبب فعلته تلك في بادئ الأمر لكن ارتجافة جسده جعلتني أدرك أنه أراد أن يستشعر الأمان في ذلك الفراغ الضيق بين ذراعيّ الذي يشتمل العالم أجمع من وجهة نظره، أبعدني في هدوء مطلقًا زفرة حارة ووقف في مواجهتي مطالبني بأن أخرج الكتاب وأقرأ له بعضًا من نصوصه. مددت يدي في حقيبتي مخرجة الكتاب منها.

- «أنا أزدري أن يكون لي أبوان. فأنا أشبّه ببرغوث أوفيد. ويمكنني أن أزحف داخل أي ناحية من جسم الفتاة. أحيانًا بصورة شعر مستعار أتربع فوق جبينها، ثم بشكل قلادة أتدلى حول عنقها، وبعدها كالمروحة من الريش، ألثم شفتيها. وأخيرًا أتحول إلى دخان مشكل فأفعل ما أشاء. ولكن أف ما هذه الرائحة هنا؟ لن أضيف كلمة أخرى ما لم تعطر الأرض وتكسَ بأقمشة مزركشة».

أخذ الكتاب من يدي، تحسس ملمسه وأحاط الجواهر بأصابعه قربه من أنفه ليشتم رائحته، ثم فتحه بهدوء مطلعًا على ما بداخله من خطوط محفورة لا مكتوبة.

- «هل حقًا ما ترينه هو العربية، أم أنك تمارسين لعبة ما وتهزئين بي كالمعتاد، لكن لمَ لا يرى تلك اللغة والحروف إلاك؟ وما المقصود من هذا الكلام؟».

ما حماه من قتلي له نتاجًا لغبائه المطلق أنه يمثل تميمة حمايتي في هذه القرية كما أنه جزء من مستقبلي المرهون به فرحة حياتي. لا يؤلمني كلامه فهو ناتج عن عدم فهم لكن ما يمزعني حقًا هو شكه الدائم في تصرفاتي وحديثي. أمسكت وجهه بين كفي ليعلم مدى صدقي ناظرة له في حدقتي عينيه مجيبة إياه بصوت خفيض.

- «ما أراه أمامي لغة عربية صحيحة. لا أعلم سبب عدم رؤيتك لها، لا أعلم ما فحوى ما ذكر فيها. بل هي طلاسم مفهومة لأشياء غير مفهومة، كقطع فسيفساء في انتظار من يجمعها ليكون بها لوحة بديعة، لكن ما استرعى انتباهي هو أن تلك السطور مكتوبة بلون بنفسجي، على عكس بقية السطور الأخرى التي كتب كل مجموعة منها بلون مغاير عن الآخر. هل فهمت حديثي لأنني لن أكرره ثانية».

أجلسني بهدوء على الأريكة وهو يبتسم ابتسامة صافية أدخلت الربكة في قلبي وتوجست خيفة من تصرفه هذا.

- «لقد علمت ما الذي أصابك، فأنت بك مس من الجن منذ رؤيتك لعفريت جلال. سنذهب لمراد مع هذا الكتاب، فهو على علم بأمور الماورائيات».

- «بل أنت من بك مس من الجنون، لن أذهب لأحد يا مجدي، ويكفي ما حدث إلى الآن، لقد مللت من إهاناتك المستمرة منذ حضوري. غدًا سأذهب من هذه القرية ولن تراني مجددًا أعدك. ولتذهب أحلامي الوردية إلى مقبرتها الدائمة».

كنت أحدثه وأنا أحاول الوقوف للتجهز للرحيل، لكنه استمر بالابتسام بالطريقة ذاتها وهو ما زال ممسكًا بكتفي وازداد ضغطه

عليها إلى أن جلست مكاني مرة أخرى. قائلًا بصوت هادئ رصين لا يناسب جو الحوار بيننا:

- «لن تذهبي إلى أي مكان قبل معرفة سبب كل شيء. سنذهب الآن لمراد ليراك أنت والكتاب ليخبرنا ما الذي يجب علينا فعله. اتفقنا؟».

دمعة ساخنة انتهكت نعومة خدي وأنا أجيبه: «اخرج من غرفتي، لكم ندمت على حضوري معك».

- «سأخرج عندما نذهب لمراد. هيا بنا».

حاول جذب يدي لنذهب بالإكراه لكنني تملصت منه. لا أعلم ما الذي دهاني، أي ضعف اعترى صلادتي فجعلها خائرة لا تقوى على المقاومة، لم أعد تلك الشرسة التي لم يستطع أحد ترويضها. هل بسبب علاقة الصداقة التي بيننا، أم بسبب أنني حقًا لا أعلم ما الخطوة الواجب اتخاذها، أم لأنني مثله أحاول البحث عن حل لما أمر به أنا والجميع، لكن ما أعلمه أنني جلست وقد ازداد تدفق الدموع من عيني.

- «سنذهب غدًا، ليس اليوم من فضلك. أعدك أن غدًا سأنفذ كل ما تطلبه، لكن الآن ارحل أريد أن أستريح قليلًا».

أفلت يدي وولى من أمامي من دون كلمة واحدة مغلقًا الباب خلفه ليتركني مع ذاتي أتهاوش معها وأناقشها في ليلة كلحاء بلا نوم ولا قمر. أخرس كلانا صوت طرقات على باب غرفتي علمت صاحبها قبل أن أفتح له. رعدة خفيفة سرت في أوصالي خوفًا ترددت لعدة

دقائق من الإجابة عن الطارق، لكنني قررت أن أتصنع الصلادة لأعلم الحقيقة. فإن كان هذا الكائن لا يعلمها فمن ذا الذي يعلم.

فتحت الباب لكن ليس على مصراعيه وأنا أنظر له بهدوء زائف. كان يحمل مظروفًا أصفر بيده كان بنفس هيئته السابقة دونما أي تبديل.

- «من وقفتك أستشعر أنك قد علمتِ بموتي، أليس كذلك؟».

- «بلى. علمت».

- «هل أنت خائفة مني. لو رغبت برحيلي سأرحل».

هززت رأسي نفيًا، وأفسحت له المجال ليدخل للغرفة. لا أعلم سبب ذلك فهو لو أراد لدلف من دون أن أفتح باب الغرفة حتى، لكن يبدو أن العادة تطغى حتى مع الأشباح والعفاريت.

- «لمَ أنا؟ لمَ اخترتني دون أبنائك لأراك وأتحدث معك؟».

أجابني وهو يجلس: «لم أخترك يا بنيتي. أطرق كل الأبواب يوميًا منذ مماتي، لكن لا مجيب. أنت من اخترت سماعي وفتح الباب لي. صدمت عندما تحدثت معي. علمت أن الأوان قد آن. فرحت حقًا بأن هناك من سيسمعني أخيرًا. لست أنا من اختارك، بل القدر!».

شعرت بوحدته، بألمه رغم أنه لا مشاعر له، أم له مشاعر لكن لا ندركها، لكن كيف له أحاسيس دون وجود مصدرها ومقرها وهو القلب. اللعنة على عقلي الذي يشرد دومًا في تفاصيل كل شيء. عدت لأرض الواقع ثانية لأجده ينظر لي في حب أبوي غريب. تمنيت أن يظل معي رغم أنه عفريت! مد يده إليّ بهذا المظروف الأصفر الذي

كان يحمله:

- «أعطي هذا لابني الأكبر. فضلًا».

ابتعدت عنه. فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. يبدو أن عطايا الموتى لعنة وليست نعمة وهدية!

- «لمَ يعطيني كل الموتى أشياء؟ أعتذر لن أقبل تلك المهمة. يكفيني هذا البلاء القابع في حقيبتي. سبب كل المصائب التي أدور في فلكها مؤخرًا».

- «يا بنيتي لا تقلقي. هذه أوراق المنزل وكل أملاكي. أعطيها لأنور غدًا أمام الجميع فهم يبحثون عنها منذ موتي ولم يجدوها. لم يستفيدوا من موتي لمدة ثلاث سنوات وحان وقت عِلم واحد منهم حجم ثروتي ونصيب كل واحد في ميراثي».

لأنني لست مؤمنة، بل لست مسلمة من الأساس رغم حفظي للقرآن بأكمله، ولأكون أكثر دقة لا أومن بوجود إله يحكم هذا الهزل المدعو الكون، أخذت منه الملف وقبلت بتلك المهمة. فقط لأزيح عن صدره هذا الهم إن كان له صدر. تركني ورحل دون أن ينتظر مني أي رد أو حديث كأنه كان يعلم مسبقًا أني سألبي مطلبه، وكان هذا اللقاء هو خاتمة يومي الرابع.

***

الانبلاجة الخامسة للشمس، من أنا ومن أين أتيت وإلى أي أرض استقر مقامي. دقائق لأستوعب غفياني على الأريكة لإرهاقي من كثرة التفكير. سقط المغلف الأصفر من يدي تحت قدمي. لأعلم أن

كل ما حدث لم يكن مجرد حلم ينسى بالاستيقاظ.

نزلت للحديقة التي تحيط بمنزل عائلة مجدي منادية الجميع ليلحقوا بي لإخبارهم بأمر مهم، تجمع الكل حولي بعيون محملقة في هذا الذي أحمله، خوفًا من أن تكون مصيبة جديدة جلبتها لهم.

- «أبوكم يقرئكم السلام، مرسلًا لكم هذه الأوراق».

سلمتها لأنور، فض المظروف بسرعة بيد مرتجفة وكل الأعناق مشرئبة لتعرف عطية أبيهم. نظر أنور للأوراق مذهولًا وهم لقول شيء ما لولا أن دلفت السيدة سنية تهرول خلفها فتاة في الثانية عشرة من عمرها، كالقمر وجهها وضاء، يغلفه ظلام حالك ممتد في سلاسل منسابة على ظهرها، لكنها كانت ترتجف بللًا من رأسها إلى أخمص قدمها.

- «أهلًا بك عمتي، لعل الخير خلف حضورك».

رغم أن حديث فريدة كان بابتسامة عريضة تملأ وجهها، تلاه أحضان وقبلات متعددة بين السيدتين، إلا أن كلامها كان يقطر غلًا وكرهًا دفينًا، لا تستشعره من الأنثى إلا أنثى مثلها، فقابلت سنية هذا الترحاب المزيف بكلمة كانت تعلم أنها ستكيد غريمتها وتجرحها.

- «كل الخير يا ابنة الغالي. لقد أتيت لأستقبل ضيفتكم في داري يومًا. أصول الواجب والترحاب بالغرباء».

كانت الاثنتان تنتظران إيجابي أو قبولي، لكنني كنت في عالم آخر مع تلك الطفلة ووداعتها. توجهت نحوها لأداعبها. تخطيت سنية وجثوت على ركبتي لأكون بمستوى طول الطفلة.

- «هل كنت تلعبين بالماء يا صغيرة، ستصيبك الحمى إن لم تغيري ملابسك».

اقتربت الفتاة مني ووضعت يدها تداري فمها الذي اقترب من أذني وهي تقول:

- «لم أكن ألعب بالماء، بل كنت ألعب مع والدتي تجري خلفي وتمازحني وتدفعني أمامها. لكنها دفعتني بقوة فسقطت الماء، ثم أتيت معها هنا».

- «ما اسمك يا جميلة، ومن والدتك».

- «أنا ليل، ووالدتي أمي سنية الواقفة بجوارك».

تعجبت كثيرًا. هل امرأة في عمرها ما زالت قادرة على الإنجاب؟ ألم يخبرني مجدي أن زوجها توفي منذ زمن؟ أم أن الطفلة قد تبنتها هذه السيدة ولم تخبرها خوفًا على مشاعرها؟ نفضت كل الأسئلة من رأسي وأنا أملس على شعرها.

- «حسنًا، فلتذهبي لمنزلك لتغيري ملابسك حتى لا تمرضي، وعودي إلى هنا لنلعب سويًا. اتفقنا؟».

يبدو أنها لا تطيق صبرًا للعب سويًا لذا ذهبت خلف أحد الأعمدة المتواجدة في الصالة والمسنود عليها زير ماء، ذهبت خلفها لكنني لم أجدها. لم يتبق منها سوى فستانها يقطر الماء منه. تلفت يمنة ويسرة لأعلم أي اتجاه قد سلكت لكن لا دليل بتاتًا على وجودها من الأساس. حاولت الذهاب خلفها باتجاه باب المنزل لكن تعثرت قدمي وسقطت محتضنة الزير فلم يتحمل وزني وتهشم ناثرًا ماءه على

ملابسي ومغرقًا السجاجيد المنبسطة على الأرض.

أسرع مجدي ليأخذ بيدي ليوقفني من سقطتي، لكن ما إن استقمت تراجع للخلف وانضم لكتيبة الغرباء الواقفين عاقدين أيديهم على صدورهم. كان مستوى بصرهم منخفضًا مركزًا على ملابس بلون أحمر مطرزة بخيوط حريرية سوداء، ما إن رأتها سنية حتى كانت كالسهم المنطلق باتجاهي وجذبتها من بين يدي.

- «من أين حصلت على هذا الفستان؟».

ما بال هذه المرأة المجنونة، ألم ترَ طفلتها وهي ترتديه!

- «ليل تركته هنا، كيف تمزحين معها بدفشها بالماء، وترك ملابسها مبتلة بتلك الطريقة، ما زالت صغيرة على تحمل البلل وتبعاته!».

أبرقت عيناها وأرعدت وهي تتطلع لخلقتي بحدقتين زاد احمرار بياضهما كأنما اصطبغتا بلون كالدماء، بل كانت حقًا دماء. لكزتني في كتفي بيدها القابضة على فستان ابنتها راحلة وهي تقول:

- «ادعي الله ألا أقابلك في طريقي مرة أخرى ولو صدفة، فلا أريد رؤية وجهك الشيطاني أبدًا».

هذه المرأة حقًا مجنونة. ما الذي فعلته لأنال من سفاهتها من نلته؟ ألم تأتِ في الأساس لتنال شرف ضيافتي أمام أهل القرية، أم أن الضيافة لها فعل مختلف هنا. عدت بجذعي معتدلة متجهة به حيث يقف مجدي وإخوته، لكن وجدت هيثم أمامي. يتحدث بلسان صحيح لا تشوبه شائبة.

- «ليل ابنة سنية ماتت في سن صغيرة ومنذ سنوات كثيرة

مضت. كيف علمتِ اسمها وكيف أحضرت فستانها؟ رغم أنه لم يعثر على جثتها أبدًا».

اتجه ناحية إخوته، لكنه عاد مجددًا كمن تذكر شيئًا أراد إضافته.

- «وما أحتاج لتفسيره أيضًا. من أين حصلتِ على أوراق والدي التي نبحث عنها لأكثر من ثلاث سنوات. من أنت بحق الله؟».

زلزلني ما أخرجه من جعبته، شعرت بأن الأرض تميد بي. ما علاقتي بأموات هذه القرية؟ كلما رأيت أحدًا يكون ميتًا. هل مجدي أيضًا ميت هو وإخوته، أم أن كل من بالقرية أموات أم ماذا؟ لكن كيف سأتأكد من أن مجدي حي يرزق؟ هل هو مجرد روح غاضبة قررت أن تطوف في الأكوان الفسيحة لتلعب بالبشر أمثالي كدمى تحركها كيف تشاء؟ كنت أهوي في ظلام الخوف كمن سقط من شرفة شقته من الطابق الألف لا يجد ما يتشبث به ليحمي جسده من التفتت. كانت يدي ترتعش وتحركت قدمي تلقائيًا كأن بها جانًا يحركني كيفما يشاء وأنا أهذي بجملة واحدة.

«هناك طريقة واحدة للتأكد من نظريتي». كنت أحاور نفسي وأجيبها «لكن تلك الطريقة قد تودي بحياة مجدي إن لم يكن ميتًا بالفعل». «لا أريد موته، لكن بضع قطرات من الدماء تكفي». الحيرة هي آفة الخيارات المتعددة قد نظل فيها دون الرسو على قرار واحد فتضيع حياتنا في كلمة أيهما. ما بين خروجي من الوهم وبين قتل مجدي أو بالأصح رؤية دماء نافرة كدليل دامغ على آدميته قررت التضحية بمجدي لأصل للحقيقة!

كانت تقبع مزهرية من الكريستال فوق منضدة مجاورة ليدي،

أمسكتها على حين غفلة منهم وألقيتها بكل ما أوتيت من قوة في وجه مجدي، ولكم كان تصويبي ممتازًا، لو كنت في مسابقة للتصويب على الأشياء لأخذت الذهبية بلا منافس. سقط مجدي مضرجًا في دمه وانكفأ عليه أنور وفريدة، بينما هيثم هجم عليّ وكبّلني بكل قوته ورفض تحريري إلى أن يعلم ما هو مصير مجدي وما قراره. نعم لقد تيقنت، أن مجدي بشري وليس عفريتًا أو شبحًا ما. يا لراحتي! رغم تأزم الموقف في هذا المنزل اللعين.

استفاق مجدي بعد محاولات مضنية لأنور لعلاجه قبل إحضار الطبيب، وسط نحيب الثانية. صمت الثالث، لامبالاة للرابعة التي هي أنا. أحضرت فريدة بُنًّا وقامت بسكبه على رأس مجدي لتوقف نزيف الدماء. أحضرت شاشًا وقطنًا ليضمد أنور الجرح لأخيه. وسط ذهول مجدي مما فعلت.

- «تحاولين قتلي».

صوته الخائر داعب وجداني قليلًا فأشفقت عليه، لكن لم يكن هناك طريق آخر قد أسلكه لأصل لنهاية الاستفهامات التي تطوف في تلافيف عقلي لتفتك به. قررت أن أوضح له ما حدث حتى لا يسيء بي الظن، فلا أحد سيفهمني سوى مجدي.

- «حاشاني أن أقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق! ما فعلته كان نتاج خاطر جال بفكري، ماذا لو كنت أنت أيضًا ميتًا، لو كنتم جميعًا أشباحًا. الأوراق التي بحوذة هيثم أعطاها لي والدك بالأمس وهو ميت، جلال منحني الكتاب وهو أيضًا ميت، ليل أهدتني فستانها وقد أسلمت روحها لبارئها. فكيف يعقل أن تكونوا أحياء؟ أردت فقط

التأكد لا أكثر. هذا ما حدث».

- «أردتِ التأكد من عدم موتي بإماتتي! ما الذي دهاك؟».

كان حديثه يبدو منطقيًا، فعضضت على شفتي السفلى. لن أنكر أن افتراض موته كان بحسباني لكنني آثرت الصمت في تلك اللحظة لعلمي أن تفوهي بأي حرف آخر لن تحمد عقباه.

- «أنور من فضلك فك وثاقها. أعلم مدى طيشها لكن لا خوف منها».

ذهل أنور من مجدي ومما سمعه.

- «كادت أن تضعك تحت الثرى، وتخبرني أن لا خوف منها. سأفك وثاقها بشرط أن تذهب لصديقك مراد لمعرفة ما بالها. هذه اللعينة بها مس شيطاني منذ أن رأت جلال في بادئ الأمر، ولن أهدأ إلى أن أخرجه منها».

- «حسنًا، فك وثاقها لنذهب لمراد. فهو بانتظارنا».

رضخ أنور لمجدي وفك أَرَبي، اتكأ مجدي على عضد أخيه حتى يتمالك توازنه أولًا، ثم أمسك معصمي بقوة مقررًا أن وقت المعرفة قد آن. وتوجه ثلاثتنا إلى مراد، أنا ومجدي والكتاب.

لم يكن يدر بخلد مجدي انتوائي السخرية منه ومن مراد. في طريقنا وجدت مجدي يحاول المرور من طريق آخر فجأة لكن هناك من ناداه فعدل عن قراره وتوجه لرجل في الستين من عمره، يبدو عليه الثراء من ملابسه رغم بساطتها. كان يغلب الحمار على فَوْدَيْه، الزرقة في عينيه، والبياض في شعره.

- «ما الذي حدث يا ولدي، سلمك الله».

نظرة جانبية من عين مجدي قبل أن يجيب على هذا الرجل، فقط ليلومني أو ليعرف الرجل من دون إخباره عمن خلف ما أصابه.

- «لا تقلق يا عمي، مجرد حادث بسيط. تعثرت فسقط على وجهي».

أكمل حديثه مع مجدي لكن مع وجه مستدير بأكمله في مواجهتي.

- «يبدو أن هذه ضيفتك التي سمعت كل القرية عنها، لا بد أن تحصل على واجب ضيافتها بدواري يا ولدي».

توترت عضلات مجدي لبرهة، وأطبق على كفي بقوة، ليخبرني بأنه قد حان وقت الرحيل.

- «بإذن الله يا عمي، لكن اعذرني الآن فأمامنا موعد مع مراد لا أريد أن أتأخر عليه».

تحركنا من أمام هذا العجوز، لكن عيونه لم تتحرك عنا. علم مجدي مسبقًا أن فضولي سيطغى على توتري مما نحن مقبلون عليه، فأراد أن ينهي الحوار قبل أن أبدأه.

- «هذا الحاج سالم، صاحب الدوار الذي رأيتِه مسبقًا. يريد أن يرحب بك بمنزله، لكن لا وقت لنا لأصول الضيافة في هذا الوقت، لننهِ ما نحن ذاهبون إليه أولًا».

وصلنا بالفعل إلى وجهتنا إلى ملحق الجامع الذي يستخدمه الشيخ مراد لعلاج أهل القرية والوافدين له من الأمراض الروحانية والمس

الشيطاني بالقرآن، كذلك لإعطاء بعض الدروس الدينية. استقبلنا مراد محتضنًا مجدي وأجلسنا على وسادتين، بينما هو جلس على كرسي مرتفع أعتقد أنه بسبب وزنه الذي قد يطبق على نفسه فيزهق روحه يومًا ما. تحدث مجدي أولًا حتى لا يترك مجالًا للصمت في جلستنا تلك.

- «مراد يا سالمين صديقي منذ الطفولة. حاصل على درجة الدكتوراة في الصيدلة الدوائية، كما أنه حاصل على إجازة دراسات إسلامية رغم صغر سنة. صاحب أكبر مكتبة قد تصادفينها يومًا، وأكبر معدة أيضًا. لا أعلم حقًا كيف جمع بين الاثنين، العقل والشهية المفتوحة دومًا فكلاهما لا يجتمعان أبدًا!».

ليس هناك أي تعبير على وجه مراد. كمن اعتاد على سماع هذا الهراء مرارًا، لكنه أجاب بكل هدوء.

- «وهبنا الله العقل ليكون لا حدود لنا يا فتى، لكن نحن من نحد حدودنا ونقص أجنحتنا رويدًا رويدًا، ونمحي عقولنا فنكون أقل مرتبة من القردة. هل فهمت؟ أمثالي يستطيعون فعل كل شيء، وجمع كل شيء في جعبتهم بلا تناقض أو طغيان أحدهما على الآخر، لكن الجهال من العوام هم من يرون صعوبة الأمر واستحالته».

لقد علمت الآن سبب جلوسه على الكرسي المرتفع عن الأرض ليس بسبب ضيق نفسه، بل لملء قلبه بغرور يغمي عينه ويسحبه كالحمار خلفه، يحمل أسفار العلم لكن لا يفقه مغزاها. امتقع وجه مجدي من إهانة مراد له، لكنه كان يعلم أنه بحاجته، لذلك آثر الضحك على

اتخاذ موقف مضاد، لكنني لم أخلق لأسكت على كيس الحقارة الجالس أمامي. كنت أداعب أسناني الأمامية بطرف لساني، بلعت ريقي واعتدلت مقررة التدخل في الحوار.

- «مراد، هل تعرف موسى بن عمران؟».

أجاب بسخرية: «ومن لم يعرفه، نبي الله ورسوله وهادي بني إسرائيل».

- «مؤكد أنك تعلم رحلته مع هذا المدعو الخضر، هل لك أن تخبرني ما الهدف من هذه القصة».

- «للقصة ثلاثة أهداف ودروس، مهمة للحياة وللرضاء بقضاء الله وقدره. أنهم....».

قاطعت حديثه وأنا أهز رأسي نفيًا وامتعاضًا من إجابته البلهاء مثله، متحدية إياه بابتسامتي الساخرة منه.

- «بل أربعة دروس مهمة. ولم تكن لتحدث تلك الرحلة لولا الدرس الأول الذي أغفلته أنت. هو ألا تغتر بما أعطاه الله لك من علم ومكانة لأنه دومًا هناك من هو أفضل منك. هذا ما أراد الله تلقينه لموسى بن عمران».

أعلم أن رسالتي قد وصلت له، لتغير لونه وجلسته، فقرر الخوض في سبب تواجدنا معه في الغرفة ذاتها كوسيلة دفاع أخيرة لحفظ كرامته.

- «هل لك أن تريني الكتاب؟ لقد شرح لي مجدي كل شيء بالأمس، وأردت أن أطلع على تلك اللغة، لعلمي بكثير من اللغات

الأجنبية».

أخرجت الكتاب من حقيبتي وناولته إياه ومنحته فرصة للتمعن جيدًا في الكتاب، وإعطاؤه فرصة لتجربة حظه معه ومع فك شفراته. ظل يتطلع على غلافه البراق بألوان سبعة تبهر العين وتخطف الأبصار. فتح الكتاب ليدقق ما بداخله لكن أغلقه سريعًا مع تغير ملامحه كمن واجه عقبة حياته وكارثتها الكبيرة. وضع الكتاب بجواره وأسند يده إليه وهو يداعب ذات اللون البنفسجي ببنصره.

- «هي حقًا مجرد خطوط لا معنى لها أبدًا».

- «بل إنها العربية الصحيحة، أعطني أي صفحة أقرأها لك يا مراد».

كان يبدو ضيقه من مناداتي لاسمه دون أي ألقاب تمامًا، لكنني قررت تجاهله هو ورغباته لتعمده المستمر من إهانة مجدي. ناولني الكتاب دون أن يفلته من يده بعدما فتح إحدى صفحاته كتحدٍّ لي.

- «لقد ولدت على ضفة مشمسة، حيث أستلقي منذ ذلك الوقت. وأنت سببت لي أذى كبيرًا بإحضاري من هناك، دعني أحمل إلى هناك ثانية بواسطة الشره والشهوة. أنت، لن أتفوه بكلمة أخرى ولو مقابل فدية منك».

- «هذا نص من الكوميديا الإلهية لدانتي. لمَ هو مكتوب في هذا الكتاب وبتلك الطريقة؟».

مراد محق فعلًا، لذلك كان هناك دومًا شعور داخلي بمعرفتي السابقة لتلك الكلمات، إنه حقًا ذو ذاكره فولاذية.

- «صدقت فعلًا يا مراد. لقد تذكرت الآن أين قرأت تلك الكلمات مسبقًا، لكن تلك الكلمات كتبت بلون سماوي. على عكس النص السابق الذي كتب باللون البنفسجي».

- «لكن ما مقصده بهذه السطور؟ لمَ يذكر نص أدبي بتلك الطريقة ما الهدف؟».

هل هذا حقًا من حضرت ليساعدنا؟ لكن قررت الإكمال في تلك اللعبة المسلية، فمنذ زمن لم أستمتع من التلاعب بشخص مثل الآن.

- «هو لم يذكر إلا الفقرات التي تشير إلى الخطايا الكارديناليةالتي صاغها الراهب إيفاجريوس بونتيكوس في القرن الرابع الميلادي».

- «بالفعل بالفعل، هل هناك نصوص أخرى غير الخطايا، أم هو مقتصر فقط على كلمات دانتي».

- «بل هناك نصوص أخرى غير مفهومة. تتحدث عن ألغاز لا أفهمها».

- «فلتقرئي لي بعضًا منها. حسنًا».

كنت أتطلع خلفه كلما سنحت لي الفرصة. هناك ما يثير فضولي تجاه هذا الشاب، لكنني قررت التركيز معه في النهاية.

- «فإذا اجتمعوا لباستيت بالسلاح والأدوات التي تقتل بها، فقتلوا في يوم منها مئة، وقتل في يوم نركسوس حرقًا، لما كان في ذلك العوض، بل الهلاك».

وضع الكتاب أسفل يده مجددًا، متفكرًا في المقصد خلف تلك

السطور، لكن مثل الجميع لم يفقه شيئًا. لاحظ نظراتي في شيء خلفه، لكنه قرر تجاهلي:

- «هل تلك المجوهرات التي تزين الكتاب حقيقية».

تثاءبت في ملل، فلا جدوى من تواجدي هنا حقًا، مع أحمقين أحدهما قرد والآخر خنزير.

- «لم أذهب لمختص ليفحصهم، لكن في بداية الكتاب هناك نص على لسان تلك الجواهر يحذر من الاقتراب منها. فحواه هو: إن أطمعتك عيناك في امتلاكي اقتلعها وألقها عنك، خير لك أن يهلك أحد أعضائك، من أن تتعفن ملقى في أتون السعير».

أشار إليّ بالاقتراب منه، نظرت لصديقي فأخبرني أن مراد يريد أن يقرأ بعض الآيات من كتاب الذكر الحكيم لمعرفة سبب لوستي. دنوت منه إلى أن التصقت بقصبة قدمه. وضع يده على رأسي في بادئ الأمر مرددًا بعض الكلمات، جلال الموقف جعل مجدي ينكمش مغمضًا عينيه محاولًا إشغال نفسه بالنظر في أماكن متعددة إلا بقعة انفرادي مع مراد. هذا الذي كان يرتجف كأن المارد قد انتقل له جراء حروفه المنثورة فوق رأسي. مللت حقًا من هذا الهراء والانتهاك غير المسموح به لأقل نسبة ذكاء بعقلي بتلك المسرحية السخيفة، لذاك قررت إنهاء تلك الجلسة العقيمة بضحكة رقيعة مستهزئة لا تتناسب مع جلال هذا المكان، لكنها تتناسب تمامًا مع تلك الأشياء القابعة خلفة.

- «هل أنت مؤذن الجامع حامي حمى الدين في قريتكم؟».

نظر لي مجدي بغيظ واستنكار بعد صدمته من فعلتي. ولعلمه من نبرة صوتي أنني أستهزئ بمراد الذي توجهت إليه ببقية حديثي.

- «ما خلفك لا يجب تواجده في الجامع حتى وإن كان لاستخدامك الشخصي فمكانه المنزل لا الجامع».

نظر لي في استفهام، وهو يسأل.

- «ما الذي ترينه خلفي ولا أراه».

كان مجدي ينظر لي في بلاهة، متعجبًا من اقترابي لمراد لأتحدث بصوت خفيض لا يمكن سماعه خارج أذنه وفمي.

- «الأفلام الإباحية، الأدوية المنشطة، والمخدرة. هل حقًا تلك الكمية للاستعمال الشخصي. أن أنك قررت اتخاذها تجارة رابحة أكثر من العظة والدين».

أمسك معصمي بقوة متكئًا عليه ليقف في مواجهتي، يهز جسدي عدة مرات دافعًا إياي رغبة منه في إخافتي.

- «لسانك هذا يجب قصه جزاء لهذا الهراء الناطق به، يا فتاة».

أخذت في الاقتراب منه ببطء مخرجة لساني كتحدٍ له أنه لن يجرؤ على تنفيذ ما هم بقوله منذ لحظات، تعتلي وجهي نظرة تحدٍ بعيون شيطانية واضحة أرعبته مرغمة إياه على التراجع للخلف إلى أن ألتصق بجدار المسجد الذي خلفه فاقتربت منه لدرجة أن أنفاسي لحفت وجهه.

- «أنا القدر لا مفر مني حتى وإن تخلصت من لساني سينبت لي

مئة غيره، لكني في مقابل لساني سأفقدك يديك وسأقطع أرجلك من خلاف جزاء عادلًا لما فعلته وتفعله».

أوليته ظهري لأغادر هذا المكان، لكنه ألقى شيئًا ما عليّ لأجد أنه الكتاب.

- «خذي كتابك هذا وارحلي، صدقت العمة سنية عندما حذرتني منك قائلة إنك شيطان رجيم، تمسين الجميع فتفقدينهم صوابهم وتجعلينهم يتخبطون في أوهام لا نهاية لها».

انحنيت ملتقطة لعنتي الأبدية وضعت إياه بحقيبتي، لحقني مجدي وهو يلهث خلفي معتذرًا لمراد عما بدر من سوء سلوك من ضيفته. كان حبه في هزم مراد والتنكيل به جعله يبدو كنسر جائع يحوم حول جيفته طوال الطريق. لم يكن على لسانه إلا أربع كلمات.

- «ما الذي رأيته خلفه؟».

جاوبته بمرح.

- «من يسدل الله عباءة ستره عليه، لا يستطيع عبد الله مزع تلك العباءة وإظهار عورات الناس».

رد باستهزاء وهو يلوي شفتيه امتعاضًا.

- «اللهم قوي إيمان أمة الله».

- «اللهم قوي إيمان والدك».

استوقفني راسمًا على وجهه نظرة استجداء فضولية ليدفعني في إخراج ما بين ثنايا جوفي من معلومات تشين مراد وتهينه. زممت

شفتي وأنا أخبره تفصيلًا بما رأيت، لكنه لم يتعجب أبدًا، بل كان كمن يعلم كل شيء مسبقًا.

أكمل سيره وأنا ركضت خلفه متسائلة: «هل كنت تعلم؟».

كان يسير شابكا كفيه خلف ظهره وهو يجيب: «كل القرية على علم بما أخبرتني به، مؤذن الجامع هذا، الصيدلي المثقف القارئ النهم الذي لم يستطع أن يصل لما قد يقضي على شرهه، أو بالأصح لم يرغب في ذلك كان يصل لقمة نشوته بالطعام، ساعده في بداية الأمر ثبات وزنه الذي لا يزيد على الرغم من عدم شعور صاحبه بالشبع نهائيًا. كان ينفق كل ما يتحصل عليه هو ووالده على الطعام، لذاك عندما ضاق والده ذرعًا به طرده من المنزل، كان يعتقد أن بتضييق الخناق عليه سيعدل من عاداته غير الصحية، كان مراد يرفض تمامًا عمليات مثل تكميم المعدة أو البالون لأنها ستحرمه من مصدر سعادته، لم تكن مشكلته يومًا في عدم مقدرته على التوقف تناول الطعام. بل في حبه للأكل.

عندما نفذت أمواله أصبح يدبر العقاقير غير المرخصة والأدوية المخدرة والمنشطة التي يطلبها الناس لتنفيذ رغباتهم. ذلك كله من أجل المال لإرضاء شهوته، بل ما زاد الطين بلة أنه كان يتاجر بالأفلام الإباحية وعقاقير مهلوسة ومخدرة للشباب».

لا أعلم بما أجيبه، حديثه ألجم لساني عن الرد لبعض دقائق للاستيعاب: «هل كل القرية تعلم هذا، وما زالت تقف خلفه للصلاة ولا يطردونه من بينهم؟».

توقف عن المسير مائلًا بجذعه قليلًا للأمام وهو يهز كتفيه: «لأن

كل شيء يحدث في الخفاء، وما دام الأمر مستترًا ويعود على الغالب بالنفع فلا حاجة لرد الفعل العنيف، فهو لم يجبر أحدًا على شيء، لن تثور ثائرتهم إلا عندما ينفضح الأمر ولا يكون هناك مناص من المواجهة، حينها سيخرج كل النعام رؤوسهم من الثرى لينقروا بها رأس مراد المكتنزا».

أجبته مستنكرة هامسة بصوت رغم انخفاضه كان كصافرة قطار أصمت أذنه: «كيف لا تبالون بما قد يحدث لكم، الفساد الذي ينشره بينكم، كم من بيت دمر أو مستقبل شاب قضي عليه بسبب فعلته النكراء تلك».

رفع كتفيه زامًا شفتيه على بعضهما مدافعًا: «هو لم يجبر أحدًا على التعامل معه، بل الشيخ حسن أخبره أنه لا بأس بما يفعله، فهو بهذه الطريقة يستر أهل القرية من أن يشنع عليهم أحد. أضف دفعه دومًا لكفارته من هذا المال الذي لم يكن بالقليل أبدًا. لقد جعل الشباب يفرغون شهواتهم بطريقة أقل جرمًا من الزنا وأقل فضحًا أيضًا!».

أجبته مطلقة ضحكة مدوية في أرجاء القرية كدليل قاطع على تفاهة حجة حسن هذا، جعلت كل من يسير في طرقاتها يلتفت إلينا ومن بينهم المدعوة سنية، التي ما إن لمحتني اندفعت كالسهم المنطلق صوبي ملوحة في الأفق بسكين ذي نصل حاد وسط ذهول الجميع من تصرفها المغاير لطبيعتها النقية وفطرتها السليمة. لولا وجود مجدي لكنت أصبحت تحت قدميها مضرجة في دمائي.

أسقط مجدي السكين من يدها، مطبقًا على جسدها بكلتا ذراعيه

حتى يحميني من شرها، كانت تصرخ بهستيريا وسط الملتفين حولنا إثر ما حدث.

- «هذه شيطان يجب أن تموت. ستقتلنا جميعًا، الشر يملأ عينها، والخديعة تسري في دمائها».

لم أحتمل المزيد، ما بال هذه الأقوام رغم جنوحي للسلم في حضرتهم ألا أنهم لا يرغبون إلا في إشعال فتيل غضبي وثورتي، رغم هدوء أعصابي المعتاد، كانت ما زالت شرارة غيظي منها متصاعدة لم تهدأ، فإذا بتصرفها هذا حولتها لأجاج لا يطالب إلا بالإفراج عنه، وقد كان.

قمت بجذبها من ضفائرها التي انحسر الحجاب عن تغطيتها، ممددة إياها على أرض الغرفة وجلست فوقها أحاول أن ألامس وجهها للأرض لأعرفها قدرها فلا تغتر وأنا أصرخ فيها.

- «بل الشيطان من قامت بدفع ابنتها في الماء للتخلص منها، لكن أين جثتها أيتها المريضة أين أخفيتها؟».

لم أكمل حديثي لجذب مجدي لجسدي والركض هروبًا من أيادي الناس الممتدة للفتك بي جزاء لاقترابي من سيدتهم العذراء وتلويثي لسمعتها، فهي في نظرهم لم يكن زوجها امرأ سوء ولم تكن هي بغيًا. تركني مجدي أمام باب منزلهم وعاد لسنية ليهدئ الأمر معها فلا تقوم قيامتنا بسببها.

لا أعلم لمَ هذا المنزل رغم روعته إلا أنه يسبب لي الكثير من الكوابيس. مقيدة مغلفة بأكياس بلاستيكية، ملقى بي في غيابات

الجب لا أستطيع الفكاك ولا يمكنني التقاط أنفاسي، يناظرني من علياء عيون معتمة تعلوها ضحكات عزازيلية تزيدني غرقًا. نفضت تلك الأفكار عني وأكملت طريقي لداخل المنزل.

كان يجلس أنور في غرفة المعيشة ألقيت عليه السلام وصعدت لغرفتي مباشرة، فلم أكن في مزاج للمناقشة أو التحدث مطلقًا. أثناء تبديل ملابسي وجدت أنور يقف متكئًا على الباب عاقدًا ساعديه أمام صدره. لم أحاول أن أستر ما ظهر من جسدي أو بطن، بل نظرت له مستفهمة.

- «كيف لم تطرق الباب قبل دخولك، ألم يعلمك والدك كيفية التعامل مع ضيوفك أم ماذا؟».

كان يتطلع لي بنظرات تملؤها الرغبة متحدثًا بصوت ناعم للتأثير عليّ للرضوخ لما يختمر في عقله من أفكار شاهدها في لياليه منفردًا وحيدًا.

- «إننا بمفردنا في المنزل، لا يوجد سوانا والشيطان ثالثنا. وأنا أفضل من مجدي إن بحثت حقًا واهتممت بالتفاصيل».

انتهى من جملته محاولًا التقرب مني، ألم يعلم ذلك الأحمق أن أمثاله كنت أتناولهم على فطوري يوميًا كمقبلات فاتحة للشهية. ألم يعلم بأن الهلاك من نصيب من كان إلهه هواه. ألم يعلم بأن تلك القرية قد أصابتني حقًا بالغثيان ولم أعد ألتمس لها الأعذار لأتصرف بملائكية أمام قاطنيها.

- «هل أولئك الفتيات اللاتي تشاهدهن في الأفلام التي يجلبها

لك مراد قد مَحوتَ مركز الإدراك بعقلك فلم تعد تستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال».

لم أتح له فرصة التفاجؤ من حديثي، بل عالجته بركلة بين فخذيه جعلته يتكوم على نفسه ألمًا ثم أعقبتها بتهشيم أحد التحف -التي أمقتها- المتواجدة بالغرفة على رأسه القبيح فجشته نصفين يجري بينهما الدم. صدق من قال إن الأشياء القبيحة مكان إلقائها القمامة لذلك ألقيت ثالثًا مزهرية خضراء اللون على جسده العفن ثم تركته خلفي كالجنين على الأرض وأنا أخبره:

- «لقد جانبك الصواب في العد أيها الغبي، فنحن اثنان ولسنا ثلاثة فالشيطان وأنا وجهان لعملة واحدة. لمَ لا تذهب للتزوج وترحم نفسك من كل ما تفعله بها من موبقات؟».

اصطدمت أثناء خروجي بمجدي غير العالم بما يجري تحت سقف منزله.

- «فلتهاتف الطبيب لأخيك ليداويه!».

وتركته وسط تساؤلاته راحلة صوب المضيَفة لأجلس هناك لحين الانتهاء من نقل أخيه إلى غرفته. لا أعلم ما دهاني، لم أعد أسيطر على تصرفاتي أو حديثي، لم أعد ألبس غضبي لجامه كما كنت أفعل دومًا. لقد امتلأ كوب تحملي ففاض من داخلي على رؤوس هؤلاء القوم. لا أعلم نهاية ما أفعله، لكنه أمر ممتع أن تفرغ كل ما بداخلك على أحد ما!

***

مرت عدة أيام منغلقة على ذاتي في غرفتي، لا أطيق الخروج أو النظر لرؤية أحد أتمنى أن ينتهي كل شيء وأعود لسابق حياتي الروتينية. كم كنت أمقته وأمقت نمط حياتي، لكن الآن كم أرجو الرجوع إليه. حقًا لا يُقدر أحد النعم التي تتخلل حياته إلا عند فقدانها.

أثناء محاولة إراحة أعصابي وجدت من يطرق على غرفتي طرقات خجلة فأخبرت صاحبها بالدخول، لأجده أنور وقد لف رأسه بشاش كثيف يواري غرز الخيط التي زركشت رأسه.

- «أتيت لأعتذر لك ولأجيبك عن سؤالك».

- «أي سؤال».

- «لمَ لم أتزوج، إلى الآن؟».

كان ما زال واقفًا لذا أشرت له بالجلوس أولًا ثم يستكمل حديثه بعد ذلك.

- «أبي نبت في بيئة فقيرة لم يعرف النعم إلا عندما تزوج من والدتي. كان دومًا يخاف من زوال النعمة فكان يحرمنا من أبسط حقوقنا. كان يعوض بخله الشديد علينا كرم والدتنا وحبها لنا، لكنه قبل مماتها أقنعها أن تكتب كل ما تملك باسمه وقد كان لحبها الشديد له. بعد أن رحلت والدتي أذاقنا والدي ما لا يمكن أن تتخيليه».

صمت مبتلعًا ريقه مطأطئًا رأسه خافضًا صوته، كان يفرك يديه ببعضهما في توتر.

- «كيف سأتزوج وأنا لا عمل لي ولا معيل، حرمنا من ميراثنا ومن

المميزات التي كانت متاحة لنا من والدتنا. لم أملك المال ولم أهتم يومًا بامتلاكه لوفرته بمنزلي. حتى بعد ممات والدي لم يكن لدينا ما يفيد حيازتنا لكل شيء فلم نستطع التصرف في أملاكنا أو بيعها. من أحببتها وانتظرتني بعدما علمت فقري المدقع وعدم مقدرتي لإتمام الزواج تزوجت غيري بلا ندم على الليالي التي شهدت غرامنا، غير مبالية بأنني خسرت صديق طفولتي جلال بسببها، لقد كان يحبها حبًا جمًا في مراهقته، فاستبدلتني به عندما أعلمتها ما كان يفعله من بشاعات، وفي النهاية تركتني، لكن كل شيء على وشك التغير بعدما ظهرت أوراق الملكية بفضلك منذ عدة أيام، الآن الكل سيمضي في حال سبيله يحقق ما يريده ويشتهيه. شكرًا لك وأعتذر مجددًا عما بدر مني مسبقًا».

رحل دون انتظار رد مني، كمن أراد أن يفرغ ما في جعبته ثم يفر هاربًا قبل أن يلقى القبض عليه بجرم الانكسار المشهود. لقد كان يقطرهم والدهم المال تقطيرًا، فماذا كان ينتظر منهم مقابل ما خطت يداه بحقهم. ما سبيل التجاهل إلا التجاهل؟ ما جزاء القسوة إلا القسوة؟

تذكرت الكتاب. ذهبت لأحضره لأقرأ قليلًا مما فيه. جذب نظري اللون الأحمر المزين لتلك الحروف فقررت التوغل فيها لفهم مقصدها.

- «لم يكن لي أب وأم؛ قفزت من فم سبع، عندما كان عمري لا يكاد يتجاوز ساعة واحدة. ومنذ ذلك الوقت وأنا أجري حول العالم بزوج السيوف هذه أطعن نفسي عندما لا أجد من أقتله. لقد ولدت في

الجحيم ولا أزال أراقبه؛ لأن أحدكم سيكون أبي».

لمَ غالب المكتوب هو نصوص الخطايا ما عدا القليل من الكلمات الأخرى غير المفهومة؟ لمَ يتغير اللون مع كل نص؟ ما هي العين الباصرة؟ ومن هي باستيت؟ كنت قد أغلقت الكتاب أداعب غلافه في هوادة ليفصح لي عما بداخله، لكن خنصري قد غرس في تجويف لم يكن متواجدًا من قبل ولم أنتبه له حتى تلك اللحظة.

هناك جوهرتان مفقودتان فارغ مكانهما تمامًا. تذكرت أن أحدًا لم يمسه منذ أن تحصلت عليه من مراد لكنني أردت التأكد فقط من حدسي فناديت على مجدي الذي حضر مسرعًا خوفًا من أن يكون خلف علو صوتي باسمه مصيبة ما.

- «ماذا هناك، هل أنت بخير؟».

- «نعم لا تقلق، أردت أن أسألك هل لمس أحد هذا الكتاب منذ أن حضرنا من الجامع».

هز رأسه نافيًا: «لا، أبدًا جميعنا كنا مشغولين بأنور وما حدث له. وبكيفية توزيع الميراث علينا بعد ظهور أوراق الملكية».

- «حسنًا، لم يفعلها غيره».

دنا مني ليرى مقصدي. تعجب من منظره الذي تغير وتشوه نتاج الأيدي التي طالته.

- «من فعل هذا، هل سقطوا من الغلاف أم ماذا؟».

أشرت له بسبابتي نافية سقوطهم بعد تفكر: «لم يفعلها غير مراد،

لم يمس أحد الكتاب بعده أبدًا. مراد هذا شيخ منصر وليس شيخ جامع!».

- «هل أنت على يقين بأنه مراد؟».

- «قلت لك لم يمسه أحد من بعده. عمومًا فليتحمل نتاج جشعه ونهمه. ما يدفعني حقًا لاحتقاره، ما يملكه من مال ينهاه عما يفعل. أم أنه من هؤلاء الذين إن أمنتهم على دينار لن يؤدوه إليك وإن ظللت عليه عاكفًا».

رد بشماتة واضحة وملامح علتها السخرية والاستهزاء:

- «من هذا الذي لديه المال؟ مراد لم يملك قوت يومه. أنفق كل ما يملك على المأكل والمشرب والملذات. إنه ليس من الأشخاص الذين يربون الشحم واللحم، بل لديه معدل حرق لا يمكن أن تتخيليه، ومع معدل الحرق هذا أصبح جسده كبرميل ضخم تدفعينه دفعًا، فلك أن تتخيلي كم الطعام الذي تستهلكه تلك المقطورة البشرية».

زفرت زفرة حارة، نادمة على ذهابي لمخبول القرية هذا الذي فتح باب سقر على الجميع.

- «ليكن الطعام الذي سيتحصل عليه جراء بيع الجوهرتين، طعامه الأخير. فلقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وسيدفع حياته ثمنًا لذلك، هابطًا بنفسه لتهلكتها جراء ما سأل».

تعجب مجدي من حديثي «لا أفقه ما ترمين إليه سالمين. ما مقصدك بطعامه الأخير؟».

كنت أداعب شفتي ببنصري، مضيقة أفق رؤيتي وبصري على نقطة

واحدة تعلو أنف مجدي. ملت برأسي قليلًا لليمين ثم حركته بنفس مقدار الزاوية باتجاه الشمال. باغته بسؤالي.

- «ما سر الرقم سبعة مع الإله. خلق الدنيا في سبعة، أيام الأسبوع سبعة، الأرض والسماء سبع، قوس قزح سبعة، عدد القارات سبع، طبقات النار سبع، عدد البحار سبعة، عجائب الدنيا سبع، عدد كلمات التوحيد سبع، الطواف حول الكعبة في شريعة المسلمين سبع، عدد أنواع النجوم الأساسية سبعة، أبواب التوبة سبعة، عدد الملائكة سبعة، اكتمال نمو الجنين يكون بعد سبعة، الموبقات والخطايا في كل الأديان التي أنزلها سبع، حتى هلاك الأرض سيأتي بعد سبعة أزمنة».

كان كالضائع من حديث لا يعلم بدايته من نهايته، مجرد هلاوس تخرج من عقل أعياه هدية جسد تعفن في التراب ونخره الدود، ولم يبقَ منه إلا ذكرى لا يعلم أحد خيرها من شرها.

- «عن أي أزمنة تتحدثين». قرر مجاراتي في الحديث لعله يفهم ولو قليلًا ما الذي يدور بعقلي.

- «زمن البراءة وتكوين الأرض وتعميرها، زمن الفهم والإدراك، زمن الراحة والاستغناء، زمن المماطلة في أوامر الإله والالتفاف حولها، زمن ممارسة المنكرات والملذات، زمن قتل الدعاة للإله بالعقل، زمن الهلاك. أعتقد أننا بزمن الهلاك يا مجدي. يا ليتي ما أتيت معك». التقطت أنفاسي وأكملت: «أم أني سقت لقدري مكبلة، حقًا لا أدري».

تركته وذهبت ناحية الشباك أحاول أن أواري رهبتي مما سيحدث إن صدق هذا الكتاب. أحاول أن أفكر في كيفية النجاة إن صدق

عليهم قول الإله، لكن أحقًا هناك إله أم مجرد فكرة اخترعها السادة والكهان للسيطرة على البشر. فكرة لتجعل المظلومين يتقبلون الظلم في الدنيا أملًا فيما بعد موتهم، فكرة تجعل الفقراء يفرحون بفقرهم رغبة في غنى الآخرة وجنانها. فكرة لا تطبق إلا على كل ما حقر اتقاء لشره إن قرر التمرد. أحاول أن أخرج عقلي من تخبطه ليعود إلى الحكم السليم والقرار القويم.

أتى الليل مسرعًا نمت قريرة العين بلا أحلام، لا أعلم كم لبثت في سباتي لكنني جُررت منه بلمسات ناعمة على وجنتي، مما جعل جسدي يتخذ وضعية الدفاع قبل استفاقة عقلي وعيني، لكن يدي أمسكت الفراغ فنظرت أمامي لأجد ليل ابنة سنية تبتسم في وجهي، مالي ومال ظلال السابقين في سوداء الليل لا أعلم.

- «أتيت أخبرك أن الوقت قد حان. هذه هديتي لك لفضحك للحقيقة».

اعتدلت مسرعة لعلمي بأن جملتها هذه لا تنبئ إلا بشر مطلق.

- «ما الذي حان يا ليل؟».

- «لسنوات أدور خلفها أضحك على أعمالها الخيرية. على ثوب الحمل الذي ترتديه السرحانة. لم يعلم الجميع ما الذي فعلته حتى أتيت أنت، حتى ولو قرروا عدم تصديقه لأنهم يحتاجون إليها».

كررت عليها سؤالي: «ما الذي حان يا طفلتي؟».

علمت أنها تجاهلت حديثي متعمدة عندما لم تجب للمرة الثانية عليه مكملة ما بدأت من سرد.

«منذ مولدي وهي لا تحبني، تكرهني امتدادًا لكرهها لوالدي. ولما أتت لها الفرصة حتى تخلصت من كل شيء كان يذكرها بأبي حتى أنا. كرهها لوالدي وصمته أمام جمالها وحبه لها متجاهلًا حياته التي أحالتها لجحيم. فمن كان يقبل بدمامة وجهه الشديدة إلا مقابل المال والرغبات الملباة والرضوخ الشديد لشتى أنواع المعاملة السيئة. كان في نظرها قردًا مسلسلًا بسلسال من ذهب يدر عليها الخيرات وهي في نظرة ملكة متوجة مصنوعة من الألماس يجب حفظها في أكثر الأماكن أمانًا. متناسيًا أن الألماس ما هو إلا فحم حقير يلوث الأيدي ويجرحها في النهاية».

كانت تتحدث بطلاقة لسان لا يضاهيها أعتى رجال اللغة وبهدوء شديد مع عيون خاوية من كل شيء إلا الحقد الدفين. زفرت زفرة باردة من قلبها الذي أثلجه ما عانته في سنها الصغير وأكملت: «لم تكن ترغب في الإنجاب حتى لا تتغير ملامح جسدها ومنحنياته، فلا يذبل جمالها بالحمل والإرضاع، ولا تفقد رونقها بالتربية والمسؤولية. لذلك ظلت لسنوات تحرم والدي من كل مستحقاته الزيجية. إلى أن قرر أن يعاملها بمبدأ الثواب والعقاب. فإن أطاعته أحضر لها الأرض ملك يديها وإن عصته حرمها من كل ملذات الدنيا فرضخت في النهاية وكنت أنا نتاج هذا الرضوخ العقلي دون القلبي فكنت كعلقة حاولت مرارًا لفظي وكرهي وتجنبت معاملتي».

ذهبت باتجاه النافذة ألقت نظرة خاطفة كمن ينتظر إشارة ما لتلاشيها، عادت إلى حيث كانت قابعة بجواري واضعة كفها الرقيقة على فخذي وهي تكمل إخراج القيح من جروح لم تندمل رغم اندمال صاحبتها: «موت والدي في سن صغيرة جعلها تعاملني

كخادمة، بل أقل مرتبة من الخادمات، إن صح القول عاملتني كخنزير يأكل فضلاتها ويلبس بقايا ملابسها التي كانت لا تتناسب مع طفلة أبدًا. كانت تبقيني فقط لأجل سيطرتها على ميراثي من والدي. فور موت والدي أرادت أن تعود لعشقها الأول. أن تعيد أمجاد حبها التي هزمت أمام حاجتها المالية هي وعائلتها. نهل من عسلها إلى أن جزعت نفسه فأهملها، وغرف من ميراثي وميراثها ولم يشبع. كان كمن ينتقم منها ليخبرها أنها أصبحت لا تصلح إلا كعاهرة تسلي أيامه وتدفئ له سريره مع جسده في أيام فقدان شغفه بامرأته».

لم أقاطعها أردتها أن تخبرني بكل ما حدث، ليس فقط ليستريح طيفها، بل أيضًا لتتضح صورة القرية كاملة أمام عقلي العاجز عن الإدراك لنقص التغذية المعلوماتية الواردة له: «أراد أن يزيد انتقامه منها شغفًا بحبي رغم صغر سني، محاولًا التقرب مني والرغبة في الزواج من تلك الطفلة التي لم تبلغ بعد، مشعلًا نار الحسد والحقد. زاد سوء معاملتها لي، محاولة أن تطمس كل ملامح جمالي التي تجلت ظاهرة للعيان المنبئة بفتاة تنافس فينوس في سحرها. أزالت شعري وكانت تزين جسدي بجراح كثيرة تاركة إياها تتقيح لتكون أثرًا لا يزول بتقدم الزمن، حرمتني من الطعام إلى أن هزل جسدي وغارت عيني وبرزت عظام وجنتي فكنت أقرب لجثة متحركة عنه من الإنسان».

أردت احتضانها لكن كيف سأحتضن هلامًا لا كينونة له! فربت على الفراغ المحيط بكفها الصغيرة وهي تكمل سرد ما بدأته: «كل ما فَعَلَته لم يحرك ما في قلب حبيبها والد مجدي من طمعه في أن أكون زوجته، نعم أرادني زوجه وأراد والدتي عشيقة. وهنا قررت

أن أوان التخلص مني قد حان. ذهبت سنية للشيخ حسن لتخبره بقصتها لتعلمه أن قلبها قد ملئ بالحسد ولا تستطيع العيش مع طبيعتها تلك لأن هذه النيران تحرقها ذاتيًا وتذيب روحها وتميتها. حينها أخبرها أن زوال المسبب هو الحل الوحيد لمعضلتها، وأن إنقاذ النفس يَجُب أي ذنب آخر. أخبرها أنها السبب في وجودي فلا بأس بأن تكون سبب فنائي فحياتي ملكها منذ مولدي. كانت قد أخذتني معها لتعلمني بقرارها في التخلص من هذا الحمل الذي ظلت تحمله لسنوات عديدة. أرادت تعذيبي بالخوف من كل حركة ستتخذها بعد فتوى هذا الحسن، فانتظار الموت وتوقعه أسوأ من الموت ذاته. أخبرها أنها لا بد في المقابل تخرج كفارة قتل النفس وهي رحبت بذلك بكل سعادة. فكانت كفارتها هي مساعدة المحتاجين من النساء طوال حياتها. لم تكن تعلم أن فتوى الشيخ حسن ما هي إلا لرغبة يضمرها في نفسه!».

يقال إن الأرواح لا تهاب شيئًا، لكن لوهلة رأيت ارتجافة اعترت جسدها من الذكرى التي جالت بخاطرها، تلك الرجفة التي انتقلت تلقائيًا لنبرات صوتها وهي تقول: «جذبتني من يدي في ليلة لا قمر فيها. كنت أعلم أنها حسمت قراراها وأن هذه اللحظة هي للتنفيذ. حاولت مرارًا أن أتشبث بقدمي في الأرض، أن أحرن كما تحرن الحيوانات فلا أتحرك، لكنني كنت هزيلة كفراشة حجزت وسط دوامة من الأعاصير فكسرت أجنحتها. كنت أجذب يدي من قبضتها لكن هذا لم يزدها إلا عنفًا في جذبها الذي جراءه خلعت كتفي هذا اليوم. كنت أترجاها بأن تتركني وسأهرب من القرية جمعاء ولن تراني مجددًا لكن طبع على قلبها بالقسوة فلم ينفذ لشغافه حب

ابنتها ولا مشاعر أمومتها. أوقفتني أمام إحدى قنوات الماء مولية ظهري لها واضعة يدها على كتفي -المرتجفة من لمساتها- المنتظرة للمستها الأخيرة. همست في أذني أن لا أحد بتاتًا يأخذ ما هو من حقها، وإنني غلطة تأخرت في تداركها كان يجب تصحيحها منذ زمن، وإنها لطالما كرهتني وكرهت والدي هذا الذي اشتراها كعبدة من سوق والدها بعدما وجد فيها ما يسره».

وقفت مولية ظهرها لي تنقل بصرها بين يديها وقدميها كأنها تتحقق من تواجدهما بعد معركتها الضارية مع الموت، غمغمت بصوت خفيض: «ألقتني وتركتي أواجه ظلمة الماء أصارع الموت بكتف مخلوع وقلب موجوع ودموع اختلطت بماء القناة فأحالته من ماء عذب لماء أجاج مالح شرابه غصة للشاربين. استدارت راحلة قبل أن يلمحها أحد ملقية إحدى فردتي حذائي بالقرب من الشاطئ لتكمل مسرحية موتي عندما تطوف جثتي على وجه الماء غدًا. فتخبر الجميع أنني غرقت بسبب انزلاق قدمي، لكن لم تكن تعلم أنني ذنبها الذي سألاحقها طوال عمرها، فلا موت مت ولا جثة طفت! لكن ما ابتغته قد تحقق وهو رحيلي من حياتها. مثلت دور الأم المكلومة على فلذة كبدها ببراعة منقطعة النظير، فلقد كسبت تعاطف جميع اهل القرية ومسحت من عقولهم صورتي وأنا مهانة وسطهم، محت من ذاكرتهم هيئتي التي كانت تخبرهم عن سوء المعاملة التي تحيط بتربيتي دون نطق لساني بما يحدث كل ليلة على مرأى ومسمع مني. ظلت واقفة على حافة القناة لأيام لا لتجدني، بل لتتأكد من موتي. كانت ترعبها فكرة عودتي من جديد، فكرة المنافس الذي بدأ يجليها من عرش تربعها، متناسية أن ناموس

الحياة بأكمله قائم على فكرة الإحلال والاستبدال وأنها إن كانت دامت لفرد لكان يعبد في هذا الكوكب الملعون!».

استقامت في وقفتها بكل شموخ وعاد صوتها يجلجل: «لكن جلال أقسم لي بأن ينتقم منها، لكنه كان ينتظر حضور مالك الكنز وعندما رآك في شادر والده علم أن وقت الحساب قد حان، لكن لم يمهله الوقت تحقيق انتقامه».

كمن أحضرت دلو ماء وسكبته على رأسي، لأخرج من حالة الشفقة للذهول بجملة واحدة تلفظت بها، فلا أجد بدًا من سؤالها: «هل جلال كان يراك، رغم موتك؟».

هزت رأسها بهدوء بالإيجاب: «بل كان مرافقًا لي طوال عمري حتى مماته، لم يسلّ وقتي إلاه، ولم يعاوني إلاه. لم ير حقيقة كل شيء إلاه. لكنك أتيت لتكملي كل شيء من بعده».

حاولت أن أعرف ما مقصدها للمرة الثالثة بأن الوقت قد حان، لكن قطع كلامي قبل التفوه به سماع صرخة مدوية مصدرها الشارع، أعقبها صرخة ثانية من مكان آخر في القرية. ثم توالت الصرخات من كل أنحاء القرية بلا توقف، بل في ازدياد. فتحت النافذة مسرعة لأرى ما الحدث الذي يستحق كل تلك الأصوات الذي أزعجت حيوانات الليل في سكونها، لأجد ليل تردد خلفي جملة واحدة وتختفي بعدها: «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعدًا».

أضيئت أنوار القرية قاطبة فأحالتها لمصباح كبير يصل نوره لقاطني المحطات الفضائية خارج الغلاف الجوي. نزلت لأسفل لأجد

مجدي وإخوته كانوا على استعداد للخروج فانضممت لهم ممسكة بطرف عباءة مجدي أسير خلفه لعل إن كان هناك مكروه يصيبه أولًا وتكون لي فرصة للنجاة.

فتح باب المنزل مستعدين للخروج كالبنيان المرصوص، لنجد أمام المنزل مادة حمراء لزجة يعقبها أحشاء كائن تم إفراغها من جسده المبقور، قاومت التقيؤ وأسند رأسي على كتف مجدي مخفية عن نظري هذه الأشياء، لكن يبدو أن فريدة لم تستطع المقاومة فأخرجت ما يملأ جوفها على قدم أخيها هيثم الذي قفز للخلف في محاولة منه لإنقاذ ما تبقى من ملابسه من اعتداء أخته عليه. لترتطم قدمه بشيء كروي ملقى على الأرض ما إن أمعنا النظر فيه تبين أنه رأس قط ما تم جزه بوحشية ضارية جعلت القط يلفظ أنفاسه الأخيرة بعيون يملؤها الفزع مفتوحة على مصراعيها. انقبضت عضلات وجه الجميع وشاركت فريدة أهل القرية في صراخهم، بينما أنا زدت انكماشًا في مجدي الذي طوق يد أخيه بكفيه يستمد منه القوة ليذهب عن قلبه الفزع.

بأرجل ترتجف استكملنا رحلتنا لنرى بقية القط معلقة كالمصابيح على عواميد إنارة القرية أمام كل بيت. لنتشارك مع الجميع نظرات هالها ما رأت، مرتعبة مما قد يحدث وما هو آت. في لحظة واحدة من خروجنا توقف الصوت تمامًا ثم توجهت كل العيون إلى جسدي المنكمش خلف صديقي الذي ما إن شاهد ما يحدث رجع للخلف يحميني بخطوات هادئة إلى أن دلف إلى منزله ومن ورائه جسدي فأغلق الباب بإحكام مطلقًا تنهيدة ارتياح من سلامتنا في الوقت الراهن.

استمعنا لحركة دؤوبة خارج المنزل يبدو أن كل شخص قرر تنظيف تلك المذبحة التي أمام منزله. ومنهم هيثم وفريدة بينما انضم أنور لجلستي المتفكرة مع مجدي لمحاولة الوصول لما حدث تؤًا. أخبرتهم بزيارة ليل وحديثها بأكمله. قاطعني مجدي عندما ذكرت اسم جلال.

- «جلال كان شخصًا هادئًا قليل الكلام. كان الجميع يعتقدون أن به علة من هدوئه، لا يمكن أبدًا أن يقتل حيوانًا بتلك الوحشية. أرى أنه كان مجرد كابوس لا أكثر».

تعجبت من عدم تعليقهم على كل ما عانته تلك الفتاة ولم يهمهم إلا الجزء الخاص بما حدث للقرية. وضع أنور يده على فخذه ليسكته وأكمل أنور الحديث.

- «بل أنا أصدقها. جلال كان صديقي وكان في صغره يفعل ما هو أكثر من ذلك في الحيوانات. كان معظم موجبات عقابه من أبيه هو ما كان يفعله بالحيوانات. لا أعلم هل كان عقاب أبيه هو السبب فيما يفعله، أم أن طباعه هي السبب في عقاب والده له. لذلك أصدق حديثك، لكن كيف لشخص مات لا تجسيد له، بل مجرد صورة هلامية أن يقتل كائنًا حيًا له جسد وروح».

صمت الاثنان فقررت أن أكمل المفاجآت لننتهي مرة واحدة.

- «هناك شيء آخر يجب أن تعلموه. إن كان عدد القطط المقتولة مئة فأعتقد أن هناك نكبة على وشك الحدوث!».

اعتدلا في جلستهما فجأة «لمَ تقولين هذا؟». صدرت الجملة من

الاثنين في آن واحد، فأكملت:

- «ذكر في الكتاب أن هلاك مئة من الباستيت بداية هلاك لشيء ما لكن لا أعلم ما هو. والباستيت هو لفظ كان يطلقه قدماء المصريين على القطط وعلى إلههم. الفكرة كلها تكمن في عدد القطط الميتة».

هب كلاهما بسرعة خارج المنزل وقد انتويا أن يقوما بعد القطط التي تمت التضحية بها في تلك الليلة، لعل ظنهما يخيب بصدق ما ورد بهذا الكتاب، بعدما انتصفت الشمس في السماء عادا وعلى وجههما غبرة الجهد الذي بذلاه طول الساعات التي مضت. جلسا منهكين مكلومين لم يجرؤ أحد على قطع راحتهما رغم الفضول الذي أكل كبدنا طوال غيابهما.

- «مئة قطة بالتمام والكمال، لقد عدنا الكرة أكثر من ست مرات. وكل مرة يزيد تأكدنا بأنهم مئة. هذا الشيء اللعين الذي تحويه بين أشيائك سيدمر كل ما بناه أجدادنا وسيدمرنا نحن بالنهاية». كان أنور يلهث كمن نفدت طاقته بحديثه هذا. فأكمل مجدي عنه:

- «لقد ذكر الكتاب جزءًا آخر مع فقرة باستيت تلك، أليس كذلك؟ ما زلت أتذكر ما قرأته لمراد».

- «بلى، لقد ذكر في الشق الثاني من هذا التنبؤ أنه لا بد من حرق نركسوس بعد موت القطط. لكن من هو نركسوس، أو لأكون أكثر دقة بمن يقصد نركسوس؟».

اشتركت فريدة في الحوار بسؤالها: «هل تعلمين ما معنى الكلمة هذه ركسيسوس».

تبسمت لسذاجتها وجهلها المطلق: «نركسوس أو نرسيس. أسطورة يونانية عن صياد كان شديد الجمال، فكيف لا يكون جميلًا وهو ابن الإله كيفيسيا والحورية ليريوبي، لكنه يا للأسف اغتر كثيرًا بسبب جماله لدرجة جعلته يرفض الحديث مع البشر أو الاختلاط بهم. لاحظت الآلهة اليونانية تصرفه فقررت عقابه بأن أهدته إلى البحيرة ليرى انعكاس وجهه على صفحة الماء، والذي ما إن رأى صورته حتى وقع في غرامها ورفض التحرك من أمامها كما أحجم عن الأكل والشرب وكل ما قد يشغله عن مشاهدة نفسه حتى مات. ومن أسطورته اشتقّت النرجسية».

دار هيثم حول الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل دقيقة. وهو يقول وقد عادت له لعثمته في الحديث: «صدقت من يقصد بنركسوس. قد يكون أي شخص يمر في الشارع».

رفعت كتفي كعلامة على جهلي بإجابة سؤاله: «حاولوا التفكر في شخص بلغ به غروره مبلغ احتقاره للناس ورؤيتهم أنهم أقل منه ويجب عليهم شكر الإله لوجوده بينهم. أنتم أعلم بخبايا تلك القرية وطباع أهلها».

لم أكد أنتهي حتى وجدنا أحد الفلاحين يدخل للصالة بعد أن استأذن أصحاب الدار في الدخول. فأذن له أنور بينما ذهبت فريدة لغرفتها وكنت على وشك ذهابي لغرفتي لكن الرجل استوقفني وهو يقول.

- «يا أستاذ مجدي، الشيخ مراد يطالب حضورك أنت وضيفتك لأمر ضروري».

ما إن ذكر اسم هذا الخرتيت حتى نفرت من تواجده. لو أعطوني ملء الأرض ذهبًا لن أذهب إليه مرة أخرى، فهو من اجتذب الخراب للقرية بفعلته. استفهم منه مجدي:

- «ما الذي يريده مراد مني ومن ضيفتي يا حاج محمود».

- «لا أعلم فهو مريض جدًا منذ ثلاثة أيام، ويريد حضوركما في الحال».

نظر لي مجدي والرجل بسبب ضحكي الهستيري متسائلين عن سبب الضحك في موقف جدي مثل هذا، فأخبرتهم بخيالاتي وأنا أعتذر عن تصرفي غير اللائق.

- «أعتذر، يبدو أن الأحمق قد ابتلع تلك الجواهر ليتغلب على جوعه بدلًا من بيعها، فأطبقت على نفسه مقربة انتهاء أجله».

رمقني مجدي بنظرة أن الموقف لا يحتمل المزاح فرددتها له، لكنها كانت نظرة استهزائيه من هذا الساذج الذي بدلًا من الذهاب للطبيب طلب إحضاري. تغاضيت عن استنكاره ووجهت حديثي للرجل:

- «أنا لست طبيبًا لأعالجه فلماذا يريدني هذا المراد؟».

كان يضع كلتا يديه على صدره ليوقف نبضات قلبه المتسارعة ركضًا: «يا آنسة، الأطباء لا يعرفون له علاج. وهو أخبر الجميع بأن علاجه أنت فقط من تملكينه وطلب أن تأتي معي أنت ومجدي حالًا. فحالته الصحية حرجة».

ربت مجدي على كتف الرجل وهو يقول:

- «اذهب أنت ونحن سنأتي خلفك، لا تقلق».

- «لن أذهب إلى أي مكان في تلك القرية. فليتحمل كل شخص نتيجة أخطائه وأفعاله، هو من أخذ الجواهر وأنت تعلم هذا يا مجدي».

اندهش الرجل من حديثي وأصبح يتحدث بغيظ كازًا على أسنانه لدرجة أنها أصدرت صريرًا مزعجًا:

- «الشيخ مراد لم يفعل شيئًا خاطئًا لتتحدثي عنه هكذا. ونصيحة يا آنسة ساعديه لأنه إن حدث له شيء سيفتك بك أهل البلدة أجمع، لأنه أخبرهم أنك السبب في كل ما يحدث».

كنت أحرك لساني داخل فمي في دوائر أوازن بين حديث الرجل وتبعات قراري. كان يبدو جليًا على وجهه أنه علم أن حديثه قد بدأ يزعزع إصراري على عدم المساعدة لذاك كل ما فعله هو الوقوف في انتظار أن أذهب معه.

- «قبل أن أذهب معك، ما هي أعراض مرضه؟ لأكون على علم بما سأواجه».

- «يشكو من الصداع المستمر، وحرارته مرتفعة كما الغلاية الموضوعة على النار لأسبوع كامل، لا تقل حرارته سواء بالماء أو بالدواء. يرتجف جسده بشدة كمن يتلبسه جان يعبث بداخله. متقوس على نفسه بوضع مقلوب ومتيبس على تلك الوضعية. حدوث قيء مستمر لا يثبت في جوفه لا ماء ولا طعام. كلما فتح أحد الشباك أو أضاء المصباح يصرخ في هستيريا بأن عينه تحترق.

دائم النسيان ويخرف كثيرًا وآخر شيء تنتابه تشنجات كمن يصاب بالصرع لدرجة تزرق فيها شفته ولا يستطيع التنفس».

مسح دمعة خانت رجولته فسقطت على وجهه، مسحها مسرعًا وسكت قليلًا ليتمالك نفسه حتى لا تطعنه بقية العبرات في مقتل بكرامته ثم أكمل:

- «في بادئ الأمر أحضروا الأطباء والذين أيضًا احتاروا بأمره، لذا اعتقد والده أن به مسًا من جان وأحضر الشيوخ لكن لا فائدة، وكان في خرفه ينادي باسمك ويطلبك لتعالجيه».

- «لن أذهب لأي مكان بتاتًا، لن أذهب للموت في عقر داره. فشيخك مريض بالطاعون أو الالتهاب السحائي في مرحلة متأخرة لا علاج فيها».

ذهل الرجل ومجدي بدوره من قدرتي على تصنيف المرض وما ألم بمراد قبل حتى أن أراه، مما حدا بمجدي بسؤالي:

- «كيف عرفت ما أصابه، وأنت لم تريه ولم تدرسي الطب أيضًا؟».

أشرت له بهاتفي المحمول الممسكة به في يدي.

- «لست أنا من علم مرضه، بل هذا الذي يعلم كل شيء الجوجل. لقد أدخلت عليه الأعراض وهو من تنبأ بهذه الأمراض. أيها العجوز لن أذهب إلى أي مكان مطلقًا ونصيحة لك ولأهل القرية. أحرقوا داره وهو فيها وزد عليهم كل من تظهر عليه أعراض تشابه لمرض مراد هذا. فالنجاة من هذا المرض هي بحرق كل ما يشتبه في احتوائه له. أحرقوه قبل أن تنبذوه وتكرهوا تواجده».

خرج الرجل وهو يلعن كل أسلافي وأسلاف من عرفوني وكل من كان له صلة بي، بينما أنا لوحت لمجدي وكنت على استعداد الصعود لغرفتي لأنهي الجدال الذي سيدور بيني وبين مجدي قبل بدايته، لكن ما إن وضعت قدمي بداخل غرفتي وجدت فريدة في انتظار حضوري. اللعنة يبدو أن نهاية هذا اليوم بعيدة المنال عن يدي. رفعت أحد حاجبي اعتراضًا على تواجدها على فراشي، أعلم أن المنزل ملك لها ولإخوتها، لكن ما دمت في هذه الغرفة فهي ملكي لحين ذهابي منها ولا يسمح لأحد الدخول فيها دون إذني، لحسن حظها لم أكن في حالة تسمح لي بالجدال لذا رسمت ابتسامة مزيفة على وجهي كترحيب بها ثم ذهبت وجلست بجوارها. من كان يرانا في تلك اللحظة يعتقد بأننا صديقتان من زمن اجتمعتا لتبوح كل واحدة منهما للأخرى بمكنونات صدرها لترتاح.

كانت كتمثال نحت حديثًا لا حركة أو صوت، لذلك بدأت الكلام:

- «ما سبب طلاقك من زوجك؟».

صدمت من معرفتي بموضوع طلاقها، وحتى لا تظن السوء بمجدي استطردت بسرعة:

- «لقد سمعت حديثًا من بعض نساء القرية، أثناء مروري في أحد شوارعها، حتى لا يذهب بالك إلى ما يسبب الشقاق بينك وبين من تحبينهم».

كانت تتفحصني لتعلم مدى صدقي من عدمه، لكنها بعد برهة فتحت فاها وأخرجت كل ما بداخلها وتراكم على مدار أكثر من سنة مضت:

- «لقد أحببت زميلي في الدراسة للمرحلة الثانوية لكن بعد ذلك افترقنا. هو أكمل دراسته بالجامعة، بينما أنا اكتفيت بالمرحلة الثانوية الفنية الصناعية. ظل ما بيننا من مشاعر إلى أن انتهى من جامعته. تقدم للزواج مني أكثر من مرة لكن والدي كان يرفض رفضًا قاطعًا. فتزوجته من دون علم والدي أو والدتي، ولولا وجود أمي هذه الفترة لكنت مت أنا وهو جوعًا. بعد وفاة والدتي علم أنها تنازلت عن كل ما تملك لأبي، حينها تبدلت حاله، أهملني تمامًا، بل كان يعاملني بكل قسوة كخادمة في منزله. أحضر الكثير من النساء وضاجعهم على فراشي وأثناء تواجدي بلا أي تقدير لمشاعري وقلبي المنفطر من أفعاله. عندما واجهته أخبرني إنه لم يعد لوجودي فائدة، بل مجرد عالة عليه وألا أتحدث معه إلا عند حصولي على ميراثي من والدي».

وضعت يدها على قلبها وقبضت على ملابسها بدلًا من قلبها الذي لم تستطع الوصول له بين صدرها ليسكن بين كفيها قليلًا. كانت تبكي دون توقف كأن عينها كانت تهفو لمن يطلق سراح دموعها، فما إن فعل أحد ذلك هربت غير آبهة بما قد يصيب صاحبها.

- «كم طلبت من والدي أن يساعدنا، ولكنه رفض، كم رجوته أن يعطيني بعض النقود لحاجتي الشخصية لكنه أبى، كم بكيت أمامه من إهانة زوجي لي فليرحمني بإعطائي ميراثي لكن كان قلبه كحجر الصوان لم يرق أو يرأف بما وصلت له. بعد مماته عادت معاملة زوجي الطيبة لي، كنت أعيش في جنة الحب معه. كان دومًا يسألني عن ميراثي وخوفي من أن يتركني جعلني أكذب عليه ولم أخبره أننا

لم نجد أوراق ملكية أبي للمنزل والأرض أو قيمة المال في البنك. أخبرته أن ميراثي مع إخوتي ولن أطلبه منهم هنا تحول لوحش كاسر. ضربني وحبسني وقيدني بمنزلي حتى أتنازل عن مستحقاتي الزوجية ووصل به الأمر أنه قيدني في أحد الكراسي وحرق أجزاء مختلفة من جسدي إلى أن وقّعت له على تنازل عن كل حقوقي الناتجة عن الزواج فطلقني وجعلني أعود إلى منزل إخوتي بملابسي الداخلية فقط كنوع من الإهانة لي وهذا كل ما حدث».

مسحت دموعها بأناملها الصغيرة، أطلقت آه طويلة اعتقدت أنها ستفقد صوتها بعدها ثم زفرت لتكمل:

- «لكن بعد أن ظهرت أوراق الملكية، سأعود إليه وأنا على يقين بأنه سيحسن معاملتي هذه المرة، لأنه إن لم يفعل سأحرمه من كل ما أملك وأعيده فقيرًا محتاجًا كما كان!».

- «هل ستعودين له بعد ما اقترفت يداه في حقك، وما استباحه من ألمك؟ بعدما علمت أنه لم يحبك يومًا، بل اقترن بك فقط لمالك!».

- «أعلم وسأذهب إليه لأن ألم قربه وإهانته ليس بشيء بتاتًا مقابل ألم بعده وهجره لي! أحبه، بل وأعشقه فلا أتنفس إلا بتواجده ومن دونه أنا جثة لا حياة فيها ولا روح!».

يبدو أنه ليس مراد فقط من تحركه شهواته ونزواته بتلك القرية، لقد سقطت من نظري كثيرًا لدرجة أنني لم أعد أراها، لا يوجد أحقر من امرأة علمت أنها مرفوضة من قبل رجل، ولكنها ما زالت تحوم حوله وتهوده وتدمر نفسها فقط ابتغاء مرضاته.

وقفت لأرحل بعيدًا عن تلك العلقة التي تشبثت برقبة زوجها ولا تريد تركه رغم محاولته المستميتة للتخلص منها، متحججة بأن لدي بعض الأمور المهمة التي لا بد أن أنجزها مع مجدي، لكن قبل رحيلي قلت لها:

- «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!».

نزلت جلست في بقعة بعيدة عن أعين الجميع خلف منزل مجدي، نظرت لحالي في المرأة الصغيرة التي دومًا أحتفظ بها في جيب داخلي في حقيبتي، كمخدر أريد تهريبه والتلذذ به بعيدًا عن أعين الجميع. لا أعلم لم دومًا الشعور بأنوثتي يجعلني كالمذنبة في حق نفسي، كأنه ذنب يجب التطهر منه والتوبة. لاحظت تراكم هالات سوداء تحت جفوني السوداء. نحولي أكثر مما كنت عليه. كبرت أكثر من عشرة أعوام في أسبوعين فقط. لم يتبقَّ لي سوى أسبوعين بتلك القرية. لا أعلم لكنه شعور دفين أنني في منتصف الأحداث. شعور تملكني عندما قرأت الصفحة قبل الأخيرة في هذا الكتاب «ستستمر الأحداث بدرًا وهلالًا، وسيأتي المخلص كلص في الليل. ستنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها في اليوم الذي ستظلم فيه الشمس والقمر لا يعطي ضوءهن ستمطر السماء مطرًا ذا رائحة كريهة ليطهر الأرض من ذنوب من عليها».

لقد حضرت إلى هذه القرية والقمر بدرًا أتذكر ذلك جيدًا، ومعنى حديثه أن الأحداث ستستغرق شهرًا وبضعة أيام إن كنت أنا المقصودة بحافظ الكنز. آه لو يتوقف عقلي عن التفكير ولو لبرهة يرتاح فيها ويريحني. من أدعو الآن ألا يحدث أي حادث جديد ولو

كان عارضًا. لا أريد حقًا أي حدث جديد فلقد تعبت من كل ما حدث وأصبحت أجزم أن تلك القرية هي مأوى للشياطين وليس البشر. وأن سبب رؤيتي لما سطروه في صحفهم وما يسطرونه هو أنني ملكة الشياطين، فهم حقًا حالة سامة لا تفلح حتى كطعام للقطط والكلاب المشردة فما الفائدة منهم إذًا؟!

***

مر يومان ثم يوم، ثم لم أعد أحسب الأيام. كل ما رجوته السلام لحين خروجي من هذه القرية الظالم أهلها، لكن كيف لأمثالي أن تحصل على ما تبتغيه. فأمثالي ولدوا للشقاء لأن تعاندهم الدنيا كألد أعدائها، تحاول أن تصرعهم في كل خطوة على سطحها، كزوجة أب لن يرتاح لها بال إلا بعد أن تشكي بأبناء زوجها من زوجته الأخرى.

وجدت هيثم يتحدث مع أحد على الهاتف بكلمات مقتضبة، مصوبًا نظره في مكان تواجدي ثم أغلق الهاتف، تحدث بنبرة قوية وبعين حادة كثعلب يحاول اللعب مع فريسته.

- «كيف علمتِ أن مراد سينبذه الجميع؟».

- «هل حدث ذلك حقًا؟».

كان يبدو على لهجة كلامي معه أنني بالفعل أسخر منه وهو علم ذلك، جلس بجواري بطريقة أجفلتني فجعلتني أبتعد للخلف، وحمدت الله أن مجدي قد حضر في تلك اللحظة لأن أكثر من أخافه من إخوة مجدي هو هيثم. لا يُظهر أبدًا ما بداخله. أحيانًا كالحمل الوديع وأحيانًا كنمر قد افترس هذا الحمل ومزقه إربًا وتربع على

عرشه ليفرض وجوده.

- «نعم فوالده من كان يحدثني. يترجاني أن ترأفي بحالهم وتذهبي لمعالجته لرفض كل الأطباء الذهاب له، حتى إن كل أهل القرية رفضوا مساعدته أو معايدته والاطمئنان على حاله».

- «هل أصاب جلده القيح، وأصبحت تفوح منه رائحة نتنة ناهيك عن منظره المقزز الذي يبث الرعب في أعتى قلوب الرجال؟».

- «كيف علمت أن هذا ما حدث، هل كنت تسترقين السمع لحديثي على الهاتف؟».

وقفت بجوار مجدي ممسكة بطرف ملابسه قابضة عليها بيد من حديد وأنا أجيب هيثم:

- «لست أنا من تتصرف بتلك الدناءة، كما أخبرت أخاك والرجل من قبل أن أعراض مرضه تتفاقم، وليكن بعلمك أنت ومجدي ستظهر حالات أخرى لديها نفس المرض، وستصاب القرية بأكملها بالوباء إن لم تحرقوهم جميعًا في منزله وكل ما يملكه أو يكون قد مس يده يومًا. هذه الطريقة الوحيدة للنجاة بأنفسكم. اللعنة عليكم سأموت في آخر الأمر مشوهة الوجه كريهة الرائحة!».

ارتبك هيثم وكنت أعض على شفتي السفلى بغل، أطرق طرقات خفيفة بقبضتي على عضد مجدي بينما مجدي يدير حديثي في عقله لأنه يعلم يقينًا أن هذا الحل الوحيد لنجاة القرية. كان يمسك مجدي كوب ماء في يده ليروي ظمأه لولا أن أبعدته يد فريدة عنه بكل قوتها جاعلة ارتطام الكوب في الحائط يصدر دويًا تصاحبه

شذرات من زجاج رفع الجميع يده ليحمي وجهه مخافة أن تصيبه إحداها.

- «لا يشرب أحد الماء أبدًا. هناك رائحة كريهة تصدر من كل القنوات المائية التي بالقرية، ونفقت كل الحيوانات التي شربت منها، وطفا السمك على وجه الماء. ما الذي يحدث لقريتنا؟ أنور في الحظيرة يبكي على مصابنا كحال الجميع».

هرول الجميع إلى الحظيرة ذلك الملحق الخلفي لمنزلهم ليروا ما الذي حدث وليهونوا على أنور فهو المختص بالبهائم والأرض ومتطلباتهم. وجدناه يجلس بجوار أحد الحيوانات النافقة يضع كلتا يديه على رأسه يبكي كأنه فقد أحد أبنائه وليس مجرد حيوان يمكن تعويضه ببضعة آلاف من الجنيهات. ذهب هيثم يحاول أن يوقفه على قدميه ليخرجه من الحظيرة لينظر إليه أنور وهو يقول:

- «لم يكن بها شيء، كانت صحيحة ليس بها أي علة. لكن ما إن شربت الماء حتى أصابها إسهال شديد ثم بدأ الإعياء يظهر عليها فأحضرتها هي وبقية القطيع إلى هنا. حيث لفظوا أنفاسهم الأخيرة. مجهود سنين ضاع في لحظة. تعبي وشقاء لم أُثَب عليهم يا هيثم».

احتضنه هيثم وهو يبكي يحاول أن يسري عن أخيه بعض الحزن، كما حاول هو بلمساته حاولت أنا بحديثي:

- «لا تحزن يا أنور. فأنت تتمتع بالصحة تستطيع أن تعوض خسارتك تلك وتحيلها لمكسب مضاعف في وقت قليل، ولتسعد بأنه لم يحدث لك أو لإخوتك أي مكروه».

انتفض في حضن هيثم وقام بدفعه، حاول أن تطالني يداه لكن حال مجدي دون ذلك، فنشبت معركة ضارية بينهم وعلى الرغم من أن جسد أنور ضعف جسد مجدي تقريبًا، لكنه أسقطه أرضًا وثبته طالبًا منه الهدوء. كان يتحدث لمجدي معللًا ما كان على وشك ارتكابه:

- «هي السبب يا مجدي، هي السبب منذ حضورها ولم تأتِنا المصائب فرادى، بل جمعًا وتباعًا. هي وكتابها اللعين السبب. الكثير من أهل القرية قد رأوا جلال بالفعل قبيل الفجر وهو يسكب شيئًا ما في القنوات المائية، لكن لم يتحدث أحد إلا بعد حدوث الطامة الكبرى. جميعهم كانوا يعتقدون منفردين أن كل واحد منهم يتوهم رؤيته، لكن ما إن تحدث جمال حارث المقابر حتى أمّن على حديثه الكثير. كيف لشبح أن يفعل كل هذا؟ هي من فتحت له المجال هو وغيره من الأموات. خسرت نصف مالي يا مجدي. آآه».

جلس ينهنه فقام مجدي من فوقه واحتضنه هو وهيثم وفريدة، بينما أنا ظللت واقفة أنتظر أن ينتهوا من هذا المشهد الدرامي، فدومًا أرى أن المال لا أهمية له ما دامت النفس بخير وأن الأمر لا يستحق كل هذا العويل. تركتهم وأنا أردد شاردة في أفكاري المحللة لما يحدث:

- «إنه لنذير شؤم أن تسير الأموات بين الأحياء، أن يرى الأحياء الأموات رؤية عين الحق لهو الهلاك، هذا دليل قيام قيامتهم أو اقترابها. ويل لكل أهل القرية من شر قد اقترب».

أتى مجدي خلفي، مُزِجَ خوفه باعتقاده أنني أسخر من أخيه

وخسارتهم. فلغى عقله محيلًا إياه لمسعور لا يفقه في الدنيا إلا أمرًا وحيدًا ألا وهو التخلص من البهلة القابعة في أسفل حقيبتي. هجم عليها ممزقًا إياها مخرجًا منها الكتاب وهو يلوح به أمامي:

- «هل تعتقدين أنك محمية بسبب هذا الشيء الذي بحوزتك. ألهذه الدرجة ألم المحيطين بك هين. هذا اللعين السبب في كل شيء لا يستحق إلا الحرق حينها سنرى كيف ستهزئين مما يحدث في القرية».

ذهب للمطبخ مسرعًا بينما كنت أخطو خلفه خطوات بطيئة كسولة لأفسح له المجال لفعل ما يريد. فحقًا لم أعد أبالي بتحذير هؤلاء الذين أدعوهم إلى النجاة وهم يدعونني إلى الهلاك. وضع الكتاب على الموقد وأشعل النار التي كان استعارها ليس بشيء أمام استعار الجنون البادي في حدقتي عينيه. ظللت أراقب النيران إلى أن هدأت وخبت، وخبا معها غضبه الطارئ وعاد لطبيعته الهادئة كالنسيم.

- «حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم من بطشك فلم يهلك منهم أحد، إلى أن يأتي ابن الهلاك ليحرقني فتزول عنهم حمايتي وتقرب إليهم سطوتي، فالزارع إثمًا يحصد بليةً!».

كنت أتغنى بتلك الكلمات بينما هو ينظر إليّ متعجبًا من هدوئي وأنا أخبره:

- «لقد سطرت نهاية القرية بيدك بحرقك للكتاب. لقد كان هذا التحذير الثاني في الكتاب. ألا تسرق منه شيئًا ولا تمسه النار بتاتًا. القرية ستدمر على بكرة أبيها يا عزيزي ولن ينجو منها أحد، وحتى تلك اللحظة صدق هذا الكتاب في كل ما قرأته، فهنيئًا لك وزر هؤلاء

القوم الذي سيعلق في رقبتك أبد الآبدين!».

لا أعلم هل شاخ مجدي فجأة أم أنني كنت أتوهم، لكن ما أنا على علم به يقينًا هو هذا الفزع الذي ملأ كل خلجة من خلجاته، صوته الذي بح من أثر الصدمة الذي حاول مرارًا إخراجه فكان يفشل فخرجت الكلمات من فمه غير مفهومة بالكاد فهمت كلمتين أو أكثر.

- «لمَ لم تخبريني بهذا التحذير؟».

تركته في تساؤله يتخبط وصعدت لغرفتي مودعة إياه دون إجابته. أثناء صعودي لغرفتي وجدت إخوة مجدي جالسين في الصالة يواسون امرأة ما، بتدقيق النظر في فيها تبين أنها تلك التي ما زالت آثار سلاسل شعرها في أصابعي تلك المكناة سنية. كانت قد فقدت الكثير من الوزن لدرجة أبرزت عظامها، كبرت ضعف عمرها، فقدت الكثير من رونقها وأناقتها، شَعَثَ شعرها. ما إن رأتني حتى ألقت بنفسها أسفل قدمي وهي تصرخ وتبكي منتفضة. كان يبدو للعيان أنها تعاني من صدمة عصبية لصراخها الهستيري.

- «أرجوك أوقفي عقابي. سأتنازل لك عن كل ما أملك لكن أوقفي عقابي!».

أتى مجدي على إثر صراخها فهاله منظرها، أوقفها وأجلسها على أحد الكراسي الموجودة محاولًا تهدئتها لفهم ما يحدث، لكن تصرفه هذا زادها عويلًا لدرجة لم تتحملها طبلة أذني فصحت بقوة ألجمت كل الألسنة وأصمّت كل آذان الموجودين.

- «فلتخرسي وتمالكي نفسك يا سيدة وإياك أن تمسي قدمي

مجددًا بشفتيك الملوثتين هاتين، هذا أولًا. بينما ثانيًا أخبريني ما الذي حدث لتصبحي على حالتك تلك؟».

هزت رأسها بالموافقة، كانت صامتة لكن انتفاض جسدها يفسر مدى التوتر الناتج عن جزعها الذي يملأها.

- «في اليوم الذي حاولت قتلك فيه ذهبت لغرفتي لأستريح عندما استغرقت عيني في النوم وجدت أنني أغرق كنت أعتقد أن هذا مجرد حلم، لكنه كان حقيقة، أحدهم سكب بقوة ماء من إحدى القنوات المائية بما فيه من سمك لدرجة أشعرتني أنني بالفعل أغرق. سقطت من على فراشي من هول الصدمة والرعب محاولة التقاط أنفاسي».

كانت يدها ترتجف بقوة كمن أصيبت بشلل رعاش. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فريدة متعاطفة مع سنية، بل وعيناها أدمعت من جراء حديثها. صمتها كان يدل على خوفها مما ستقصه علينا تاليًا بسبب حركة عينها المتأملة لوقع كلماتها على نفوسنا.

- «أعلم أن ما سأقوله لا يمكن أن تصدقوه لكنني والله بالله لم أكذب بحرف. عندما أشعلت الضوء وجدت جلال، أعلم أنه ميت بالفعل، لكنه كان واقفًا أمامي بشحمه ولحمه ليس كشبح لكن كبشري. كان ممسكًا بدلو وهو يلقي على وجهي بفستان ابنتي التي قد غرقت به. ما إن أزلته كان قد اختفى!».

أعطاها هيثم كوبًا من الماء لتروي به جفاف حلقها ولتكمل ما بدأته فتناولته من يده بسرعة وتجرعته على مرة واحدة ثم أكملت:

- «كان يتكرر هذا الفعل يوميًا. مهما أغلقت الأبواب والنوافذ. مهما أوقفت من رجال شداد غلاظ خارج غرفتي. يأتي جلال ليغرقني ويلقي ثوب ابنتي على وجهي ويضع هيكلًا عظميًا لطفل على فراشي. يوميًا أدفن الهيكل وأحرق الفستان لكن لا فائدة. احترقت أعصابي لم أعد أنام لا ليلًا ولا نهارًا. أرى شبحه في كل وقت وكل مكان، أشاهد خيالات كثيرة لا أعلم هل هو وهم أم حقيقة؟ بالأمس وجدت جدران غرفتي كلها مغطاة بالدم مكتوب به: من قتل يقتل ومن انتهك السبع ينتهك أمنه. يريد أن يقتلني».

سقطت على الأرض من رعبها، لم تستطع أن تكمل قصتها فانهارت من الضغط الواقع على أعصابها انهيارًا تامًا. كانت تزحف على الأرض صوبي تحاول لمس قدمي.

- «أرجوك ارحميني مما أنا فيه، أعيدي جلال لقبره وانفي روحه بعيدًا عن منزلي، سأكون خادمتك المطيعة طوال عمري، لكن أنقذيني من هذا الظلام».

تراجعت للخلف خطوة واحدة لأبتعد عن يدها. مالي أنا ومال جلال وما يفعله، ألا يوجد فيهم أحد رشيد يخبرهم أنه لا علاقة لي بأشباح القرية وبلاويها. أن كل ما يحدث لهم هو ما اكتسبوه بأفعالهم. هذا يترجاني لأعالجه وتلك تتشفع لي لأنقذها من شبح لا أعلم هل هو حقيقة أم محض خيالات لقرية فقدت عقلها ووضعت بدلًا منه النعال منذ زمن.

- «قفي واحفظي ما تبقى لك من كرامتك وارحلي من هنا. أنا لست بدجالة ولا علاقة لي بأعمال سفلية ولست مسيطرة على جان

لألجم لك روحًا تتحرك بينكم، كما أنني لست بطبيبة لأعالج ما طرأ على عقلك من جنون ونقص نتاج ما اقترفته يدك مسبقًا. فلتذهبي للطبيب أو لتتخلصي من نفسك أيهما أقرب لإنهاء ما أنت فيه!».

صدم الجميع من عدم تعاطفي معها أو بالإشفاق على حالتها، لكن كيف لي الإشفاق على قاتلة ابنتها، وعلى من حاولت قتلي، على من تؤلب أهل القرية على وجودي، على من ترغب بالفتك بي في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى ولا يوقفها إلا حاجتها الماسة لي. توقفت عن الشعور الإنساني بمن حولي منذ أن كنت صغيرة بعد فقدان والدي، فكيف سأشعر بشياطين مجسمة على شكل بشر.

اتكأت على معصميها ووقفت وهي تمحو ملامح التذلل ودموعها من فوق وجهها. عندما علمت أنها لا تجدي معي ولجأت إلى الوسيلة الأشهر في التاريخ عند الخوف ألا وهو الهجوم.

- «ساعديني، وإلا سأحيل حياتك لنار تحرق كل من حولك. سأجعل أهل القرية يسحلونك بلا ملابس في كل طرقات المدينة. ويلقون بجثتك للحيوانات الضارية تنهش لحمها دون دفن أو تكريم».

دفعتها فأسقطتها أرضًا اقتربت منها ونظرت لها من شموخي فقط لأعلمها مدى الضعف الذي أصبحت عليه، وضعت باطن قدمي على مقدمة رأسها لأثبتها في الأرض. وتحدثت بصوت رخيم بارد يخلع القلب من مكانه في الصدر ليسقطه في بئر سحيق بلا هوادة.

- «هل حقًا تجرئين على تهديدي وأنت بحالتك تلك؟ كيف تتوعدين لي بتلك الطريقة؟ إن لم تستطع ليل الدفاع عن نفسها

قديمًا، فسالمين لا يمكنك مسّها أبدًا يا حقيرة، بل سينالك عقابها لدرجة ستسلخ جلدك عن لحمه هل سمعتِ؟».

ركلتها بمقدمة جزمتي التي أرتديها وأنا أبصق عليها.

- «هيا اذهبي، هيا.. ولتريني ما الذي تستطيعين فعله أنت وأهل القرية أجمعين. لقد أخبرتني مسبقًا إنك لا تريدين رؤية وجهي ها أنا أردها لك، إن صادفت وجهك بأي مكان ولو دون قصد منك سأجعلك تتمنين الموت ولن تناليه. أفهمتِ؟».

نهضت مسرعة تلملم بقايا خيبتها متوارية عن أنظارنا المتباينة بين غضب، شماتة، حزن، وخوف مما هو قادم. جلست أبكي كثيرًا، مما صدمهم تبدل شخصيتي بتلك السرعة وكان أكثرهم صدمة هو مجدي.

- «ما ذنبي إن اختارني شخص مجنون ميت ليعطيني كتاب لا أفقه فيه شيئًا. ما ذنبي إن رأيت أشياء لم يكن من المفروض رؤيتها. هل يجب أن أظهر ضعفي وعجزي وخوفي لأنال شفقتكم. لمَ الجميع يرى أنني محور الأحداث في حين أن كل ما يحدث لا علاقة لي به، بل يحدث بسبب جلال. هل بسبب خوفكم منه قررتم إلقاء اللوم على الغريب فيكم الذي لا معين له ولا حامي ولا رهط يحمونه من سفك دمائه. أريد الخروج من هذه القرية، مجدي من فضلك أخرجني منها».

اقترب مجدي من مكان تواجدي وجلس في قبالتي مستندًا إلى ركبتيه رافعًا وجهي بين يديه وهو يطمئنني: «أعدك بأني سأخرجك منها لكن ليس الآن حماية لإخوتي. إن علم أهل القرية هروبك منها

دون وجود تفسير لما يحدث فأول من سيلقى عقاب غضبهم هم عائلتي. اتفقنا؟».

- «لن يخرج أحد منها، لن ينجو أحد، هو الدمار للجميع. صدقني هو الدمار في يوم لن ينفع فيه مال ولا بنون».

تراجعت للخلف من بين لمساته الحانية ظاهريًا القابضة كالفولاذ على تذكرة نجاته هو ومن يسأل عن رعيتهم من وجهة نظره. انزويت في ركن قصي يداريه طرف فراشي بعيدًا عن أعين الجميع أحاول أن أتذكر ما كتب في هذا الكتاب خلافًا لنصوص دانتي. حاولت مرارًا ومرارًا وكلما قبضت على ذكرى انسلت هاربة من تلافيف عقلي. ظللت هكذا حتى غفوت وأنا ضامة قدمي إلى صدري دافسة وجهي بينهما مسندة ظهري إلى الحائط الذي كان أحن من كل البشر طوال عمري.

***

استيقظت من نومي كل عظامي تصرخ ألمًا جراء رقدتي تلك. صداع يكاد يفتك برأسي جزاء لإرهاقه بالتفكير طوال الليل، عيون تجري فيهما أنهار حمراء نتيجة بكاء هو ابن توتري منذ حضوري للقرية. لكن مهلًا هناك شيء ما خاطئ، هناك هدوء يغلف الأجواء، ليست هناك حركة دؤوبة في المنزل كما اعتدت سماعها دومًا، ليس هناك صوت همسات وهمهمات كانت تصلني رغم أن باب غرفتي موصد. هل أستبشر خيرًا بأن يكون الجميع قد فنوا، اختفوا في العدم. رحلوا من القرية كقوم تعلموا من أخطاء السابقين فقرروا أن يكونوا كالجرذان تهرب من السفينة قبل غرقها.

فتحت باب الغرفة متوجسة خيفة أنظر في الأرجاء، لكن لا أحد حقًا. ناديت كثيرًا وكثيرًا لكن لا مجيب لهاتفي. هل حقًا هربوا؟ هل أصبحت القرية بأكملها ملكًا لي؟ لكن قبل بناء قصور من الرمال لا بد من التأكد من ظنوني، لا بد من اليقين قبل إعلاني ملكة متوجة على عرش قرية لا يسير فيها إلا الأموات.

سرت في القرية لأكثر من نصف ساعة لكن لا أحد، الطرقات خالية حتى من الحيوانات، لقد تذكرت لقد فنيت الحيوانات بأكملها. البيوت متروكة بأبواب مفتوحة على مصراعيها، تفوح منها رائحة طعام على الموقد لكن لا أحد. هل تبخروا حقًا؟ أم نزل عليهم عقاب السماء فأصبحوا ذرى نثرته الرياح هباء. كانت السعادة على عتبات قلبي أخيرًا لولا أن وجدت أهل القرية متجمعين في حلقة كبيرة حول منزل أحدهم وهناك عواء لرجل يمسكه آخرون محاولين منعه من فعل شيء ما حماية له. صوت أهل القرية الناطق بكلمة واحدة هي «احرقُوهم، احرقُوهم» كان يمنع من معرفة ما يحدث.

تسللت للخلف عائدة لمنزل مجدي راجية طوال طريقي ألا أصادف أحدًا. هذا التجمع لا ينبئ إلا بسوء. كنت أقطع الصالة جيئة وذهابًا طوال فترة غياب أهل هذا البيت الخرب قلقًا أن يستغل أحد هذا الموقف ويأتي للقصاص من جرم لم أرتكبه، كان فضولي يغلبني في بعض لحظات فأقرر العودة لهذا التجمع ثانية لمعرفة السبب، لكن يوقفني عقلي في اللحظات الأخيرة وأتذكر أن تواجدي في تلك اللحظة بالذات وسط هذا التجمع يعني شهادة وفاة لن يستطيع أحد منع تسجيلها أبدًا. فأعود إلى ما كنت عليه من حركة تشبه بندول الساعة.

أكثر من ثلاث ساعات تورمت فيهم قدماي من الحركة، وجدت بعدهم عائلة مجدي حضروا ويعلو وجوههم اسوداد نتيجة حريق شيء ما. كانوا مطأطئين الرأس خجلًا من فعلة نكراء اشتركوا فيها رغبة في النجاة ورهبة من منجل الموت الذي يطوف فوق رؤوسهم ينتظر حصادها. جلسوا كأنهم أقاموا العزاء ونصبوا صوانه دون معزين يبكون فقيدًا قتلوه قبل قليل.

تركتهم إلى أن أفرغوا ما بداخلهم من شحنات مكبوتة. كنت أحضرت لهم مشروب أعشابي من اللافندر والبابونج ليهدئ أعصابهم قليلًا، بعد أن تناولوه سألتهم ما الذي حدث ليكونوا بتلك الحالة الجسدية والنفسية، ما إن سمعت فريدة السؤال حتى هرولت باكية لغرفتها تاركة لإخوتها مهمة إفهامي كل شيء. قبل هيثم المهمة وبدأ في الحديث:

- «لقد ظهرت حالات أخرى مصابة بنفس مرض مراد الله يرحمه».

صدمت من الكلمة، هل توفي مراد أين ومتى؟ لكنني لم أظهر تعجبي ليكمل هيثم الخبر:

- «تخوف الناس خصوصًا أننا بقرية صغيرة لا يبقى فيها شيء سرًا لذلك علم الناس بحديثك عن المرض والعدوى والموت المحقق نتيجة هذا المرض. كما علموا..».

لم يستطع تكملة الكلام خنقته غصة جعلته يبتلع بقية كلامه وينظر أسفل قدميه قليلًا، ثم بدأ في البكاء ثانية. نظر له أنور فعلم أن هيثم لن يكمل إخباري لما حدث فأكمل هو:

- «علم أهل القرية ما قلتِه من حرقه هو ومنزله وكل من أصابه المرض. رفضوا في البداية تمامًا على أمل أن ينجو من هذا المرض، لكن ما إن زاد مرضه وتقيحه ورائحته النتنة، حتى انقسموا فريقين أحدهما نادى باعتزالهم له تمامًا والآخر رجح فكرة حرقه».

اللعنة هل صدقوا حديثي حقًا، هل قاموا بحرقه فعلًا، لم تعد تحتمل أعصابي، أريد أن أعرف تتمة القصة فأكمل أنور دون أن أطلب منه:

- «لكن مع ظهور إصابات جديدة كان يقل جانب الاعتزال وترجح كفة الحرق، إلى أن زاد عدد الإصابات اليوم لأكثر من عشر إصابات، فشلّ الخوف الجميع وزادهم كلامك رعبًا لذلك قرروا تجميع كل المصابين في منزل مراد وإشعال النار في المنزل وهم بداخله. وهذا ما حدث في الليل حتى نهاية اليوم. ولم نرجع إلا بعد أن خمدت النيران ودفنّا الرفاة الباقية منهم».

وضعت يدي على فمي من الصدمة التي عقدت لساني فلم أجد كلامًا مناسبًا لمثل هذا الموقف. علمت سبب صمت مجدي ففي أول الأمر وآخره هذا كان صديقه يومًا ما. علمت سبب بكاء هيثم ورعبه من الحديث عن الأمر فمن قتلوهم كانوا بينهم بالأمس تربطهم علاقات جيرة وصداقة وقرابة إن لم يجتمع الثلاثة معًا. علمت أن مكروا مكرًا، ولكن ساء مكرهم وسيحيق بهم ما كانوا يفعلون. كان هيثم يبكي وهو ينظر ليديه:

- «لم أستطع أن أنسى وجه الدكتور والد مراد، وصراخه وأنا أمنعه من الذهاب لإنقاذ ولده من وسط النيران. تلوى جسده بين

أحضاني للخلاص من إطباق ذراعي عليه لإبعاده عن لفح وسخونة النار. لم يسامحني أبدًا ولن يسامح أحدًا، لن يمحى من ذاكرتي كيف كنا نسوق المرضى من وراء حجاب دافعين إياهم بعصيان طويلة خوفًا من لمسهم دونما اعتبار لوهنهم وانكفائهم المستمر على الطرقات. لن أنسى أصواتهم المترجية بأن نلقي بهم في العراء أهون من إحراقهم، أو أن نقتلهم قبل إحراقهم رحمة بهم، لكن لم يتطوع أحد للتخلص منهم خوفًا من العدوى. لن يذهب عن أذني صراخهم وسط النيران لم أسمع أبشع من هذا في حياتي قط. أتساءل هل ما فعلناه هو الصواب، أم جرم لن يغتفر؟».

صدرت مني شهقة معترضة على ما سمعته معقبة بتساؤل:

- « أين الشرطة والحكومة من كل هذا؟».

لتصدر ضحكة استهزائية من مجدي مجيبًا:

- «هذه القرية ليس بها أي خدمات، القرية تخدم نفسها بنفسها. هي طي النسيان والتناسي والتغافل. لم تحظَ باهتمام إلا لبضعة أشهر عندما تحدث عنها الإعلام كقرية نموذجية وظل الوضع لشهور إلى أن هدأ وعاد كما كان، فهذا الوضع يريح جميع الأطراف».

اللعنة كل اللعنة عليهم، هل أحرقوهم أحياء! أين عقلاء تلك القرية، أين الراحمون فيها؟ كيف سولت لهم أنفسهم فعل ذلك؟ إنه الموت، تلك اللحظات الفارقة المبنية على الخوف المطلق من ضياع الأنا ومحوها من بين الناس هي التي تتحكم في تصرفات البشر، فتظهر أنانيتهم المفرطة وبشاعتهم التامة وإيثارهم لنفسهم على كل ما دون ذلك. إنه الموت ذلك الشبح الذي يخيم على النفوس فيغرقها

في ظلام الجهل والأبلسة فيكون للشيطان أقرب منه للملائكية. إنه الموت كلمة الفصل في كل ما يخص الإنسان وخامته فمن كان فحمًا سعر به الجحيم، ومن كان حجرًا كريمًا زينت به أبواب النعيم. هذا إن وجدوا من الأساس.

نهضت من مجلسهم وذهبت لبقعتي المقدسة على جبل من القش خلف منزلهم كان يزينه نور القمر الذي أضحى بدرًا، لقد مر شهر على تواجدي في هذه القرية. تذكرت بعض الكلمات التي كانت في الكتاب، لا أعلم هل بسبب ما حدث أم أن حقًا القمر وأطواره يؤثرون على صحة الإنسان العقلية والنفسية. لا أتذكر النص بحذافيره لكن أتذكر بعض الكلمات مثل «مثل شاه سيقت إلى الذبح» وأيضًا «لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم» وكانت مختتمة بجملة «سيغشيهم دخان يخرج من أخاديد الأرض ومسامها».

- «لا تقلقي سأظل معك حتى النهاية».

لم يكن صوت مجدي لذا نظرت خلفي لأجده والد مجدي مكملًا:

- «لا تخافي، لن يؤذيك أحد، الأموات لا يؤذون أحدًا، بل الشر كله يكمن في الأحياء، قادرون على التفوق على الجان في إرعاب الطيبين بتصرفاتهم. بينما نحن سنحميك».

لم أتحرك قيد أنملة ليس ثباتًا، بل خوف شلّ كل أوصالي، لا أعلم لما هذه المرة لم أتقبل تواجد الهلاميين، بل صرت أرتعب منه، لم أقوَ على التفوه بحرف صارفة عقلي عن التدقيق باتجاه ما خلف والد مجدي الذي استدرك ما كان يحيكه:

- «أبنائي كبيرتهم هي قتل أبيهم بسبب الجشع. كانوا يريدون المال، الميراث، أي نعم ليس لسبب المال في حد ذاته، بل بما سيكتسبونه من خلف المال ذاته. أنور للزواج ولبناء عائلة، فريدة لكي تعود إلى زوجها وتسيطر عليه وتجبره على حبها له، بينما مجدي أحب المال لأجل المال، لمصلحته ولا شيء إلا مصلحته، ورث الجشع والطمع والأنانية لا أعلم مِن مَن. هل تعلمين كانوا دومًا يتعللون أن السبب في تصرفهم كان لحقارتي ولبخلي معهم في مشاعري ومالي في مراحلهم العمرية المختلفة، لقد كنت صعلوكًا لا أمتلك ما أستر به عورتي، وبين ليلة وضحاها عندما تزوجت من سيدة أعيان البلد أصبحت من المنعمين بعد أن كنت من المحرومين، كان كل خوفي أن أعود أنا وهم مرة أخرى للفقر إن نفد المال، كنت أخاف أن تنتهي تلال مالي في يوم ما، تعلمين يا ابنتي أن كثرة الأخذ منها سيجعلها تختل في النهاية. فقطرت المال على جميع من حولي حتى أبنائي لذلك استعجلوا موتي».

تنهد لدرجة كان على وشك إخراج رئتيه من جوفه وهو يكمل:

- «كنت أعلم أن أبنائي سيتخلصون مني في يوم ما بسبب تهديدات هيثم المستمرة لي بعد وفاة زوجتي وعلمهم بكتابة عزيزتي لكل ما تملك لي، كنت أعلم ما يضمره أبنائي لي، وكنت على يقين بأنهم إن تحصلوا على المال سيهلكونه إنفاقًا، لذلك قمت بإخفاء صكوك الملكية مع الشيخ حسن حتى وإن مت تظل الأموال محفوظة ولا يستهلكها أبنائي جميعها في حياتهم، كنت يريد أن أؤدبهم بعد موتي وأحيطهم بمكرهم فلا يستطيعون التصرف في الميراث والممتلكات رغم أنها صارت في حوزتهم حتى يعقلوا

ويعلموا أهميتها».

كان يبكي بحرقة شديدة دون دموع، كان بكاؤه بصوته فقط الذي أكمل به:

- «هل تعلمين ماذا فعلوا؟ ذهبوا للشيخ حسن أخبروه برغبتهم في التخلص مني لاستيلائي على ميراثهم ولحرمانهم من أبسط حقوقهم المعيشية. هل تصدقين هذا؟ قطعوا له وعدًا إنهم سيتبرعون بمبلغ كبير جدًا يتمثل في ربع ما سيتحصلون عليه للقرية. هذا يا بنيتي ما كنت أحميهم منه. هم لا يبالون بالمال ولن يشعروا بضرورته إلا عندما يصبحون فقراء. حتى لا أطيل عليك الحديث لقد خطط حسن لكل شيء بحرفية شديدة أحضر لهم التيفرانيل من مراد الواقف خلفي. كما كان يحضر دومًا كل انواع المخدر والعلاج منه. ووضع فلذات أكبادي التيفرانيل لي بكميات كبيرة جدًا لأصاب بأزمة قلبية. اشترط عليهم حسن أن يكون موتي هو يوم إلقائه لخطبته وذلك لأن أهالي القرية بأكملهم يكونون مجتمعين في ساحة الدرس يتغزلون في حديثه وفي صوته. وبذلك سيكون الطريق خاليًا لا أحد يراقبهم. بالفعل وضعوا العلاج بشرابي وتوفيت في بيتي على سريري. قام أنور بإلباسي وتطييبي ثم حملي على أكتافه وألقاني في منتصف الشارع الفارغ من المارة ولم يشهد على فعلتهم إلا الشجر والكلاب الضالة. ليقنعوا الجميع أن والدهم قد أتته أزمة قلبية وهو ذاهب لحضور درس الشيخ حسن، ويا له من رجل صالح. لم يكن بحسبان الجميع أن هيثم قرر الانتقام بطريقته الخاصة فوضع أقراص الفياجرا بين طيات ملابسي ليشوه سمعتي بين الناس، فلماذا يحمل رجل زوجته ميته هذه الأقراص بالذات إلا

إذا كان يمارس الزنا بعيدًا أن أعين الجميع. لذلك غضب حسن منهم كثيرًا وكان عقابهم أن يبنوا الحديقة العملاقة في قلب القرية ولا يهمه من أين سيتحصلون على المال. بناء الحديقة قضى على كل أموالهم السائلة التي وجدوها في خزانتي. كان لا تهمهم تلك الأموال السائلة التي كانت نقطة في بحر ممتلكاتي في الحقيقة، لذلك استهلكوها بأكملها لرضاء حسن. هل رأيت جحودًا مثل جحود أبنائي لي؟ هذا ما حدث».

ما بال هؤلاء القوم، هل كانوا عميانًا عن عصيانهم وذنوبهم، إن كان موتاهم بهذا الفحش فكيف حال أحيائهم. هل يعي هذا الخرف قبح ذنبه وما فعله بأبنائه؟ من هو ليتحكم بحياتهم حتى بعد مماته؟ هل وصل جشعه لدرجة محبته للمال حتى بعد تلاشيه من عالم المادة. بئس الأب وبئس الأبناء وبئس ما كانوا يفعلون. عدت لواقعي مجددًا وهذا المشهد الذي حاولت مرارًا الانشغال عنه لكن كان الفشل هو المحصلة النهائية. كان جلال ومعه كل من ماتوا يقطر جلدهم من على وجوههم المسلوخة حرقًا، ليس لهم عيون، بل محاجر فارغة، تختلط رائحتهم النتنة برائحة شواء تزكم الأنوف، أغشيت عيني بطرف ملابسي وأنا أرتجف رعبًا لأجد صوت مراد يأتي من جواري بعد أن كان أمامي:

- «لأكمل لك الجزء الناقص من حديثه. كيف صنفت الوفاة طبيعية ولم يكتشف أحد ما أجبر على تناوله غفلة، لقد كان والدي الطبيب الشرعي بالقرية. لذا كانت كل حالات الوفاة في القرية تكتب تحت مسمى واحد الوفاة طبيعية ولا شبهة جنائية ويدفن الميت ومعه كل الشبهات والظروف المشبوهة المحيطة بموته ما دام قبض

المقابل! كان يريد ترك ثروة هائلة لابنه الوحيد الذي هو أنا حتى لا يجعلني أحتاج إلى أحد من بعده، لم يفكر إلا في حقوقه في الحياة الكريمة له ولعائلته ولم يفكر في حقوق كل ميت أن يأخذ قصاصه ويكرم بالقبض على قاتله، حتى وإن كان ظالمًا متجبرًا مثل والد فريدة. هل تعلمين! الغريب حقًا أنك لم تعلمي من المخطئ هنا هل هو الأب الذي حرم أبناءه وبخل عليهم بمشاعره قبل ماله أم على الأبناء وجحودهم الذي قتل أباهم بثمن بخس؟ هو ضنى عليهم ببرهم في صغرهم فهم أنكروا برّه في كبرهم. هل الخطأ على والدي الذي عوقب بحرمانه مني بطريقة شنيعة ولم يستطع القصاص مما حدث لي في قرية لا يوجد بها أي مظهر حكومي يدل على تواجدها في خريطة تلك البلد فأصبحت مرتعًا للضواري البشرية، أم الخطأ على من أعمى شرهه عينيه وأصبح يقوده كالبهيمة التي لا تبالي إلا بمكان تواجد معلفها؟».

لم أكن أستمع لما يقول فلقد سقطت على ظهري من الرعب وكنت أزحف على يدي ومجدي الذي أتى على صوت صرختي متعجب من رعبي ويحاول الوصول إليّ، لكنّ هناك يدًا أخرى امتدت قبله كانت يد والده التي أمسكت الفراغ بدلًا من ملابسي وهو يقول متلاشيًا:

- «لقد شوهوا صورتي. وزوروا موتي، لكنني أسامحهم فهم أبنائي. لو كان الأمر بيدي لمنعت عنهم كل الأذى لكن إنه حكم العدالة ولا بد أن ينفذا».

كان مجدي قد وصل إليّ فأخذني بين أحضانه وأنا أرتجف وأخبره أن يبعدهم عني وهو متعجب لأن لا أحد من الأساس، فقط أنا وهو

قد انضم إليّ مؤخرًا. كان يمسد شعري:

- «لا تخافي. ليس هناك أحد غيرنا. لن يؤذيك أحد، أنا معك الآن».

كنت أشير باتجاه المُهلَكين:

- «لقد رأيتهم، كل من ماتوا اليوم وماتوا سابقًا. ككتيبة إعدام أتت لتنفذ حكمًا قضائيًا صدر في حق الجميع، وقد صدق عليه مفتي الديار. رأيتهم بمناظرهم بعد موتهم، فهل من زوال لما رأيته؟ لقد كان والدك معهم».

أبعدني عنه قليلًا ليستطيع النظر إلى وجهي وهو يتساءل: «والدي؟».

- «نعم. كان يتحدث عن العدالة وتزييف موته وكيفية مماته».

قصصت له كل ما سمعته منهم أجمعين. لم ينطق بشيء، بل لم تصدر منه أي حركة من الأساس. فقط عينه التي كانت تحاول الغوص في أعماقي لمعرفة ما الذي يحدث، لكنه قابل عينًا معتمة لا تظهر أبدًا ما خلفها، أو لأنه ليس هناك شيء خلفها. ظل ممسكًا بكتفي بقوة لدقائق لدرجة آلمتني لم يخرجه من شروده إلا حركة مضطربة في منزله وأصوات أنين متداخلة فذهبنا مسرعين خلف بعضنا نتعثر في كل ما هو أمامنا غير آبهين بالجروح الذي زينت مناطق عديدة في جسدينا.

بداية اقتحمنا غرفة فريدة لأنها كانت الأقرب في طريق دخولنا، وجدناها ملقاة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة، بجوارها بركة من الدماء بها قطع متفرقة من أمعائها الداخلية. كانت متقلصة على

ذاتها يبدو مقدار الألم الذي لا يمكن أن يتحمله إنسان على تضاؤل عضلات وجهها مع اتساع حدقتي عينيها على مصراعيهما. كانت تتلوى كثعبان ممدد على الأرض.

تجمد مجدي ما إن رأى أخته بتلك الحالة بينما أنا أخذت رأسها على فخذي أحاول تهوين الألم عنها وهي تنظر إلينا بعيون دامعة دمًا من كثرة احمرارها. أمسكت ملابسي بقوة وشفتاها ترتجفان هامسة بكلمة واحدة لم أستطع سماعها. لذلك قربت أذني من فمها:

- «جلال، جلال، جلال».

ثم سكنت كل حركاتها دفعة واحدة. خبت بريق عينيها رغم بقائهما على الاتساع ذاته، هدأت حركة يدها رغم أنها ما زالت قابضة على ملابسي. استوى جسدها بالأرض رغم أن هناك بركة دماء بجوارها تخبر الجميع ما مرت به. نظرت لمجدي غير مصدقة أن الموت قد سحب حياة أحد من عرفتهم يومًا.

- «هل ماتت؟».

لم أكمل سؤالي حتى سمعنا صوت ارتطام شيء بأرضية حجرة هيثم فوضعت رأسها على وسادة وذهبت مسرعة خلف مجدي، الذي كان يحتضن أخاه ليخفف عنه ارتجافة خروج الروح من جسده، يطمئنه أنه سيجد فريدة تنتظره، كان صوته أعلى قليلًا من صوت فريدة وهو يقول:

- «جلال سكب شيئًا في فمي، وبعدها بدأت أتقيأ دمًا وأجزاء من كبدي، يا أخي نار حارقة في جوفي».

كان مجدي يبكي ويلعن جلال وأباه. ويحاول أن يخفف على أخيه ألم رحيله. تشنجات متفرقة أخرج بعدها على ملابس مجدي جزء من جسده الداخلي وكثير من هذا السائل الذي يعتبر شريان الحياة للإنسان، ثم فرض الموت مهابته على المكان فلم يتحرك أحدنا لأكثر من نصف ساعة فقط الدموع المناسبة ولا شيء آخر. مجدي كان يرفض أن يؤمن أنه فقد اثنين من إخوته في دقائق معدودة، فقد دفئهما، محبتهما، الأمان المستسقى من وجودهما. كنت أريد الذهاب للاطمئنان على أنور لكن لم أجرؤ أن أذكر الفكرة أمام مجدي مخافة من أن يكون قد أصابه ما أصابهما فتزيد طامة مجدي.

يبدو أنه قرأ ما يدور في خلدي، رفع أخاه على فراشه، ودثره بغطاء كالنائم. قبّل جبينه بشفتيه المرتجفتين، ثم سحبني من يدي خلفه. أعلم أن حركته تلك يستجدي فيها أن أمده بالشجاعة الكافية لمواجهة ما قد يلاقيه من ويلات كبديل عما كان يجده في إخوته. كان لا يقوى أن يفتح غرفة أنور كلما امتدت يده على مقبضها سحبها مسرعًا كأنه سرى في جسده مس كهربائي.

- «هل تريدني أن أطمئن لك أولًا على أنور».

هز رأسه نافيًا كإجابة على سؤالي دون حديث. أمسك يده اليمنى باليسرى ليجبرها على ما هي مقدمة عليه، فتح الغرفة وصوت اصطكاك أسنانه ببعضها يكسر الفراغ المسيطر على جوها الخانق. ظلام دامس أضاء على إثره مجدي نور الغرفة، لنجد أنور أسفل غطاء فراشه.

تنفس مجدي الصعداء وذهب لإيقاظ أخيه ليشاطره الأحزان التي

أثقلت قلبه فجعلت خفقانه مكسرًا لضلوعه ولصدره معًا.

- «أنور، استيقظ يا أخي أريدك بجواري. أنور».

كان يناديه وهو ذاهب له، لكنه لم يجبه لذلك انحنى ليهزه ويكشف الغطاء عن وجهه ويا ليته لم يفعل. صدرت صرخة مني ثم وضعت كلتا يدي على فمي من هول ما رأيت وأغمضت عيني بسرعة احترامًا لحرمته. كان أنور يعض على الوسادة من الألم. كان عريان تمامًا لا تستر عورته أي قطعة ملابس، عيناه متسعتان من الألم وخبت بريقهما منذ مدة. أسفله وعلى جسده قيء كثير ممزوج بدمائه وقطع من أمعائه كباقي إخوته. كانت يده ممتدة بصوب هاتفه الذي كان ما زال يعمل على فيلم إباحي مكتوم صوته، فأغلقه مجدي مسرعًا مغطيًا أخاه في الوقت ذاته.

جثا مجدي على ركبتيه بجوار فراش أخيه، كان يتهود في جلسته ساندًا ذقنه على كلتا يديه. تصدر منه أنّات بكاء مكتومة تنبئ بأن مصدرها على وشك الانفجار كمدًا.

- «آآآآآه، أنور. يا أخي. ماذا أفعل معك ومع إخوتك أخبرني؟ فأنت من كنت تدبر لنا كل شيء. آآه يا رفيقي لم تركتموني وحيدًا في هذه الدنيا. آآه، يا أنور لو تعلم لقد مات هيثم وفريدة أيضًا. ماتت طفلتك المدللة، قم يا أخي لتأخذ بثأرها معي، قم لتدفنهما معي، حسنًا. قم لتقتلني أو لتأخذني معكم. أنورا».

جسده كان يرتجف بكاء، حديثه مزق قلبي ذهبت واحتضنته من الخلف ليعلم أنه ليس وحيدًا. كنت أحاول تهدئته لكن هل تجوز محاولاتي في هذا الوقت. إن لم تجزع عن فقد الأحبة فمتى

ستجزع! إن لم تهلع عند مصابك الأكبر فمتى ستهلع! إن لم تنهَر عند خسرانك المبين فمتى ستنهار! كان كورقة في مهب ريح لا يحميها من الضياع سوى تمسكي بها في مواجهة العواصف.

جذب انتباهي يد أنور الخارجة من الغطاء المدثر به كان يقبض على شيء ما، اقتربت منه وجذبته منه كانت قطعة قماش منزوعة من ملابس، أريتها لمجدي فنظر لملابس أنور ليجدها سليمة.

- «هل يملك أحد من إخوتك أي ملابس تشبه هذا النوع من القماش؟».

- «لا أعتقد، هل يعقل أن تكون لجلال».

لولا أن الموقف لا يحتمل الضحك لكنت ضحكت على ما تفوه به.

- «وهل ترتدي الأشباح ملابس هذه الأيام. فلنبلغ الشرطة بما حدث».

أخرجت الهاتف المحمول من جيب سروالي، لكنه اختطفه من يدي.

- «ماذا ستخبرينهم؟ هناك شبح قتلهم أجبرهم على شرب سائل ما فماتوا!».

كنت ألوح أمام وجهه بقطعة القماش التي تحصلت عليها من أنور:

- «انظر جيدًا. هذا قماش من كائن حي وليس شبحًا، أيًا كان من فعل هذا لا بد من القبض عليه. أو على الأقل معرفة من كان بغرفة أخيك قبل موته لعله رأى شيئًا يحل كل ما حولنا من ألغاز».

كان على وشك أن يعلو صوته لكنه تذكر أنه ما زال في حرمة الموت جذب يدي خارج غرفة أخيه. وقفنا أمامها متقابلين وقد أخذ قطعة القماش من يدي. وهو يتحدث بصوت غير قابل للنقاش.

- «هل رأيت الحالة التي مات عليها، هل تعرفين لمن هذه القطعة حتى تهاتفي الشرطة. إن أبلغت الشرطة الآن، صباحًا سيعلم أهل القرية بأكملها بعريه وفجره. وإن تغاضت الشرطة عن تلك النقطة هل سيتغاضى أهل القرية عن فضحنا. وما الذي ستخبرينه للشرطة أن جلال قتلهم. هل تعلمين ما رد فعل أهل القرية؟ قد يحرقون منزلنا نحن أيضًا لاعتقادهم أننا أصبنا بمرض معدٍ أخطر مما كان لدى مراد. فهمت!».

- «هل كل ما يشغل بالك هو القرية وأهلها فقط، أين حق إخوتك؟».

أغمض عينيه لبرهة. حاول أن يسيطر على حزنه:

- «أنت لا تعرفين شيئًا، لا تشعرين بثلاث سكاكين مغروزة في جنبي غدرًا، لذا لا تتصرفين كأنك تأبهين بما حدث لهم وأنت لم تتركي فرصة واحدة إلا وهزأت منهم وسخرت من كل ما مروا به. أنت لا تعلمين ما لقيناه في حياتنا، بل الأصح لم تري مثقال ذرة مما عانيناه طوال عمرنا. لا تتصرفين كأنك حزينة عليهم وحتى وإن كنت حزينة فمهما بلغ مقداره لن يكون واحدًا من عشرة من مليون من مليار ما أشعر به! لذلك اصمتي تمامًا ولتكن إجابتك واضحة على سؤال واحد فقط. هل ستساعدينني فيما أنوي فعله أم لا؟».

في أشد لحظات يأس الإنسان هو لا يحتاج للنصيحة، لا يريد أن

يسمع اللوم، لا يهمه مدى خوفك عليه، لا يبالي بالصواب أو الخطأ. كل ما يريده هو أن يطمئن من وجود كتف يستطيع أن يستريح عليها عندما لا تستطيع رقبته تحمل رأسه المثقل بالأحداث. أن يجد يدًا تؤازره وتشد من عضده عندما يسقط وحيدًا في منتصف الطريق. أن يجد هذا الذي يشعل له الضوء ويظل منتظره عندما يقف في الظلام وحيدًا مذعورًا لا يدري أي الطرق يسلك! وهذه كانت حال مجدي في تلك اللحظة.

- «نعم، سأساعدك. لا تقلق».

- «حسنًا فلتقومي بتغسيل فريدة من فضلك وسأغسل أنا هيثم وأنور، لكن عندما تلبسينها الكفن ضعي صورة زوجها بجوار قلبها. ليؤنس وحشتها في القبر، وأنا سأضع صورة أمي مع هيثم فهي منذ مماتها لم يعد لطبيعته أبدًا».

أمسك صورة والدته ووضعها بجوار قلبه وظل يبكي لكبر ما هو مقدم عليه. فقَدَ كل عائلته ولا قريب له يحل محله في هذا الواجب الثقيل على روحه. ظللت بجواره إلى أن استعاد رباطة جأشه وأمرني أن أنتهي من مهمتي فلا وقت لدينا فلا بد من الانتهاء من كل شيء قبل الفجر.

حملت مع مجدي طاولة الطعام المستطيلة لغرفة فريدة، رفعها معي ووضعها على ظهرها على الطاولة. ثم ذهبت معه ودفعت الطاولة الثانية معه ومددنا هيثم على ظهره عليها. لقد لاحظت أن بخروج الروح يكون جسد الإنسان ضعف وزنه مرتين.. ثلاثًا.

أعتقد أن الروح هي الجانب الملائكي الروحاني فينا، وبخروجها

يظل الجسد مثقلًا بذنوبه. فمن كثرت ذنوبه كان كمن ملئ جسده حديدًا لا يمكن تحريكه من ثقله، ومن خفت ذنوبه خف جسده كمن كان محشوًا بريش نعام لا وزن له. لا أعلم هي مجرد أفكار خرافية تأملية لا صحة لها إلا بعقلي الذي لا يفرق أساسًا بين الخير والشر!

كان مجدي كمن ضعف ووهن وشاب في لحظة. لم يستطع حمل دلو الماء من ارتجافة يده. كان يسير منحنيًا لا يستطيع صلب ظهره ليستقيم. لا يفعل شيئًا إلا البكاء ومناداة كل أحبائه بأسمائهم على أمل أن يكون ما يمر به مجرد حلم وسيستفيق منه في أي لحظة.

بينما أنا ذهبت إلى فريدة، جردتها من ملابسها برفق كأنها زجاج سينكسر من لمسي. مسحت أولًا عنها كل ما علق فيها من بقايا قيء كانت هي صانعته في لحظة ما. أحضرت ملاءة نظيفة وغطيت بها جسدها إلى منطقة صدرها لأواري عورتها حتى لا أجرحها بنظراتي في رقدتها الأخيرة. نظفت أسفل أظافرها أولًا، ثم ضغطت على بطنها لأخرج ما فيها من فضلات وقد كان فحملتها على ورقة وألقيتها مع ملابسها في كيس وضعته بجواري. غسلت قبلها ودبرها ونظفت أنفها وفمها وعينيها جيدًا. ثم وضأتها وضوءًا كاملًا، وغسلت رأسها ثلاثًا، ثم بدأت بشقها الأيمن من كتفها إلى أخمص قدمها وعندما انتهيت صببت الماء على شقها الأيسر بالطريقة ذاتها. وعندما أتممت غسلها من الأمام، قلبتها على جنبها الأيمن لأغسل ظهرها، ثم قلبتها على جنبها الأيسر لأغسل باقي جسدها، وعدلتها وصببت على كامل جسدها ماء معطرًا.

كنت قد أكملت غسلها فأحضرت ممسحة لأجفف الأرض من الماء

وغيرت ملاءة سريرها ومسحت ما على الأرض من مخلفات معركتها مع الموت الذي لا ينتصر أحد أمامه في معركة هو الوحيد العالم بقواعدها. أرجعت غرفتها إلى ما كانت عليه وأفضل، فأطلقت بها بعضًا من البخور وقمت بتشغيل القرآن احترامًا لعادات ديانتها. في النهاية أحضرت لها ملابس من خزانتها ألبستها لها، ثم أتيت بملاءة بيضاء ولففت جسدها بأكمله بها مع ربط قدميها ويديها ورأسها ورقبتها بقطع صغيرة كنت قد نزعتها من ملاءة أخرى.

جلست أحدثها إلى أن ينتهي من غسل هيثم. لا أعلم ما سبب تأخره كل هذا الوقت وما زال هناك أنور أيضًا. خائرة القوى مستهلكة الطاقة نمت أسفل الطاولة التي عليها فريدة فاردة أطرافي الأربعة كمن يحلق في الهواء. أتأمل فلسفة الموت والنهاية. لمَ نموت حتى لا تموت الأرض من كثرتنا؟ لمَ نفنى حتى لا تفنى كل الحيوانات في الكون؟ لمَ نُستهلك حتى لا نستهلك كل الموارد المدفونة في باطن الأرض والبحار؟ نحن جزء من الأرض فنعود لنحيا من جديد في صورة غذاء لنبات، أو حيوان. في صورة معادن ظلت محمية لملايين السنين، في صورة وقود تستهلكه الأجيال القادمة. أي أننا لا نفنى حقيقة، بل نعود للطبيعة في مئات الصور والأشكال.

كنت أناديها متوقعة أن تنتزع نفسها من قلب كفنها وتعلن عودتها من جديد لتجيبني:

- «هل حقًا مت، ماذا ترين؟ هل وجدت ما وعدت حقًا، أم خدعت وفقط هي حياتك الدنيا؟ فريدة لمَ لم تجيبي وقد وضعت لك صورة زوجك معك بقبرك. هل تراه سيحزن على موتك أم سيحزن أكثر على

أنه طلقك لذلك لا يحق له أن يرثك! فريدة من المؤكد أنك ترين كل شيء الآن فلتخبريني الحقيقة كاملة».

فتح مجدي الباب وتعجب من رقدتي لكن لم يكن لديه وقت للسؤال:

- «أريدك أن تأتي لتحملي معي أنور لنضعه مكان هيثم، لا تقلقي لقد ألبسته بعض الملابس».

- «حسنًا آتية خلفك».

ودعتها مؤقتًا طابعة قبلة على جبينها، يقال إن تقبيل الميت يجعل ذاكرتك تمحو كل ما مررت به من أحداث. فهل هذا حقيقي أم مجرد عبث وأساطير؟ أردت حقًا أن أختبر قوة هذا الوهم.

ذهبت لرفع أنور مكان هيثم. وقد كان وعندما هممت بالخروج للعودة لمؤانسة فريدة ناداني مجدي:

- «سالمين، من فضلك رتبي غرفة هيثم إلى أن أكفن أنور. أعلم أنك قد تعبتِ لكن لأكون صادقًا ما زال أمامنا الكثير».

بالفعل تعبت ولم أعد أشعر بأطرافي. لكن نظرة مجدي الطالبة لمن ينجده جعلتني أصمت وأذهب بلا تعقيب لأنتهي من غرفة هيثم، وكنت على يقين بأن غرفة أنور أيضًا ستكون من نصيبي. كما فعلت بغرفة فريدة فعلت بغرفة هيثم وأعدت ترتيب كل شيء كما كان. وجدت أسفل وسادته كراسة غلافها أسود تحتوي على أوراق صفراء مسطرة فارغة، تصفحتها لأجد أنها مذكراته، تعجبت من فكرة أن أحد أبناء القرى يكتب ما يجول بخاطره وما يمر بيومه. جلست على

طرف فراشه لأقرأ بعضًا من كلماته لكن مجدي لم يمهلني الوقت لهذا. فلقد حضر ليخبرني أنه انتهى من تطييب أنور. وكما توقعت تمامًا فغرفة أنور وقعت قرعتها في كفالتي.

- «سالمين، هل لك من توضيب غرفة أنور أيضًا، إلى أن أحفر لهم قبورهم».

ذهلت من حديثه هل سيحفر قبورهم بمفرده فعلًا، أين، كيف؟ كلها أسئلة تدور في عقلي وكياني. لكن كان أهمهم حقًا هو أين؟!

- «أين ستحفر تلك القبور يا مجدي دون أن يراك أهل القرية».

- «في الحظيرة هي الأكثر أمنًا في الوقت الحالي. مكان مغلق، أمتلكه، رائحة الروث النتنة ستغطي على رائحة جثثهم لفترة».

يبدو أنه خطط لكل شيء بطريقة مذهلة لا تتناسب بتاتًا مع رهبة الموت التي تشتت العقول. أراه الآن بطريقة مختلفة كان كمثل أهل القرية، ليس مجدي الساذج الذي يقطر حنانًا عند مقابلتي له ورق قلبه لمجرد بكائي، لكنه شخص آخر مجوف صدره لا يسكنه نابض.

- «ماذا إن سألك أهل القرية عن غيابهم؟».

- «سأخبرهم أنهم ذهبوا لإنجاز بعض الأوراق وبعدها أتصنع البحث عنهم مخبرًا إياهم أنهم توفوا في حادث أو ماتوا غرقًا. حتى يأتي هذا الوقت سيكون عقلي أكثر تنظيمًا وأدق تفكيرًا، لكن الآن لندفهم أولًا فإكرام الميت دفنه».

- «إكرام الميت إتيان حقه وليس دفنه!».

بنبرة كهزيم الرعد معلنة نهاية النقاش والفصل في القرار قال: «سالمين! لا مزيد من الحديث إن أردت مساعدتي فلقد أخبرتك ما تفعلين وإلا إرحلي».

أغلقت فمي على ما كان على طرف لساني من حديث مبتلعة إياه مع ما تبقى من كرامتي وغمغمت: «لو قلتها مسبقًا لكنت رحلت، أبقيتني للحفاظ على عائلتك لكن عندما رحلوا لم تعد ترغب بوجودي. لكن لن أستطيع تركك فيما أنت فيه. سأذهب إلى غرفتي إلى أن تجهز لهم رقدتهم الأخيرة».

رحل ووضعت المذكرة بين طيات ملابسي حتى أزيل كل ما يدل على رحيل الجميع في هذا المنزل. إن أراد أن أصنع دمى مشابهة لهم لأضعهم في المنزل ليؤنسوه لفعلت! ذهبت لغرفة أنور وأثناء مسحي لأرض الغرفة وجدت ظلًا يقف خلفي التفت لأجد جلال مبتسمًا، نظرت له في غل دون خوف، فقد زال الرعب عني بعد كل ما مررت به في هذه القرية التي أصبح الغابرون فيها ورؤيتهم مجرد مزحة لطيفة أسلي بها يومي، قائلة له:

- «إن رآك مجدي لفتك بك جراء ما فعلته بإخوته!».

أجاب مستهزئًا من حديثي:

- «أنا لم أفعل شيئًا حقًا. كما أنه كيف سيفتك بميت؟!».

أدرت وجهي عنه لأنجز ما أتيت لأجله من الأساس، فأكمل متسائلًا:

- «هل ترغبين بمساعدة، لا أطيق رؤيتك وأنت منهكة بهذه

الطريقة».

- «لمَ؟ هل شغفت بي حبًا معلًا!».

تلا ذلك ضحكة قصيرة مقتضبة من قبلي. جلست لبرهة متفكرة في عرضه هذا إن كان حقًا يستطيع المساعدة فلم لا. على الفور لبيت طلبه مخبرة إياه بما يجب أن يفعله:

- «ساعدني في نقل تلك الجثث لأسفل الحظيرة إن كنت تستطيع، فمجدي سيجعلني أنزلها معه وأنا جسدي لن يطاوعني في فعل هذا».

قلتها متشككة في مقدرته لجسده النحيل الذي قد يكسر إن اقتربت منه. لم أكن أتوقع ما فعله حقيقة فلقد حمل فريدة على كتفه وأنزلها للحظيرة. كنت أتعجب كيف لشيء غير ملموس مجرد دخان يتشكل على هيئة مادية أن يلمس ويحمل شيئًا حيًا، لكن عندما عاد هالني أن يكون قد صادف مجدي وأن يكون قد طاله أذى لذلك سألته:

- «هل صادفت مجدي، هل لمحك؟ أجبني».

هز رأسه نافيًا:

- «لا إنه في الأعماق يحفر الأرض ويخفيها ليواري سوءة إخوته أجمعين».

استدرك وهو يحمل هيثم على كتفه:

- «اتركيني الآن أنزل هيثم وعندما أصعد سننزل أنور سويًا،

ستكونين بالفعل قد أنجزت ما كلفت به من مجدي».

عندما أنزلنا أنور وضعه بجوار إخوته واختفى، كان مجدي هو الآخر انتهى من حفر حفرتين إحداهما أكبر من الأخرى، ضعفها في الحجم تقريبًا أو أكبر قليلًا. عندما أخرج رأسه من حافة الحفرة كان يغطيه التراب والروث. ذهل من وقوفي أمامه وأنا أشير له إلى جثث إخوته فارتعب عندما وجدهم ممدين بجوار حائط الحظيرة.

- «من أين لك بهذه القوة لتحمليهم بمفردك كل هذه المسافة؟ من أنت حقًا؟».

أجبته لأزيل اللبس الذي حدث وحتى أنفي عن جسدي أن ما زال به بعض الطاقة خوفًا من تكليفه لي بمهام إضافية:

- «لم أفعل طبعًا، بل أحضرهم جلال إلى هنا. أراد مساعدتك».

لا أعلم كيف أصبح ممسكًا بيدي بقوة في لحظة يهزني بعنف:

- «هل رأيتِه، كيف لم تقبضي عليه أو تناديني لأفعل، كيف سمحت له أن يمسهم؟».

دفعته عني فأنا لا أحتمل التهديد والإهانة والتعنيف. بعد كل ما فعلته لأجله يلومني لعدم قبضي على شبح صحت في وجهه:

- «أخبرني كيف سأقبض على ميت، بل كيف ستنتقم أنت من فراغ؟». أكملت حديثي مشيرة لإخوته: «جميعهم أصبحوا أمواتًا فما الذي سيضيرهم إن لمسهم أم لا، هل يضر الشاه سلخها بعد ذبحها، ما يهم الآن حقًا هو إلقاؤهم في تلك الحفر ثم ردمها. فلقد اقترب الصباح على الانبلاج».

يبدو أنه لم يدرك أنه هو من سيقوم بدفن إخوته، أو أن الحديث يختلف عن التنفيذ. ناظرًا لي مرتجًا جسده يرجوني بنظراته أن أحل محله في طامته تلك.

- «لن أستطيع يا مجدي. أقسم لك لن أستطيع».

جملة واحدة فقط أخرجتها منهية بها أمنياته ورجاءه. اضطرب بدنه كمن تلبسه جان، اقترب من جثة أنور أولًا لم يستطع حملها كمن قصم ظهره فجأة فقام بجره على الأرض. الجثة يبدو أنها تحولت لصخر لم تتعتع من مكانها سقط بجوارها من كثرة محاولاته منتحبًا بصوت يذيب الحجر، قررت مساعدته في النهاية رغم نفاد قوتي تمامًا شفقة عليه لا أكثر، لكن كما يقال يُحيي العظام وهي رميم.

انحنيت أمامه وأمسكت قدمي أنور أدفعهما للأمام ومن دون اتفاق مسبق بيننا قام مجدي فأمسك رأس أنور وبدأ في جره على الأرض إلى أن ألقيناه في الحفرة وأتبعناه بهيثم في الحفرة ذاتها، ثم وضعنا فريدة في الأخرى وبدأ مجدي في ردم ما قام بنبشه منذ ساعتين مضتا.

يقال إن البناء يأخذ أضعاف وقت الهدم والتخريب، لكن في الموت كل شيء معكوس فنبش القبر يأخذ وقتًا أكثر بكثير من إعادته لحالته الأولى، فلقد تمت تسوية الأرض في أقل من نصف الوقت الذي استهلكه مجدي أولًا. ما إن أتم مهمته على أكمل وجه سقط على ركبتيه يروي التراب بدموعه لعل جثث إخوته يعيد إنباتها في زرع يحصده قريبًا ليسكن إليهم في النهاية. لم يخرجنا من عظمة الموقف وشناعته إلا شيء غريب كان ينساب بين أقدامنا.

بحار من دخان أسود كانت تغطي أقدامنا إلى فوق العكب بقليل. كيف لم ننتبه له منذ البداية، هل كان على عقولنا الغمام أم أنه خرج من اللامكان حرفيًا. حاولت إمساكه مرارًا لأتأكد من كُنهه دخان أسود كثيف يترك أثرًا كريشة مطموسة في لون فحمي أسود يلون بها صفحات مختلف ألوانها فيترك لونه على كل ما يلمسه. كان باردًا يلسع جسدك بلسعات خفيفة تقشعر بدنك.

عاونت مجدي على النهوض وكفكفت له دمعه ناثرة ما تراكم على وجهه وملابسه من أوساخ. كان الصبح قد تنفس والناس قد ملأت الشوارع متعجبة مما يعلو أرض قريتها. غمغمت بصوت بالكاد سمعته أذني «إنها النهاية». يبدو أن كثيرين كانوا متفقين معي في الرأي لأن هناك من كان يصرخ في الطرقات.

- «الدخان، يا أهالي البلد رجس أعمالنا، إحراقنا للمرضى بدل من مداواتهم كانت قشة النهاية. ستنشق السماء ويهلكنا الله كسدوم وعمورة في لحظات. إنه دخان القيامة يا قوم استقيموا إن كان لاستقامتكم قبول».

تجمع الكثير حوله لإسكاته بالحسنى في البداية مراعاة لما كان بينهم من ود في السابق، لكنه لم يستجب لمحاولاتهم المتعددة لإثنائه عما ينطق به بدؤوا في التحرش به بلكزه في أول الأمر الذي انتهى بضربه إلى أن صمت تمامًا. حاولت الذهاب للدفاع عنه لكن أعادني مجدي لداخل المنزل بسرعة.

- «لا تخرجي من هذا الباب بتاتًا. لا يجب أن يراك أحد فهم كالوحوش المسعورة بعيون متربصة لصب جام غضبهم وخوفهم

على أي شخص أو شيء. وأنت الشخص الأمثل أمامهم في تلك اللحظة. أبدًا لا تقدمي لهم هذه الفرصة على طبق من ذهب مزركش بالزمرد».

رغم غضبي من حديثه لكن كل حرف منه كان يقطر صدقًا، خوفًا على كل من تبقى له ويحق في موقفه معه. جلست على كرسي كان قابعًا دومًا بجوار باب المنزل لكن تلك هي المرة الأولى التي ألاحظه فيها. لم أترك كف مجدي، بل أسندت رأسي عليه.

- «إلى متى سأظل في هذه الدوامة. أريد الخروج منها لم أعد أحتمل المزيد. هيا بنا نترك هذه القرية يا مجدي، نتركها قبل أن تدك جوانبها فوق رؤوسنا. وتطبق على أنفاسنا إلى أن نلفظها ألمًا وقهرًا. لمن تنتظر هنا وقد تركك كل الأحبة ورحلوا فلمَ لا نرحل نحن أيضًا؟ مجدي هذه القرية حسم أمرها وسيأتيها أمرها ليلًا فستكون حصيدًا خامدة. فلنترك كل شيء خلفنا وننسى كل ما عانيناه من قبل».

برك على الأرض أمامي اقترب بناصيته مسندًا إياها على خاصتي واضعًا يده خلف رأسي وهو يخبرني بصوت تشوبه الكسرة والانهزام.

- «غدًا سنحزم أمتعتنا ونرحل لا تقلقي، صدقتِ، كل ما كنت أخاف عليه خسرته، لنرحل إن كتب الله لهذه القرية النجاة أعود وأبيع ما أملك وأرجع لك مرة أخرى، لكن إن صدق الكتاب حينها سأكون قد كسبت نفسي وكسبتك. لنرتاح الآن فأمامنا الكثير غدًا».

وذهب كل منا إلى غرفته رغم أن شمس اليوم أمامها بعض ساعات لتختفي في الأفق، لكن شمس أرواحنا قد غربت مع غروب

إخوة مجدي عن الطليعة وكان لا بد من أن تغفو أبداننا لاسترجاع صلابتها.

***

انزوت ليل في ركن قصي في قبو عطن ترتجف خوفًا يحاصرها غول كاسر مكشرًا عن أنيابه لافتراسها، تحاول الخلاص منه بإطلاق ساقيها للريح لكن هيهات فقصر ساقيها جعلها تبدو كالحابية أمام خطواته الواسعة. أمسكها بكلتا يديه ورفعها لأعلى فاتحًا فمه على مصراعيه ليسقطها داخله ليقضمها في قضمة واحدة كمقبّل يفتح شهيته قبل الوجبة الرئيسة. امتدت يد واختطفتها قبل أن تسقط بداخل هذا الشيء فأنقذتها، لقد كان جلال كان يحملها ويحاول الهروب بها وخلفها خطوات الغول ترج المكان بأكمله. كنت أقف أمام جلال في طريق هروبه لذا قام بلكزي في كتفي لأبتعد عنه فسقطت أرضًا وكانت قدم الغول على وشك دهسي.

- «جلال، لما لكزتني في كتفي، أنقذني أرجوك».

- «استفيقي سالمين، أنا مجدي وليس جلال! استيقظي فهناك كارثة حدثت».

لقد كان حلمًا جعلني أتصبب عرقًا، حمدت مجدي أنه أيقظني من أضغاث أحلامي. جلست لدقائق لأجمع ما الذي يحدث وأن ما رأيته مجرد حلم وليس حقيقة. رغم أن الاثنين يختلطان معًا في كثير من الأحيان.

- «هل كنت تحلمين بجلال، ما الذي أخبرك به قد يكون مفتاحًا لما

نحن فيه الآن؟».

هززت رأسي لأنفض الغفوة التي تعلوه تمامًا وليعمل بكامل طاقته لأفهم من مجدي ما حدث.

- «بل مجرد كابوس لا معنى له، ما الكارثة التي أيقظتني لأجلها، هل هناك كارثة أكبر مما رأيناه؟».

أشار ناحية شرفة غرفتي واضعًا سبابته على فمه وهو يقول:

- «أنصتي لثوانٍ فقط».

أرهفت السمع لأجد أصواتًا كثيرة تأتي من أسفل شرفة غرفتي بالمنزل، أصوات غاضبة تطالب بالقصاص بينما هناك من يقابلها بتوسلات لا أفهم مغزاها.

- «ما الذي يحدث، ولمَ كل هؤلاء القوم قد اجتمعوا أسفل منزلك. هل علموا بما حدث لإخوتك؟».

هز رأسه نفيًا متحدثًا بصوت لاهث كمن كان يركض في سباق ألف ميل أو يزيد.

- «لقد انتحرت سنية أمام الجميع».

ابتلعت ريقي بصعوبة شاهقة:

- «ماذا؟».

- «منذ أن مات مراد، وهي تصرخ ليلًا وتعوي كمن يعذب من قبيلة من الجان، تجوب الطرقات نهارًا تستجدي الناس من يخلصها من عذابها. كان الأهالي يطرقون كفًا على الأخرى متعجبين مما آلت إليها

حالها، وكيف ذُهب بعقلها لتصبح كالمجاذيب بين ليلة وضحاها».

قاطع حديثه شيء ما تم إلقاؤه بناحية الشرفة فأصدر دويًا مزعجًا جعلنا ننتفض من مكاننا ونجلس مفترشين الأرض أسفل الفراش، خوفًا من أن تنهزم الشرفة أمام أحد تلك الأشياء الطائرة. كنت ممسكة بتلابيبه خوفًا من الموقف بأكمله.

- «بالمناسبة لقد زاد الدخان كثافة في القرية. وهذا كان ككلمة السر التي بنطقها فقدت سنية رباطة جأشها. كانت تولول منتحبة كغراب ناعق إلى أن تجمع كل من شاهدها في طريقه. كانت ملابسها ممزقة بالكاد تستر عورتها مبتلة تفوح منها رائحة كريهة، كرائحة القنوات المائية مؤخرًا. كانت تمسك فستانًا أحمر قصيرًا بيدها وباليد الأخرى مقص معدني كبير. أخبرت الجميع أن جلال أتاها أمس ككل ليلة لكنه أخبرها أن الوقت قد حان لعقاب الجميع. وظل يعذبها طوال الليل وكمم فاها حتى لا تصرخ وتستنجد بأحد مخبرًا إياها أن خلاصها بيدها هي فقط. وإن لم تفعل سيأتيها كل ليلة إلى أن تزول القرية، وأن زوالها قد حان وقته ودليل ذلك هذا الدخان المتصاعد من شقوقها وخنادقها».

أصوات استهجان قد علت فجأة لعدم ظهور أحد من أهل الدار ليتساءلوا على الأقل من باب الفضول عن سبب تواجد هذا الجمع في هذه الساعة، وأن هذا الصمت ما هو إلا استهانة بهم وتقليلًا من شأنه. كان يتردد اسم أنور بين الفينة والأخرى باعتباره الأكبر سنًا بين إخوته وبذلك فهو كبير هذا المنزل، لم يعلموا أنه لا أنور سيجيب أو أي أحد آخر لفنائهم أجمعين بخلاف الجالس بجواري الذي ما

زالت ملابسه بين قبضتي لم أتركها. الذي حادثني مطمئنًا:

- «لقد انفلت زمام تلك القرية، هاتفت الحاج سالم لا تقلقي سيصل في أي دقيقة من الآن».

كنت متفهمة لكل ما يحدث متقبلة إياه بطريقة لم تكن لتتناسب البتة مع ذاتي التي كانت متواجدة من قبل:

- «لا تبالِ بهم، فتصرفاتهم متوقعة ولم تخرج من طور النمطية في التصرفات البشرية وقت الأزمات. من أتى للفتك لديه نفس أسباب من قدم استجداء، الاثنان يبغيان النجاة. فلتتركك مما يحدث وأخبرني ما حدث لسنية».

- «نعم لنعد لسنية. كنت أقف أراقب الموقف من بعيد خوفًا من أن تراني فتأتي باتجاهي لتترجاني أن أوصلها لك كما فعلت من عدة أيام ورفضت أن تقابلك تمامًا حتى لا يحدث مثلما حدث في آخر مرة بينكما. ظلت تهذي وتخبر الناس بما يفعله بها جلال كل ليلة، حكته كما حكته هنا تمامًا بلا نقص أو زيادة. جلست تبكي وتأخذ من التراب الذي كان معها في أحد الأكياس وتضع منه على رأسها وتخبر الجميع أن هذا تراب قبر ابنتها. حاول كثيرون الاقتراب منها لتهدئتها لكنها لوحت بالمقص في وجوههم طالبة أن يتركوها تنتهي من حديثها. حاول آخرون إعطاءها عباءتهم لتستر بها نفسها لكنها ألقتها أسفل قدمها وأخبرت أن هذا سيكون مآل الجميع في النهاية. قالت إنك صدقت عندما أخبرتها أن تقتل نفسها فهذا هو الحل الوحيد لما هي به، وإنك سبب البلاء والنجاة مما نحن فيه. وأخذت المقص وشقت فستان ابنتها ثم دفعت المقص باتجاه قلبها بقوة وكانت

القاضية مع ضعفها العام وحالتها النفسية السيئة لم تنجُ، رحلت كما رحل البقية ولم يبق في أذن الناس إلا كلمة واحدة نطقتها، هو اسمك سالمين!».

ما الذي تريده تلك الشمطاء مني، لما دومًا تدفع باسمي في كل مصيبة أو حدث يطوف بالبلدة. لم تتركني بحالي سواء في حياتها أو بعد مماتها. كل ما كانت تهفو إليه نفسها هو أذيتي بشتى الطرق. كم كنت أتمنى أن تموت بأبشع طريقة ممكنة وتعذب إلى قيام الساعة كسيزيف هذا الماكر الذي خدع إله الموت فقرر عقابه بأن يحمل الصخرة من أسفل منحدر إلى أعلاه والذي ما إن يصل لنقطه النهاية تتدحرج الصخرة ثانية لأسفل فيعيد الكرة كل يوم. هي مثله مخادعة فكانت تستحق مثل عقابه وإن كانت تحصلت عليه لعدة أيام من قبل مطبق العدالة جلال. أخذت شهيقًا عميقًا لأستعيد توازني وأنا أسأل مجدي:

- «وهل أهلك مجتمعين أسفل شرفتي للقصاص من موت سنية؟ مالي ومال سنية وما حدث لها. هي من فقدت عقلها وأخذت حديثًا قلته في ساعة غضب من تصرفاتها على محمل الجد. لا تزر وازرة وزر أخرى فلمَ يوزرونني بما حصدته يدها، في النهاية لقد نالت ما تستحق».

هز رأسه نافيًا رادًا على سؤالي:

- «ليس جميعهم يريد الفتك بك، بل أغلبهم حضروا للتبرك منك، وإخبارهم كيفية النجاة مما يحدث في القرية من ألغاز غامضة لا حل لها حتى وقتنا هذا!».

نوبة ضحك هستيرية لا تتناسب مع الموقف ومع حالة الحزن المفروضة بالمنزل قد انتابتني، ضحك لا يدل إلا على مدى التوتر الذي كنت أكتمه لمدة بين أضلعي أرفض أن اظهره علانية أمام أحد حتى لا يتخذ كذريعة على ضعفي. صدم مجدي من رد فعلي هذا فصمت لبرهة ليرى وقع حديثه علي، ولكنه وجد أن وجهي قد اعتلته نظرة جنون، تركت ملابسه ناهضة متوجهة للشرفة، ولكن قبل أن أفتح شراعتها اعترض طريقي متسائلًا:

- «تأملك في شراعة الشرفة بتلك النظرات لا تنبئ بالخير، ما الذي تنتوين فعله أولًا؟».

- «إنهم يريدون التبرك بي أليس كذلك؟ لذا سأتبول عليهم ليتبركوا بمائي المقدس لعلهم يفقهون ويعقلون فيرحلون تاركين ذاتي في شأنها!».

لأنه يعلم مدى جديتي في تنفيذ ما قلته منذ برهة دفعني من أمام الشرفة مسرعًا، كان سيهم بقول شيء ما لكن يبدو أن هناك أمرًا قد طرأ في الأسفل لخفوت الصوت والحركة. تحول الخفوت لصمت مطبق مع صوت خطوات مبتعدة كأن الحشد الذي كان أمام المنزل قد تفرق. مع جمل استهجانية من بعض الأشخاص ما لبست أن خبت تمامًا. نظر مجدي من خلف الشراعة ليرى المستجدات فأخبرني:

- «الحمد لله لقد حضر الشيخ سالم وقام بتفريق الأهالي، فلتسترخي الآن لن نحتاج لمجهوداتك المضنية لتفريقهم».

قهقهت عاليًا إثر نظراته المذهولة من تصرفي وأنا أمزح معه.

- «إنك محق فهو فعلًا مجهود مضنٍ فكيف كنت سأحصل على كمية بول تكفي القرية بأكملها! كنت سأصاب بالجفاف حتمًا».

هنا تيقن مجدي أنني مجنونة أو أصاب عقلي جنة مما لاقيته بهذا المكان. تركني وذهب ليستقبل هذا الذي استعان به لإنقاذ الموقف الشيخ سالم، الذي لا تُرد له كلمة بين أهالي القرية، فكلمته قرآن أنزل هو الفصل والخطاب في كل حادث أو حديث.

استقبل مجدي بحفاوة المأمور هذا الذي أراه للمرة الأولى في خضم الأحداث والذي فهمت من مجدي بعد ذلك أن سالم استعان به لتفريق الجمع، هذا الذي لا يحضر إلا بطلب من سالم شخصيًا يعقبه وليمة كبيرة ممزوجة بكثير من المال. كان يعقبه الحاج سالم، مجلسًا كليهما في غرفة الضيوف التي لم أرَها تفتح منذ مجيئي مطلقًا. ذهبت خلف مجدي لأعرف ما هو مصير تواجدي أو بالأصح ما هو مصير حياتي بأكملها. نظر لي المأمور كمن ينظر لعدوه اللدود وكيف لا ومنذ قدومي ولا يهنأ لأحد في القرية بال، فبعد أن كان يجلس على مؤخرته طوال اليوم دونما شاغل أصبح يركض هنا وهناك لا يستطيع التقاط أنفاسه.

- «أنت إذًا سالمين محور أحاديث القرية بأكملها، لن أقول لك سعدت بمقابلتك وفقًا لما أحدثه مجيئك».

- «أنا أيضًا لم أسعد بلقاء أحد في قريتكم هذه، فمنذ قدومي ولم ألق يومًا سعيدًا، بل أصبح الخطر محدقًا بي أكثر من ذي قبل ولم أكن يومًا آمنة في سربي، بل الموت أقرب مني قاب قوسين أو أدنى».

كنت أحاوره بكل هدوء مع رسم ابتسامة سمجة على وجهي تناسب مظهره السمج. تدخل الحاج سالم في الحديث حتى لا أزيد بحديثي كره هذا الشخص الذي يلبس اللون الأسود المطعم بالأصفر على كتفيه ليكون مصيري أن يقدمني هدية خالصة لأهل البلدة.

- «لا تنزعجي من حديثه، وجودك أصبح خطرًا ليس فقط عليك، بل على مجدي وإخوته، بالمناسبة أين هم لم أرهم في المنزل أو في القرية اليوم».

توتر مجدي عاضًا على شفته السفلى فأدماها وهو يجيب الحاج سالم:

- «لقد ذهبوا ثلاثتهم لإنهاء بعض الأوراق التي تخص الميراث مساء أمس سيمكثون بضعة أيام ليرتاحوا، فما حدث في القرية وتر أعصابهم جميعًا».

- «نعم ما حدث في القرية أماتهم فذهبوا ليستجموا، ليستعيدوا ما فقدوه من حيواتهم».

كنت أضحك واضعة يدي على وجهي لأتحاشى النظر إلى وجه مجدي المكفهر الذي لم يمنعه عني إلا الجالسون ومخافة افتضاح أمره. يبدو أن المأمور لم يتحمل تواجدًا في المكان ذاته لوقت أطول لذلك نهض مودعًا مجدي قائلًا:

- «لقد اتفقت مع الحاج سالم على كل شيء حتى تغادرا من هنا في سلام. هو سوف يفهمك ما الذي ستفعلانه، لكن اعذراني فلدي الكثير من الأمور العالقة التي تحتاج لحل وتفسير. فالقرية في أكثر

مراحلها حرجًا منذ أن وجدت».

أنهى جملته هذه متطلعًا شزرًا لمكان وقوفي مارًا من جواري دون توديع أو سلام، تاركًا ثلاثتنا لوضع خطة الهروب. كان مجدي قد انفرد بالشيخ سالم بعيدًا عني كأن ما يتحدثون فيه لا يخصني. حاولت الاقتراب منهما لكن أشار لي مجدي بأن أبقى حيث أنا. حاولت أن أفهم من حركة شفاههم ما الذي ينويان فعله لكن لا فائدة، فقط في بداية الأمر كان مجدي معترضًا على خطة هذا السالم لكنه في النهاية كعادته رضخ وتقبل كل ما كان يتفوه به الأخير. قبل ذهاب الحاج سالم أخرج مظروفًا كبيرًا من بين طيات ملابسه وأعطاه لمجدي ورحل دون كلمة أخرى إلى أن اقترب مني فمد يده بالسلام ممسكًا يدي وهو يقول:

- «لقد أفهمت مجدي كل شيء، سأنتظركما في الليل، وعلى الغد سيكون كل شيء قد انتهى بإذن المولى عز وجل. لا تقلقي فأنت منذ تلك اللحظة بين يد أمينة ولن يمسك سوء من أي شخص بالقرية وهذا وعدي لك».

سحبت يدي من كفه وأنا مبتسمة وأهز له رأسي بالموافقة على حديثه. رحل ثالثنا وظللت أنا ومجدي الذي جلس بجسده أمامي، لكن عقله كان في بعد آخر فلم يلحظ وجودي أو يسمع كلمة من حديثي الذي ظل لأكثر من خمس عشرة دقيقة. كان يطبق على المغلق بقوة كمن يريد تحطميه لا تمزيقه لكنه في النهاية دفس وجهه به وشرع في البكاء دون أي مقدمات، ثم رحل عن مجلسنا متوجهًا لغرفته كأن من كانت تجلس بجواره شبح لا يراه ولا يسمعه.

في الليل أتى مجدي لغرفتي وكنت قد بدأت في حزم أغراضي مع مذكرة هيثم. نظرت بجواره لأعلم هل حان موعد الرحيل أم لا، لكنني لم أجد أي حقائب تنبئ باقتراب الخلاص، كانت عيناه متورمتين حمراوين حاول جاهدًا أن يرسم ابتسامة على وجهه لكنه لم يستطع. ابتلع ريقه بصعوبة وتحدث دون النظر إليّ من الأساس:

- «عيون أهل القرية متربصة بنا، ينتظرون لحظة خروجك أو لمح أي وسيلة نقل تقترب من المنزل. قبل الفجر بساعة تقريبًا سنبدأ في التحرك في جنح الليل على الأقدام لمنزل الحاج سالم، ومن هناك هو سيتسلم زمام الأمور لإخراجنا من القرية. الخطر كله في المسافة التي بين منزلي ومنزله، وأن يصادفنا أحد في طريقنا. لذلك سنكون متخفين ولا تحضري معك أمتعة حتى لا ننكشف».

كان يتحدث في عجالة هامًا بالرحيل لولا أن أمسكته من كتفه وأدرته في مواجهتي بوجه صاف تمامًا لا يتناسب مع سوداوية الظروف أربك مجدي وأدهشه، نظرت بداخل عينيه لبرهة ثم احتضنته:

- «أشكرك حقًا مجدي، أعلم أن خسارتك لا يمكن تعويضها وأن حضوري معك حملك فوق طاقتها، لم يمهلك أحد أن تقيم الحداد بداخلك على إخوتك أو أن تحزن عليهم. سامحني لما سببته لك».

ضغط بكلتا يديه ضامًا بكل قوته جسدي كمن يريد أن تتشبع خلاياه برائحتي، أن يستشعر قوة وجودي، أن يستلهم الأمان من لمساتي، أن يستجدي الحب من أنفاسي التي ترتد على رقبته قبل أن تنطلق في الفراغ، أن نتوحد معًا ضد ما سيكون، أن يعلم يقينًا أنه

ليس وحيدًا في درب النجاة.

- «أعدك أن غدًا سيكون نهاية كل شيء، لكن هل أنت بخير لأول مرة أراك تشكرين أحدًا، تلك المرة الأولى التي أراك صافية نقية لا تحملين أي نوع من المشاعر بتاتًا!».

- «لأنك كما قلت: النهاية اقتربت، فأردت أن أكون على طبيعتي تمامًا. تستحق الشكر يا مجدي. أنت الوحيد الذي تستحقه حقًا. الآن ارحل من فضلك أريد أن أستريح قليلًا قبل ذهابنا».

ظل على وضعه لعدة دقائق قبل أن يدفعني برفق بعيدًا عنه ويرحل دون أن ينبس ببنت شفة. أعلم أنه لن يزورني النوم في ليلتي تلك. تضايقت كثيرًا بسبب أمتعتي التي سأتركها خلفي فأنا أرتبط نفسيًا بكل ما أمتلكه وإن فقدت شيئًا أحزن عليه بشدة أكثر من حزني على البشر ذاتهم.

جلست أقبلها وأودعها وأعيدها إلى أماكنها في الخزانة، أبكي بحرقة على فراقي لها، إلى أن ارتطمت يدي بمذكرة هيثم تناولتها وأنا جالسة في المنطقة الفارغة أسفل الخزانة وبدأت في تصفحها. أعلم أن الوقت لن يسعفني لأقرأ كل ما ورد فيها اخترت بعض الفقرات التي جذبت النظرة الخاطفة لأتوقف عندها..

«الحب الشديد لوالدتي أقابل منه الفتور البارد لوالدي، لا يعاملني مثلما يعامل بقية إخوتي. نبذني دون أن أعلم السبب. هل بسبب محبة والدتي الزائدة لي، أم لذنب ارتكبته دون قصد معه، أم لأن صادف أن اسمي مشابه لاسم زوج الحاجة سنية الذي لا أعلم سبب بغضه الشديد له. أعلم أن والدتي قد أسمتني هذا الاسم دون علم

والدي وفوجئ به عند عودته فلقد أنجبتني أمي أثناء سفره بضعة أيام ينهي بعض الأعمال. أخبرني أنور عندما كبرت أنه عندما علم بفعلة والدتي النكراء لطمها على وجهها بشدة ولم يبالِ بأنها ما زالت في النفاس وقد تسوء حالتها وتموت. وحطم كل ما كان يقع في طريقه، لكن يظل التساؤل ما ذنبي أنا؟».

لا ذنب لك يا صغير، فالكره لا يحتاج لمبرر أبدًا، نكره من أمامنا ليس لشيء في ذاته، بل لأنه يذكرنا بجراح لم تندمل بسبب حركة أو كلمة أو صلة نسب، أو كما في حالتك بسبب اسمك الذي لا أعلم حقًا هل قصدت والدتك تسميتك به نكاية في والدك دونما حسبان لتصرفات والدك ورد فعله معك، أم كانت مجرد صدفة بحته غيرت مجرى حياتك ككل الصدف الكونية التي تستتبعها الكوارث في هذه الدنيا العابثة.

أدرت الصفحة لأخرى لأطالعها «عند عودتي من المدرسة باكرًا من عدة أيام بسبب وعكة صحية كانت والدتي تجلس أمام المنزل، تبكي بشدة وعندما رأتني حاولت أن تبعدني عن المنزل بأي طريقة متحججة بإرسالي لقضاء بعض الحاجيات لها، لم تكن على طبيعتها كيف لم تهتم بمرضي وهي التي تقطر حنانًا وتغمرني بحبها دومًا لتعوضني عن أفعال والدي معي. وقفت متواريًا خلف إحدى الأشجار لأعلم ما الذي يحدث وسبب تصرفاتها. وجدت أبي يخرج من المنزل بعد مدة ليست بالقصيرة ومن خلفه امرأة متشحة بالسواد، ظل التساؤل يؤرقني عن هذه المرأة ولمَ كانت في المنزل مع والدي وحدهما. إلى أن سألت أنور اليوم فضحك بمرارة ليخبرني أنها مثلها مثل كل النساء اللاتي يحضرهن أبي ليستمتع بهن على فراش

والدتي وعلى مرأى ومسمع منها، لكن يظل التساؤل ما الذي يجعل والدتي تتحمل كل هذا؟».

سرحت في سؤاله ما الذي يجعل المرأة تتحمل ترهات الرجل وحقارته، في حين أنه لا يتحمل أي شيء لأجلها؟ ما الذي يجبرها لتجعله محور كونها على الرغم من أنها في الحقيقة هي محور الكون كله؟ امرأة مثل أم مجدي تلك لمَ لم تلتقط المعول وتجز به رقبة زوجها والمرأة التي معه وتعلقهما على رماح أمام منزلها لتخبر الجميع أنها ثأرت لنفسها ومشاعرها. مشاعر المرأة أقوى من الرجل ملايين المرات، فجرح الرجل لا يقارن بشيء أمام جرح المرأة وألمها، فلمَ يستهان بما تشعر به، لمَ يجب على المرأة الصمت على كل ما تلاقيه وإن تحدثت يستنكر الجميع ذلك وهي مخلوقة من المشاعر لا من شيء آخر. لا أعلم هل غباؤها المطلق أم اقتناعها التام بأنها لا يمكنها أن تكون بطلة مستقلة في حكايتها، بل لا بد من بطل يشاركها القصة يجعلها تقبل بأن تكون ذات دور ثانوي في قصتها. أم أنه ذلك اللعين الذي يبرر به الجميع تصرفاتهم المدعو الحب!

وقفت على فقرة أخرى كانت مكتوبة بخط متكسر دليلًا على ارتجافة يد من كتبه «يومي الأول دون والدتي. اختل الميزان ورجحت كفة الظلم والألم والعذاب والكره اليوم، لولا أن إخوتي وقفوا لأبي لكنت بت ليلتي تلك على أحد أرصفة الشارع. لم ينتظر حتى ترتاح في تربتها، حتى تجف دموعنا عليها، بل لم ينتظر حتى يزال صوانها المنصوب أمام منزلنا ليعلن وفاة سندي وظهري بالحياة. منذ وفاتها فقدت النطق فلا أحد غيرها يستحق حديثي. أعلم يقينًا أن والدي من قتلها قهرًا بسبب تصرفاته وضربه لها، كل

يومين عين متورمة أو ضلع مكسور أو لثة نازفة فاقدة أحد أسنانها. هي من كانت تكف يدي عنه بسبب حبها له رغم كل ما فعله، هذا الحب الذي أجبرها على أن تتنازل له عن كل شيء قبل موتها حتى لا نفتك به بعد رحيلها. فنظل تحت طوعه بسبب حاجتنا المادية له. لم تكن ترى غيره رغم محبتها الشديدة لنا، رغم أننا فلذات أكبادها لكنه كان قلبها الذي من دونه تتوقف حياتها بسبب توقف نبضها، لكن يظل التساؤل هل كانت والدتي مجنيًا عليها أم مشاركة لوالدي في جرمه؟».

أكبر جرم في الحياة هو الصمت على الظلم، ظلم الآخرين لنا قبل ظلمهم بوجه عام. تحت أي مسمى كان: ضعف، حب، أمل في التغيير، رهبة من الموت. أن نقبل بأن نكون مجرد ترس سائر في آلة الزمن دونما قرار منا بالتوقف والنظر من بعيد لتلك الآلة والتساؤل هل تستحق حقًا الدوران أم يجب التمرد لتعطيلها وإجبار من يملكها على الاهتمام بتلك التروس الصغيرة ومعرفة أهميتها وحقوقها حتى وإن كان نتاج ذلك إقصاؤنا واستبدالنا، فعلى الأقل سنكون قد مهدنا الطريق للتروس التالية في معاملة أفضل وأكثر رحمة بها. يجب أن نتغاضى عن أفقنا الضيق في رؤية أنفسنا فقط وأن نرجع للخلف الكثير من الخطوات لنرى الصورة كاملة ونتحرك بناء على مكاننا في تلك الصورة لعلمنا اليقيني أن كل خطوة نتحركها على رقع الشطرنج المتلاعب بنا عليه، سيستتبعها موت أو حياة قطع أخرى.

قررت أن تكون تلك الصفحة الأخيرة التي سأقرأها «اجتمعت اليوم بإخوتي وحسمنا أمرنا، فلقد ضاق الجميع ذرعًا بتصرفاته وتضييقه الخناق علينا، الكل سيستفيد مما اجتمعنا على تنفيذه

سأكون قد أخذت بثأر والدتي، وسيتمكن أنور من الزواج والحصول على ميراثه، وستعود فريدة لزوجها رغم اعتراضي الشديد على ذلك لكن إن كان ذلك هو ما سيجعلها توافق على خطتنا فليكن لها ما تريد. بينما مجدي عندما وجدنا قد اتفقنا فسيقبل وينفذ ما نريد ليس لأنه لا مصلحة له مثلًا أو لا رأي، لكن لأن مصلحته الوحيدة دومًا هي مصلحته أولًا وأخيرًا. وليضع الجميع تحت أقدامه بعد ذلك فلا يهم، لكن يظل التساؤل هل هذا ثأر أم جرم».

أغلقت مذكرات هيثم ووضعتها في قلب ممتلكاتي حتى لا تشعر بالوحدة مثلما شعر صاحبها مسبقًا، لم يسعني إلا أن أفكر في أن الوازرة تزر وزر أخرى، فما وقعت فيه والدة مجدي وما عانته من ألم وقهر على يد والده، حصدته ابنته من ذات المعاملة على يد زوجها، لكن ما ذنب فريدة فيما فعله والدها، هل اتعظ والدها مما حدث فيها، هل شعر بما عانته وتألم لألمها، وذرف الدمع على مصابها؟ لكن لأكون منصفة ولو قليلًا فهو اختيار فريدة من الأساس، من دون وعي من الفتاة دومًا ما تتزوج من شخص مشابه لوالدها في كل شيء كأنها قررت أن تعيش حياة والدتها لتدرك حجم الشقاء الذي كانت فيه. لتتكرر الحياة ودورتها دونما نقص أو تعلم من أخطاء الماضي وعظاته.

- «لا تذهبي مع مجدي لدوار الحقير سالم!».

انتفضت من رقدتي على صوت امرأة في العشرين من عمرها. لم أرها من قبل تلفت يمنة ويسرة لأجد أن باب الغرفة ما زال مغلقًا. حينها علمت أنها من ساكني القبور. كررت الجملة ذاتها مجددًا لتتأكد

من سماعي لها:

- «لا تذهبي مع مجدي لدوار الحقير سالم!».

ابتلعت ريقي بصعوبة بصوت بالكاد خرج من مكمنه أجبتها: «لمَ؟».

- «لأنهم يريدون بك الشر، وليس كما أخبرك مجدي. هل تعلمين ما الذي يحدث بمنزله؟».

هززت رأسي نفيًا دون أن أنبس ببنت شفة، فأكملت لأكثر من نصف ساعة حديثًا شيبت به شعر رأسي كالح السواد. لم يقطع حديثها إلا دخول مجدي للغرفة فوجد اصفرار وجهي خير سبيل لسؤالي عما حدث لأكون بتلك الحالة فأخذت أسرد له ما قصته عليّ تلك الفتاة:

- «الخديعة اللامتناهية دوار الحاج سالم، التي دبرها حسن لصديق عمره سالم الذي كان يعلم أنه مزدوج الميول الجنسية، ولأن حسن كان بيدوفيلي يجد متعته ويبلغ نشوته في أجساد الطفلات، تفهم ما يمر به صديقه، فكلاهما كان مغتصبًا، ولكن لكل منهما ميل محدد. لذلك أخبر سالم حتى لا ينفضح كلاهما فيجب ألا يقترب من أحد من أهل القرية أبدًا بسوء، بل كل من يرغب بهم يجب أن يكونوا مسافرين أو عابري سبيل. بالطبع حتى يجتذبهم كان لا بد أن يفتح بيته كمضيفة كبيرة للمارة والمسافرين ليرتاحوا ويستعيدوا تشاطهم متناولين بعضًا من الطعام الشهي، مستمتعين بجو الطيبة والهدوء والكرم من هذا الجنوبي ذي الملامح التي تقطر تقوى ورحمة، بينما هو يستمتع بفروجهم وأدبارهم بعدما يشل جسدهم بعقار الكيتامين الذي كان يزوده به صديقه حسن من مراد، هذا الدواء الذي يشل الجسد لكن العقل يكون مدركًا لكل ما يدور حولك، لكن لا حيلة لك

في كل ما يحدث فيك ولا تستطيع درءه أو دفعه!».

لم أعط لمجدي فرصة للتعقيب على ما كنت أخبره به بل أكملت حتى لا أنسى حديثها:

- «طبعًا دور المصلح والمفتي الذي كان يلعبه حسن لم يكن لينطلي على سالم، فلا ينفع معه الكلام عن قبول التوبة والكفارة وهذا الهراء والغباء الذي كان ينطق به دومًا عن طريق إطعام فقراء ومساكين القرية والقرى المجاورة، والزكاة لهم وإجزال العطاء في حقهم. فأتى له من الباب الذي سيفهمه، وهو أن يظهر أمام الجميع بمظهر الطاهر النقي فهذا سينقي ثوبه أمام أهل القرية الذين سيتحدثون عن كرمه فيجذب له غرباء كثرًا لينكحهم مرارًا.

يا للأسف كان الضحية يشعر بكل ما يحدث له دون المقدرة في الدفاع عن نفسه أو حتى البكاء، لا يكفيهم شعورهم بالعار والخزي لسلب أعز ما يملكون بطريقة وحشية، شعورهم بالغدر ممن أمنوهم، بل أضافوا لهم شعور العجز وقلة الحيلة والضعف. كان كلما أعجب سالم أحد الغرباء سواء رجل أو امرأة أمر العاملين لديه بوضع المخدر بطعامه حتى يصبح جسد الضحية طعامًا لسالم في تلك الليلة يتذوقه ليل نهار إلى أن يزهد طعمه، الذي ما إن ينتهي من فعلته يوقف إعطاءه للمخدر فيستفيق فيكون أمامه طريقان لا ثالث لهما؛ أول طريق كان الموت ولقد مشى فيه كل من كان بلا أهل أو من الضعاف أو ضحية لم تقبل المال وتهدد بفضحه وتطالب بحقها؛ فكان مصيرها القتل وإطعام لحمها للغرباء وسحق عظامها وبذلك لا يترك أي أثر خلفه. نعم اللحم الذي كان يتناوله الناس على

موائده هي لحوم بشرية لذلك أدمن الناس طعمها وحلاوتها، بينما يتمثل الطريق الآخر الذي تقبله معظم الضحايا خوفًا من الفضيحة والعار وخصوصًا من الرجال هو المال. ذلك لأنه بجانب الخوف من المجتمع، من تلك النظرة التي ستصاحبه طوال عمره بأنه قد نكح بواسطة رجل مثله دون أن يدافع عن نفسه أو يثأر لشرفه. فغالب ضحاياه حقًا كانوا يحتاجون للمال، كانت له نظرة ثاقبة في اختيارهم كعين خبير يعلم ما هو الألماس الحقيقي من الزجاج الذي قد يتهشم بسهولة جارحًا يده تاركًا فيها أثرًا للناظرين. كان يجزل لهم العطاء بطريقة لا يمكن أن تتخيلها أبدًا!».

ابتعد مجدي مصعوقًا من كلام الفتاة الذي أعدثه على مسامعه. كنت كمسجل يكرر ما سجل عليه بلا زر إيقاف:

- «بينما إن وجد طفلة بين ضحاياه فهذه كانت من نصيب حسن، كان يرسل له أحد العاملين يخبره بأن الحاج سالم يعزمه على العشاء الليلة. كان حسن يدخل من الباب الخفي في منزل سالم، يطأ الطفلة مرات عديدة إلى أن تلفظ أنفاسها بين فخذيه، فإن لم تفعل قتلها سالم بنصل حاد، فالأطفال أخطر الكائنات على المجرمين فهم لا يسكتون أبدًا، ولن تضمن صمتهم، ولا تعلم بأي وقت قد يبوحون بما حشر في صدورهم فهؤلاء كانوا مجبورين على سلوك الطريق الأول لا محالة. طبعًا لا يعلم أحد ما يحدث بداخل الدوار إلا العاملون به فقط، لذلك شبهته بقرية لوط. وعندما سألتها: «لمَ صمت العاملون على ما يحدث في الدوار. لما لم يبدأ أحدهم في فضح كل شيء». أجابتني: يا لتفكيرك الساذج. أغلبهم كانوا ضحايا لنزواته في بادئ الأمر. عانوا ما عاناه كل المكلومين، تم تصويرهم في أكثر لحظات

عمرهم عارًا وخزيًا، كانوا فقراء منبوذين بالأرض لا منجي لهم ولا قوة تأخذ لهم حقوقهم. كان أمامهم أحد الطريقين إما أن يكونوا من المستضعفين أو ينضموا للمتجبرين ويساعدوهم في طغيانهم. لذلك أحكم قبضته عليهم فضمن صمتهم خوفًا من فضيحتهم التي كانت ستؤدي بحياتهم وكرامتهم ونبذهم، كما أنه أغدق عليهم بالمناصب والمال فأشبع حاجة نفسية لديهم هي الرغبة في الشعور بالأهمية التي لم يحظوا بها يومًا وذلك كان ضمانه الأكبر لأمانه وحمايته لعلمهم اليقيني أنهم يستمدون تلك المكانة من سالم ذاته فهم أحرص الناس على بقائه».

نظرت له بعد الانتهاء مما كان يعصف بعقلي:

- «هل تعلم أن خطيئة قوم لوط لم تكن الشذوذ فقط، بل لأنهم كانوا مفسدين في الأرض كانوا يختطفون المسافرين متناوبين على اغتصابهم في ناديهم، هل تعلم ما معنى «نادي» أي وسط جمع غفير منهم، على مرأى ومسمع من الجميع. أي يبثون الرعب في الآمنين. لذلك كان عقابهم أن تخسف بهم الأرض، هكذا ختمت حديثها معي». كان لهاثي ككلب ضل عن قطيعه تطارده الوحوش الضارية بلا كلل ولا ملل لا هدف لها إلا الفتك به.

كنت أنتظر منه أن يضمني لصدره، أن يهودني كابنة مدللة له. أن يطمئن قلبي الملتاع من المجهول الذي يحيق بخفقانه. لكنه لم يفعل، بل دار على عقبيه موليًا القهقرى إلى غرفته، تخبرك انتكاسة رأسه بجهله المطلق لطريق سلامتنا غير الموجود.

يبدو أن كلينا لم ننم، ففي تمام الساعة المتفق على خروجنا فيها

وجدته يطرق باب غرفتي. محضرًا لي عباءة من عباءات أخيه هيثم لأتخفى فيها، متفقًا معي أنه سيسير أمامي تفصلنا مسافة نصف متر تقريبًا، وسنظل هكذا مصدرة صوتًا كل خمس دقائق ليتأكد أنني خلفه. إلى أن نصل لمنزل الحاج سالم. أمسكت يده راجية له بنظرة خجلة أن يصدقني القول:

- «هل حقًا حدث ما قيل لي، وهل ستتركني عند سالم كوليمة لنزواته؟ إن كان كذلك أمتني هنا واجعلني مع إخوتك نسيًا منسيًا».

اقترب مني مقبلًا جبيني كقبلة وداع يسمح له بها الموقف وأسمح أنا له بها فلا يزيد. وضع كفي بين كلتا قبضتيه سابحًا بنظراته في زجاجي المعتم، على ثغره ابتسامة رجولية تقطر أمانًا قائلًا لي بكل ثبات بث في خلجاتي السكينة:

- «لن يحدث لك شيء حتى وإن أصبحت جثة هامدة، وأريق دمي أسفل قدميك أنهارًا. أنا شاطئ الملاذ لك، فلا تقلقي حبيبتي فالحاج سالم لا يمكن أن يصدر منه تلك الأفعال تيقني من هذا».

نسير في طرقات يغشاها الظلام الدامس لا ترى يديك في امتدادهما، يزيد اسودادها تفحم الدخان وكثافته، الذي بحركته يجعل السائر فيه يبدو كمن يخطو بين أمواج بحر لجي لا يعرف ما يضمره له من غدر. هاجرت الطيور القرية إثر موت الحيوانات فلم يعد يكسر حديثها صمت الليل ولا ينتهك حرمته، فلم نكن نسمع إلا صوت أنفاسنا الممزوجة بصرير أصدره كل عدة دقائق لأعلم مجدي بأن افتراقنا لم يحن بعد.

تذكرت بداية دخولي للقرية، ليلتي الأولى التي انبهرت فيها بألوان

القرية الزاهية، تلك التي سطعت في عيني فأعمتني عن حقائقها السوداوية، لمع من بين خواطري شهاب أضاء جزء الفهم بتلافيف عقلي فأدركت معنى ألوان الخطوط المختلفة المعبرة عن السبع المميتة في كتاب جلال اللعين. وساعدني في ذلك اللوحة الفنية التي أذهلتني في البداية، فالبرتقالي الذي كان يطغى على أسماك الزينة السابحة في القنوات المائية ذكرني الآن باللون المميز لكبيرة الشره وشيطانها بلعزبوب. لون قراميد بناياتها الأصفر كان مرتبطًا بكبيرة الجشع والذي ربط في الكتاب المقدس بمأمون ذلك الشيطان الذي كان يعلم طبيعة البشر فتلاعب بأهوائهم كما يتلاعب الطفل بدميته دونما مقاومة منها. سرحت بنظراتي في السماء المسودة فجرًا فتجلى بذاكرتي لونها السماوي الصافي المرتبط بالكسل والمسؤول عنه اللعين بيلفيجور. بينما الأزرق الذي انطفأ من حدائقها الغريبة ذلك القوي الذي يرفض إلا أن يكون جليًا في العيون فلم يرض إلا بأن يكون كناية عن الشهوة الجنسية تلك الكبيرة التي هي نتاج لوسوسة أزمودياس. أثناء سيرنا دعست قدمي زهرة الجنة البنفسجية تلك الصبغة التي خضبت الغرور فأبى لوسيفر إلا أن يتميز بها حتى وإن أخرجته من جنة الخلد مطرودًا ملعونًا. كانت الزهرة ملقاة على العشب الأخضر الذي كنا ندعسه في طريقنا لوكر سالم الذي لا يقل شرًا عن ليفياسان ابن عزازيل المسؤول عن الحسد وتغيير قلب الإنسان وملئه بالحقد تجاه الآخرين. كدت أن أصطدم بجدار أحد المنازل الحمراء لرؤيتي الزائغة لكربي فذكرني بالغضب الذي التحم بلون النار محبة وطباعًا فكان نتاج هذا تتويج آمون بأفعاله الهوجاء حاكمًا لهذه الكبيرة التي تجر كل الكبائر الأخرى تباعًا

لها.

دمعة غادرة نافرة هربت من عيني لتشويه أحب الأشياء إلى قلبي، الذي كان دومًا يرتبط طوال حياتي بالنقاء والصفاء. هذه الألوان هي ألوان قوس قزح، رمز الفرح والسرور، وكل جميل. فمهما كانت السماء ملبدة بالغيوم، لا بد أن تظهر الشمس في النهاية راسمة بسمتها على هيئة قوس ملون بألوان زاهية، لكنني رأيت الأمر من منطلق آخر في يومي الأخير. أن كل شيء جميل المظهر له جانب مظلم قبيح، وأنه كلما لمع الشيء وزاد بريقه تيقنت أنه يحتوي على أكبر الأمور شرًا وعدوانًا. أن كل جلي واضح يحتوي على سر مدفون في أعمق أعماقه لا يجب أبدًا خروجه وإلا هلك.

فهمت كلمة جلال يوم سنوية أبيه أن كل شيء سيفتضح. كانت كبيرة سنية المهلكة لها هي الحسد لابنتها، وحسن لم يقبل بأقل من الغرور، كبيرة مجدي وإخوته تلخصت بكلمة واحدة الجشع، ومراد بجسده المترهل رمز للشره، وهذ السالم إن صح كلام الفتاة فكبيرته الشهوة، لكن تلك خمس كبائر فأين الاثنتان الأخريان، هناك كبيرتان لا أعلم من المصاب بهما. وهناك كبيرة تناساها الإنجيل. هي أخطر كبيرة على البشرية جمعاء وهي التي ارتكبها أهل القرية الغباء، هذه الكبيرة التي لا تموت إلا بموت الإنسان على عكس الكبائر الأخرى. أهل القرية أعطاهم الله العقل فأوقفوه، لم يتفكروا، لم يتدبروا، لم يفندوا ما يقال لهم. استسهلوا بتنفيذ كلام حسن كأنه منزل من الإله دون الرجوع لصحيح دينهم. فكانوا كالحمار يحمل أسفارًا. تلك كانت كبيرتهم. وصدق من قال اثنان لا نهاية لهما الكون وغباء الإنسان.

لم يخرجني من شرودي إلا سهام الشمس المنبئة بشروقها الذي تزامن مع خروجنا من بوابة دوار الحاج سالم التي أغلقت من خلفنا بقوة من قبل أتباعه، الحاج سالم ذلك الشخص ذو الكرم البالغ والجود الفائض والقلب الرحيم الرؤوم صاحب الوجه الذي يشرق بنور ربه من الإيمان والعمل الصالح كما يقول مجدي دومًا. كان يقف على الباب الداخلي للمنزل مستقبلًا إيانا بحفاوة وأدخلنا آمرًا العاملين في المنزل بتحضير فطور لنسد به جوعنا البادي على ملامحنا. حاول التهدئة من روعي حالفًا لي بأغلظ الأيمان مكررًا حديثه بأنه لن يمسني سوء من أهل القرية ما دام هو حي يرزق. نظر لي الحاج سالم وهو مبتسم:

- «أعلم أنك لست السبب فيما حدث، بل وضعت في منتصف كل شيء بقصد فقط ككبش فداء يشتت الأنظار عن الفاعل الحقيقي، لكن قليلون من يتفكرون!».

كنا ننصت له باهتمام فهو يبدو كمن يعرف حقًا ما الذي يحدث في القرية بسبب هدوئه الرهيب. لذلك سألته دون تردد:

- «هل تعلم حقًا من السبب في كل ما يحدث في القرية؟».

أجاب كالمتيقن من صدق منطقه:

- «نعم الشيخ حسن رحمه الله».

يبدو أن الهذيان أصاب عقل هذا الرجل أيضًا. لقد تخلل الضباب إلى عقولهم فأتخنها وحجب عنها المنطق السليم. لم يمنعني من السخرية من مقاله إلا أن مصيري أنا ومجدي معلق بإشارة من

خنصره. حاولت جاهدة رسم الجدية على ملامحي وأنا أخبره:

- «الشيخ حسن الذي توفي، هو من يفعل هذا بالقرية! لكن الجميع يقولون جلال السبب».

نظر لي مجدي لعلمه اليقيني من سخريتي منه، لكنه لم يعقب كمن فقد الرغبة في الحديث مع الجميع كأخيه هيثم. هذا الاستهزاء الذي لم يلق له سالم بالًا فأكمل:

- «رؤية جلال هي خيالات انتقلت كالعدوى بين الأهالي، أنت أخبرتهم أنك رأيت جلال وأن هناك كتابًا وكل تلك الأشياء، فأصبح الناس يتوهمون رؤيته. لو مر بجانبهم شخص يلبس ملابس مشابهة لجلال أو له نفس هيئته الجسدية لقالوا إنه جلال. عقولهم الساذجة خدعتهم».

له منطق في حديثه العقلاني مما جعلني أجاريه سائلة:

- «حسنًا لكن ما هو قولك سيدي لما حدث لمراد ومرضه وما يحدث بالبلدة من أحداث غريبة. وسنية وما قالته؟».

أشاح بيده كدليل على عدم أهمية الدلائل التي ذكرتها:

- «مصادفات كلها مصادفات وأحداث بيئية كان توقيتها فقط السيئ، إن حدثت في ظروف أخرى لتقبلها الناس بصدر رحب، لكن من منا لم يعشق الماورائيات والجان! يجتذب السذج للتفسيرات التي ترضي قلة حيلتهم على تقبلهم للتفسيرات العلمية».

زال المنطق وبان عوار عقله في لحظات. هل قدم هذا الأحمق أي تفسير علمي لما حدث، لرؤيتي لجلال وللكتاب ولفستان ليل ابنة

سنية، ناهيك عن مرض مراد ومقتل إخوة مجدي؟ هل تناسى أنه يتحدث مع الفتاة التي رأت كل شيء بأم عينها ولم تسمع من أحد غريب مثلًا أقوالًا متناقلة ليس لها على العقل من سلطان؟ قررت إكمال دور القط الذي يلهو بفريسته لتسلية وقته:

- «كلامك يبدو منطقيًا، لكن الشيخ حسن أيضًا متوفى فما الفرق بينه وبين جلال؟».

ربت على كتفي بحنو:

- «لم تفهمي حديثي يا بنية. الشيخ حسن قد دبر كل شيء قبل مماته، أي إن ما يحدث هو أفعال بشري وليس روحًا وأمواتًا كما يقول الناس. لا أحد يعرف الشيخ حسن مثلما أعرفه أنا، فنحن حضرنا معًا إلى هذه القرية عندما كانت أرضًا قاحلة لا يسكنها إلا الحفاة العراة. بفضل مالي ومجهوداته أصبحت كما ترينها الآن. القرية التي لم يتحدث عنها الإعلام إلا عندما أصبحت نموذجية في كل شيء حتى أهلها لبعض الوقت، ثم تناسوها بعد ذلك تمامًا كسابق عهدهم. صدقيني لا أحد يعرف حسن مثلما أعرفه».

أزحت يده بهدوء مخبرة إياه بطلب:

- «أنت أدرى بأهل القرية، هل لي بالذهاب لدورة المياه؟».

نادى على إحدى العاملات لديه وأمرها باصطحابي وانتظاري وإرجاعي إلى مجلسهم ثانية. سرت خلف الفتاة متجاهلة المتلصصين لحركاتي. دلفت لبيت الراحة وصدق من أسماه هكذا فأنا لم أذهب لقضاء حاجتي، بل لأريح عقلي من تنبهه المفرط لكل

شاردة وواردة بهذا المنزل، لأريح عقلي قليلًا من صوت هذا الرجل الذي يغير أعصاب أبرد القتلة المتسلسلين، أريح مجدي ولو لبرهة قصيرة من الحديث في كل ما حدث في القرية لأخفف ألم قهرته على إخوته، لآخذ نفسًا عميقًا متسائلة لمَ لم نتسلل لخارج القرية بدلًا من الحضور لمنزل الحاج سالم فالمسافة تقريبًا واحدة؟

كانت ما زالت خيالات أقدام الفتاة المنتظرة أما دورة المياه متواجدة. منتظرة خروجي لتعيدني كما أمرها سيدها. جلست لأكثر من عشر دقائق أنظر لساعتي أتمنى إطالة جلوسي لأكبر قدر ممكن من الوقت. لقد شرقت الشمس فستر الليل لشخصيتي انفضح وسيعرفني الجميع حتى وإن ارتديت عباءة إخفاء. كما أنه لن يمكنني الهروب فهذا المكان أربعة جدران فقط يتوسط أحدها باب تقف أمامه كلبة مطيعة ستفتك بي إن خالفت ما تدربت عليه. هناك شيء ما خاطئ أنا على يقين من ذلك. شيء ما على وشك الحدوث، شيء يخبرني أن مجدي لن يكمل ما بدأناه سويًا. جلسته، صمته، انحناءة ظهره، رفضه النظر لي منذ حديثه مع سالم بالأمس، والأهم من ذلك ما كتبه هيثم.

في النهاية قررت أن أنفض تلك الوساوس. فحب مجدي لي المتبادل من قبلي جعلني أدفنها قبل ميلادها. قررت أن أخرج لألاقي مصيري أيًا كان، فلا حاجة في تأخيره. نظرت لي الفتاة وأثناء سيرنا اختل توازنها فانحنيت لأساعدها فقالت لي بهمس:

- «احذري لا شيء هنا كما تتوقعين. لا تقربي الطعام، لكن أنقذيني كما أنقذتك فالكل يتحدث هنا على أن بيدك النجاة للجميع».

وقفت مجددًا مستندة على يدي، يبدو أنها تصنعت هذه السقطة بحرفية لتنقل لي رسالة عاجلة لم تكن لتخبرني بها بأي شكل آخر وإلا كانت نهايتها لكن ما الذي تعنيه بأن الأشياء ليست كما أتوقع. جلست بجوار مجدي مجددًا كانت رائحة الطعام تسيل لعابي حقًا جعلت معدتي مضطربة تطالب بحضور الطعام في التو واللحظة، محت كل ما قالته الخادمة تمامًا. مدت السفرة بأشكال مختلفة من خيرات أعدت حديثًا، شهية، دافئة، ذات رائحة طيبة. كان ما زال مجدي وسالم يتحدثان في أمور شتى لا أفقه منها شيئًا، عن تاريخ القرية وميراث مجدي كأن الحديث قد تعمد تواجده لحظة الطعام. ألا يعلم هؤلاء الناس قول الأمثال ساعة البطون تلغى العقول أم ماذا؟

أقبلت على الأطباق المتراصة أمامي بنهم ولم أنتظر أحدًا، يبدو أن نقاشهم سيطول. وأمثالي لا يحبون الطعام باردًا فلا لذة في بارد ولا أبالي بالبركة التي تزول بأكل الطعام حارًا. بعد عدة لقيمات قليلة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة سقطت أنا والكرسي الجالسة عليه ممسكة بالطبق الذي كنت أتناول منه الذي سقط بأكمله على ملابسي على الأرض، انتابت جسدي تشنجات عنيفة من قوتها كنت أخاف أن تتكسر إحدى عظامي، لا أعلم هل ارتفعت درجة حرارة جسدي أم أن الشتاء حل فجأة، كنت أستشعر بالبرد يغزو أوصالي كأن بي جانًا يحاول التغلغل إلى داخلي. هدأ جسدي فجأة كما بدأ ما فيه فجأة، لكن الغريب أنني لم أستطع تحريك أي عضلة به كأنه شلّ تمامًا، لكن عقلي كان مدركًا لكل ما يدور حولي. كان عقلي يستحضر ذكريات وخيالات كثيرة لذكريات ولت، وأفكار لم أستطع السيطرة

عليها.

مع انتفاضة جسدي كان ينتفض مجدي كأن بيننا رابطًا لا يراه أحد، كان يحاول الاقتراب مني لكن يد سالم المتواجدة على كتفه منعته من التحرك بلمسة خفيفة. ما إن سكنت حركتي وغفلت عيني حتى سمعت سالم يقول لمجدي معتقدين أني لم أسمع حديثهما:

- «هل يعقل أن لديها حساسية تجاه المخدر، فالمخدر لا يؤثر بتلك السرعة في جسد الإنسان».

رد عليه مجدي هلعًا:

- «لا أعلم إن كان لديها حساسية تجاه أي علاج من عدمه، فأنا عرفتها من مدة قصيرة. لكن لمَ عينها مغلقة هل ماتت؟».

سمعت صوت سالم يجيب:

- «ما زالت تتنفس لا تقلق، أنت تعلم أن هذا الفعل هو تذكرة خروجك سالمًا من القرية، والمال الذي سلمتك إياه أمس سيساعدك في البقاء خارج القرية لمدة زمنية ليست بالقصيرة حتى يتناسى أهل القرية ما حدث بسببكما، ولا تقلق عند عودة إخوتك سأطمئنهم عليك».

صوت مجدي يأتي من مكان بعيد له صدى يرن في الأجواء:

- « هل ستكون بخير؟».

سالم يعود للحوار مجددًا:

- «إن كنت تضمن صمتها وعدم إخبار أحد عما سيحدث لها،

سأرسلها لك فور الانتهاء منها».

أجاب مجدي بلا تردد:

- «لا لن تصمت بتاتًا، فأنت لا تعرفها لا تتنازل عن حقها أبدًا وإن ماتت دونه. غير أنها علمت الكثير الكثير، الذي لا يجب أن يخرج من بين جدران منزلك بتاتًا».

تنهد سالم وقال بخفوت:

- «لك أن تودعها إن أردت وامضِ إلى حال سبيلك وانسها إذًا».

صوت خطوات مقتربة أعتقد أنها لمجدي. شعرت باقتراب جسد أحد من جسدي المسجى على الأرض. يد لمست منابت شعري وصوت مجدي يهمس في أذني:

- «أشكرك حقًا على كل شيء. كنت على يقين بأنني سأستفيد منك في يوم ما، أصبحت السبب في إنقاذي مما سيحدث لهذه القرية، إلى اللقاء!».

أطلقت ضحكة ساخرة وأعقبتها بفتح عيني بطريقة مفاجئة أرعبته لدرجة أنه لم يتمالك توازنه فاختل وسقط على فلقتيه، كان يتراجع زحفًا للخلف على يديه محاولًا الابتعاد عني. تظاهرت أنني لم أسمعهما، جلست على طرف الأريكة واضعة رجلًا على الأخرى، مددت يدي فأمسكت كوب ماء كان قد شرب منه سالم من قبل وتناولت منه رشفات قليلة وما زالت عيني على شيء واحد فقط أسفل قدمي هذا الذي يدعى مجدي. كان يثير اشمئزازي. مصلحته ثم مصلحته ولا شيء غير مصلحته. صدق هيثم في كلامه عنه. كنت

أشير لمكان وقوف سالم الذي يقف كعصفور مبتل. بينما لم يغادر انعكاس مجدي في حدقة عيني:

- «هذا الأحمق الواقف خلفك يعتقد أن حسن السبب في كل ما يحدث، لقد كان يحبس عنكم الشيطان الذي بموته أطلق سراحه».

بصوت مبحوح كمن قطع الخوف أحباله الصوتية رد مجدي:

- «لا أفهم مقصدك، سالمين هل أنت بخير؟».

تجاهلت سؤاله تمامًا وأنا أكمل النبوءة التي كانت خاتمة الكنز:

- «هذه القرية هي حطب جهنم، بها ستسعر النار التي ستتغذى على لحومكم مذيبة جلودكم محيلة عظامكم لرماد ستنثره الرياح في شتى بقاع الأرض فتنظر الأقوام اللاحقة لعاقبتكم لعلهم يتعظون».

وقفت متوجهة صوب سالم، لم أبالِ بقدم مجدي الذي دست عليها في مروري فسمعت صوت قرقعة طفيفة منها، لم أبالِ بالأصوات الهامسة من خلف الحائط التي تتساءل هل حقًا سأنتقم لهم؟ هل سأحررهم؟ هل ستباد القرية؟ ما ذنبهم إن عاشوا مجبورين مكروهين ليموتوا مسحوقين أسفل الأنقاض. لم أبالِ بصرخات متفرقة دونما مقدرة أحدهم على الحركة أو الركض من مكانه للنجاة كما يطلبون، كمن يدعو الله لينقذه من الغرق لكنه لم يحاول السباحة، فكيف سيكون الخلاص لمن ألبسوا لجام العبودية فاستساغوه وأحبوه وبرروا تواجده في جيدهم. وجهت نظراتي صوب سالم مطلقة ضحكات جنونية مرعبة مقتربة منه بنظرة

مخيفة جعلت أوصاله ترتعد فلقد تحول بياض عينيّ لسواد كالح هامسة في أذنه:

- «هل تعتقد أن مخدر الكيتامين قد يؤثر في شيطان مثلي غذاؤه السم؟!».

تعالت نبرة صوتي حتى تسمع كل المتواجدين في حدود الدوار والمنزل ليفهموا ما سأقوله جيدًا ويعوه:

- «منزلك هذا الذي يشبه قرية قوم لوط تأتون المنكر في ناديكم وتفسدون في الأرض وتقطعون السبيل بطريقتكم، ستخسف به الأرض كما خسفت بقوم لوط. أنتم البداية ولن يُترك منها أحد بعد اليوم أبدًا!».

كان صوت أذان العصر يصدح في كل القرية حي على الفلاح، ولن يفلح أحد فيهم قط! علمت الشمس ما هو كائن فقررت التواري خلف القمر حتى لا تشاهد نهاية أقوام كانت تراهم كل يوم تضيء لهم طريقهم وتدفئهم حبًا، تذكرهم دومًا بأن الأمل موجود بأشعتها التي تجلي أمامها أحلك الليالي ظلمة.

رحلت صارخة خارج الدوار، لم يستطع أحد من زبانية سالم أن يقترب مني خوفًا، كانوا محدقين بذهول في الفراغ والرعب قد تملك منهم كل خلية من جسدهم. أول من استفاق من ذهوله كان مجدي وحاول اللحاق بي لمحاولة إيقافي قبل فضحه هو والمدعو سالم، لكن قدمه المصابة حالت دون ذلك، كان يحجل خلفي فينجح تارة ويسقط تارتين.

حاول سالم إكمال ما بدأه مجدي لكنني كنت قد خرجت من الدوار، والذي فور خروجي دوى صوت فرقعة شديدة أعقبها خروج نار شديدة من أسفل المنزل فارتجت أرجاؤه بعنف متصدعة جدرانه متطايرة حجارته مصيبة بعض المجتمعين حول الدوار ليستطلعوا عما يحدث بداخله. هدم على بكرة أبيه فوق من فيه، كأن الأرض انشقت وابتلعته. أصبح الدوار كومة تراب وسط ذهول سكان القرية. فلقد ثبت الميزان جذوره في سابع أرض فقيامة تلك القرية على وشك أن تقام.

حاول البقية الباقية من أهل القرية الابتعاد والفرار من مكان الركام، لكن ما برز لهم من بينه بعد انقشاع الدخان المتصاعد جعل الولدان شيبًا. لقد وجدوا جلال ابن الشيخ حسن مصلوبًا على خشبتين والدماء تخرج من يديه ومن عينيه كان رأسه مسنودًا على رأسه وملابسه ممزقة من أماكن شتى، صاحب هذا المشهد صوت بوق دوّى فوق رؤوس الجميع. فألجمت حركتهم وثبتتهم بمسامير المفاجأة بأماكنهم.

رغم ما أحدثه ذلك المشهد داخل أهل القرية من مشاعر متضاربة ما بين الخوف، البكاء، عدم التصديق، الهول، الرهبة. لكنهم اقتربوا أكثر من الصليب ليتأكدوا من صحة ما تراه أعينهم وهو أن جلال بالفعل موجود فوقه. وتجمعوا حول ذلك المتوفي الذي أعيد بعثه من جديد يتعجبون هل بعث رحمة أم نقمة؟!

ظل جلال صامتًا ويدور بعينيه بين الخلائق إلى أن تجمع أكبر عدد من أهالي القرية. فكما سبق القول تلك القرية صغيرة جدًا. كان

ينتظر وينتظرون، هو ينتظر اكتمالهم وهم ينتظرون كلمة الفصل وقول الحق الذي هم فيه يمترون. تحدث جلال بصوت جهوري يكاد يسمع القرية بأكملها مردّدا: «وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين». ظل يرددها مرارًا وكلما رددها ارتفع في السماء، وكلما ارتفع في السماء ارتفعت معه رؤوس الخلائق مشرئبة لتعرف فيمَ أنزل وفيمَ رفع؟ لمَ مات وما سبب بعثه؟ لتعرف ما مصيره وما مصيرهم من خلفه. اختفى جلال في السواد الحالك للسماء عصرًا وسط ألسنة قضمها أصحابها دون وعي منهم لتكون خير دليل على ما نشب في داخلهم من جزع.

قطرات سقطت على وجوههم، كانت لهم نفس الرائحة الكريهة التي تنبعث من القنوات المائية في القرية. تحولت لسيل عرم يسقط من مكان تبخر جلال، كأن السماء لم تحتمل ما سيصيبهم فقررت نعيهم ببكائها المفاجئ من تلك البقعة فقط، بقعة اختفاء جلال في السماء كما اختفت الشمس قبل قليل.

بدأت السماء تمطر بغزارة لكنها في مكان محدد بطريقة غريبة، مكان اختفاء جلال ثم بدأ المطر في التحرك كأنه سحابة واحدة فقط أمرت بالتحرك وتروية أهل القرية وتربتها، لم أر قط في حياتي مطرًا غريبًا بتلك الطريقة. استفاق أهالي القرية بسبب الرائحة النفاذة للمطر، مع استفاقتهم بدأ الهرج والمرج، يهرولون في كل صوب واتجاه متدافعين صارخين على من يسكنون السماوات لينقذوهم، متشفعين بصالحي الأرض ليخفف عنهم الإله هول هذا اليوم.

كان هذا اليوم هو اليوم الذي أذهلت فيه كل مرضعة عما أرضعت، كان الرجل ينحي من أمامه صديقه لينجو لا يهمه ما الذي سيحدث للآخر المهم نفسي نفسي، كانت النساء يمكن أن تلقي ما يحملنه حتى ولو كان وليدها غير مبالية باحتمالية هلاكه بين الأرجل المتشابك طرق مضيها فلا أحد يعلم أين يذهب أو ماذا يفعل! يوم كان للأسرع والقوي وليس للتقي، يوم لا مكان للضعفاء والعجائز فهؤلاء أول من هلكوا دهسًا تحت الأقدام، يوم لم ينفع أحد ماله أو بنوه فالجميع تركوا كل شيء خلفهم إلا أنانيتهم المطلقة وحب نفسهم الشديد. حقًا غريزة البقاء تظهر ذلك الوحش الكامن بداخل كل إنسان. مع استمرار المطر الذي أغرق القرية بأكملها مع أهلها فقط، كأن تلك البقعة المتحركة مأمورة لتنفيذ أمر معين فما إن غطى المطر القرية بأكملها توقف تمامًا.

ما إن توقف المطر توقف الهرج والمطر، أعلنت الشمس أنها ما زالت متواجدة تشاهد ما يحدث، ومع ظهورها ظهرت الصورة القبيحة لحب الذات. توقف الجميع بأماكنهم ينظرون لأيديهم وأجسادهم غير مصدقين أنهم قد نجوا. بدؤوا في تدارك ما اقترفته أيديهم ناظرين إلى الأرض التي غُطيت بأجساد ممزقة ملابسهم لا عزاء عليهم يغطيهم الدم والتراب وعلامات لأحذية طبعت على وجوههم.

اعتقد أهل القرية أن الهول قد انتهى، وبدؤوا في تهدئة أنفسهم وحساب مصابهم، ناظرين لأي خسارة حدثت بأنها لا شيء أمام نجاتهم، عبثًا كانوا يحاولون إخماد تلك النبضة التحذيرية التي تنطلق بداخلهم بين الفينة والأخرى بأن ما زال هناك المزيد، وأن إشراق هذا النجم ما هو إلا مصادفة بحته وأن الأسوأ قادم لا محالة!

ظلوا على وقفتهم تلك لمدة ليست بالقليلة، يتطلعون بعضهم ببعض بعيون تفيض بالاتهام والتبرير بالوقت ذاته، اتهام كل فرد منهم للآخر بدلًا من مواجهة نفسه بهمجيته وانحطاطه، مواجهتهم بشعور الذنب الآكل لضمائرهم على ما اكتسبوا من دهس ودعس ودفع وإلقاء مقابل الحياة الزائفة ورفض لحقيقة الموت المكتوبة على أجبنة الجميع. تبريرهم لأنفسهم بأنهم إن لم يفعلوا ذلك لكان فعل بهم الميتون ما هو أسوأ وأن لا شيء أهم من النجاة في لحظات الهلاك. وأن هذا ناموس الدنيا وفطرة فطر الإنسان عليها فتشبع به حمضه النووي فأصبحت كالماء والهواء لازمة لمنع انقراضه.

ما حدث بعد ذلك جعلني أوقن أن من ماتوا كانوا شرفاء هؤلاء القوم وأتقياهم، فلقد فارقوا العذاب في بدايته بعد أن كفروا عن ذنوبهم سريعًا، لكن هؤلاء الواقفين ما زالت هناك ذنوب عالقة في كل خلية في أجسادهم وأنه حان وقت التطهير من الدنس. فما كاد أهل القرية يتنفسون الصعداء إلا ووجدوا أنفسهم محاطين بنيران لا يعلمون من أين أتت وكيف بدأت تزحف على الأرض زحفًا منتشرة بينهم بسرعة رهيبة مبتلعة كل ما يكون أمامها من جماد وزرع وإنسان. علمت الآن سبب هجرة الطيور لتلك البقعة الخربة وسبب حوم الضواري في الجوار فغريزتهم المتتبعة دومًا للجيفة قد أرشدتهم إلى وليمة دسمة تصيبهم بالتخمة ما تبقى من عمرهم.

حاول أهالي القرية الفرار، ولكن عبثًا ما كانوا يفعلون، تلألأ اللهب في دموعهم المتحجرة في مُقَلهم كانت كجرس الحريق المنطلق

بأنه قد حان وقت الاحتفال رقصًا على أرض تحمص التراب فيها من سخونتها وبدأ في الانصهار. كانوا يدورون في دوائر محاولين إيجاد منفذ أو جزء غير مشتعل للهروب من خلاله لكن حلقة النار كانت مكتملة لا خلل في رسمها. فتحت أبواب النار السبعة الحطمة، الهاوية، لظى، سقر، الجحيم، السعير، وجهنم ولن يغلقها إلا الإتيان على كل ما في هذه القرية.

أصوات صراخهم قبل أن تذوب حناجرهم كانت كمن يغني على أنغام سيمفونية الموت التي حفرت على صدورهم. كانوا كالشموع تتراقص نيرانها وتذوب طبقات أجسادها جلد تلاه لحم فعظم فتراب ذرته الرياح كارهة أن يكونوا تربة لزرع جديد ينبت رؤوس شياطين كالحنظل فقررت تشتيتهم وتفريق شملهم تاركة آثار منازلهم للعابرين. واضعة كلمة النهاية لقرية عرفت يومًا عبقًا بقرية الأشراف وما كان فيهم شريف!

التهمت النيران القرية وبدأت في الخبوت تلقائيا فالنار إن لم تجد ما تأكله أكلت نفسها. لم يقدر أحد على الاقتراب منها أو محاولة إطفائها. بل الأصح لم يوجد أحد ليتصل بالنجدة في قرية منزوية عن أعين الجميع إلا عابرو السبيل والمسافرون وقد انعدموا في هذا اليوم. خبت النيران وسكن غضبها ولم تترك إلا رائحة تفحم اللحم البشري التي تزكم الأنوف لعدة أسابيع، الرماد المتناثر الذي يلهب العيون، دخان متصاعد يخبر القاصي بأنه كانت توجد حفلة شواء عارمة في هذا المكان، مكان القرية الخاوي على عروشه لعله يكون عظة للعابرين!

لم يكن هناك شاهد واحد على تلك القرية التي اختفت تمامًا بين يوم وليلة، سوى من علمت بما سيحدث قبل حدوثه، من غُدر بها ظلمًا وبهتانًا، من فرت مسرعة قبل أن تدك الأرض دكًا قبل أن ينالها عقاب المسيئين وتهلك مع الهالكين، تلك التي وقفت على تلك التلة مرتين مرة مذهولة من جمال القرية وطهارتها، والثانية مذهولة من شياطين ارتدوا ثوب أنبياء الرحمة قطنوا في مدينة من الزمرد على أنقاض مستنقع عفن ما لبث أن أغرقوا فيه جميعًا. تلك التي كتبت لكم كل ما حدث، الراوي الوحيد، الصادق الذي لن ينجو من يشكك بحديثه، سالمين!

النهاية

مهلًا مهلًا إلى أين أنتم ذاهبون، تلك ليست نهاية قصتي، بل نهاية الاعترافات التي كتبتها لصحفية في جريدة ما، ترغب دومًا في إثارة الفتن والمشاكل، هؤلاء المقتنعون بأن خلف الحقيقة الجلية الظاهرة للعيان حقائق أخرى أكثر كارثية لا بد من فضحها. كانت غير مقتنعة بتحقيقات النيابة التي جاءت مقتضبة متوافقة مع مطالب الجميع بسرعة الانتهاء منها لتصبح تلك الحادثة طي النسيان سريعًا ليحل محلها شيء آخر تلوكه الألسنة ليرتاح المسؤولون وينامو قريري الأعين يشخرون بسبب كروشهم الكاتمة على صدورهم الكانزين فيها أموال الشعوب وعرقهم. تحقيقات انتهت كما ينتهي كل شيء غامض، خطأ فني أدى إلى كارثة مع توفير أضحية تذبح أمام الجميع ليرتاحوا بأن حق المنكوبين قد عاد أخيرًا، وأنهم حامي حمى المستضعفين!

انتهت التحقيقات بخطأ في خطوط الغاز أدى إلى تسربه مع وجود ماس كهربائي أشعل كل القرية وأنه لا صحة لأقوال بأن هناك مطرًا أو شيئًا من هذا القبيل. وأن المسؤول تمت محاسبته بإقالته من منصبه وحبسه سنتين. كلام لا يصدقه طفل لا يتجاوز عمره سنتان، لذا لم تصدقه تلك الصحفية التي ظلت تركض وراء ما حدث كخبطة صحفية قد تنقلها إلى جريدة أفضل وحال أفضل.

تواصلت معها وأعطيتها دليل صدقي بأنني أحد الناجين من هذه القرية وهي صور لي في هاتفي كنت قد التقطتها مع مجدي في أماكن مختلفة في القرية، كانت قد نشرت في إحدى المرات في مجلة عالمية مع خبر عن تواجد الجنة بين جبال مصرية. وسواء صدقت أم لا قررت أخذ ما سأجود عليها به ونشره مهما كانت صحته يكفيها اللغط والدعاية التي ستحدث لها بسبب ذلك مؤمنة دومًا أن الدعاية السيئة ما هي إلا نوع من الدعاية أيضًا يرفع صاحبه ويجعل اسمه يلمع في سماء الشهرة. وهي في منطقها هذا صدقت ولنعم الصادقين.

كان اتفاقي معها أن تنشر ما سأكتبه دون زيادة حرف أو نقصانه مزيلة إياه بتوقيعي. وعندما وافقت أخبرتها أنني سأرسل لها شهادتي مكتوبة في البريد العادي وليس الإلكتروني فأنا لا أحب التكنولوجيا بوجه عام. وليس بيني وبينها عمار. كنت عائدة الخطى إلى منزلي المتواضع محملة بأكياس تحتوي على مكونات وليمة اليوم. فشهيتي مفتوحة جدًا لتناول الطعام بشراهة منذ ما حدث بالقرية.

دلفت لمنزلي لأجد يدًا ممتدة تساعدني في حمل الأغراض عني ناقلًا إياها للمطبخ وهو مبتسم. عاد مرة أخرى ليجلس على الأريكة قطعة الأثاث الوحيدة بخلاف منضدة الطعام في منزلي.

- «نصف ساعة فقط سأحضر فيها الطعام لكلينا، لا تقلق».

- «هل أنت سعيدة بانتقامك الذي حصلت عليه أخيرًا؟».

كان ممسكًا يدي بإصبعيه يداعب سبابتي بأنامله مقربًا إياها من فمه ليلثمها. ألقيت نفسي بجواره مسندة رأسي على يدي الأخرى الممتدة على ظهر الأريكة التي ما إن استقررت عليها حتى حاوطني بها كما كان يفعل دومًا. وضعت يدي على فخذه كامتنان له وأنا أقول:

- «لولاك لما استطعت أن أنتقم من الجميع ابتداء من أبيك. لقد كنت يدي الباطشة التي تهلك كل أعدائي عندما قاموا بتقييد كلتا يديّ بمراقبتي المستمرة ووضعي تحت الأنظار. لقد كانت خطة تم احتساب كل حرف فيها بطريقة لا تقبل الخطأ أو التسويف. وأنت حقًا نفذتها بحذافيرها. لنكمل حديثنا بعد الطعام».

ثم نهضت متجهة بناحية المطبخ بينما هو كان يلهي نفسه بمتابعة بعض المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي.

داهمتني ذكريات كثيرة منذ مولدي أنا، ليل، هيثم، ممسكة بالسكين لتقطيع اللحم لشرائح صغيرة، ذكرتني حركتها بالسكين الذي زرعته والدتي في كبدي رغم صغر سني. كان تقطيع البصل لشرائح صغيرة يدمع عيني ويحرقها مثلما أحرقها الدمع يوم إنقاذ

حسن لي من الغرق، فلقد كان يقف منتظرًا تنفيذ والدتي لحكم إعدامها الذي أمهره بيده، حتى يبطله بطريقته الماكرة التي اعتاد عليها وهو العمل من خلف الستار. كلاعب ماهر يحرك عرائس قام هو بتصميمها دونما أن يظهر ظله في الصورة. كذب الغبي سالم عندما قال إنه يعلم حسن أكثر من أي شخص آخر، فلا أحد عرف حقيقته وحفظها كحفظه لخطوط يده مثلي!

أنقذني حسن ذلك اليوم من جحيم الغرق إلى جحيم أنكى وهو جحيم النفس البشرية، في البداية أوهمني أنه يحتفظ بي في هذا القبو ليمنع الأيدي الباطشة عن عنقي فلا يكسرها أحد. أخذ يطببني ويشفي جراحي ويحضر لي كل ما أشتهيه، ألبسني كل ما هو جديد وجميل. قلت إن الدنيا قد عوضتني عن شقائي وحان وقت حصاد صبري على بر والدتي رغم سفالتها. حمدت الله كثيرًا في سري بأن أعاد والدي في صورة أخرى أكثر رحمة، حكمة، قوة وسطوة. ظننت فيه الخير الكثير لكن بعض الظن إثم وجب تكفيري عنه.

وضعت المقلاة على النار قادحة فيها السمن ملقية بشرائح اللحم والبصل فيها والتي كانت تتلوى فوق النار إثر تقليبي لها بالملعقة لتنضج بهدوء. كم تلويت أسفل جسد حسن الذي كان يفوق وزني بثلاثة أضعاف على الأقل أحاول أن أقاومه وأمنع اغتصابه لي يوميًا غير مبالٍ بصغر سني واخضرار برعمي الذي جف وشاخ من قلة ترويته اهتمامًا وحبًا وحنانًا. كنت أنثر التوابل كالملح والفلفل فوق اللحم لتزيده لذة فوق لذته، كما كان ينثر هذا الحقير الكيتامين في فمي في ليالٍ كثيرة لم يكن يريد فيها مقاومتي وإنهاكي له قبل أن ينتهكني، هذه الليالي التي كان يرغب في التلذذ بجسدي دون جرح

أو خدش أو ركلة كنت دومًا ما أصاب بها قبل أن يتمكن من تقييدي تمامًا. تلك الليالي التي كان يرغب أن تكون من أسفله جثة هامدة واعية لكل ما يحدث فيها دون استطاعتها بأن تتحرك أو تبكي أو تصرخ اعتراضًا على من يعتليها.

تلك الصرخات التي كانت تصدر كل ليلة ودقيقة من هذا المنزل المهجور على أطراف القرية كنت صاحبتها. تلك الأصوات التي كان يعتقد أهل القرية أن مصدرها من عالم سفلي تحذر الجميع بعدم الاقتراب من المنزل أو دخوله. هذا ما زرعه حسن في عقولهم لعلمه اليقيني أنه يستطيع السيطرة عليهم ولن يجرؤ أحد من هؤلاء الخانعين أن يكسر أوامره على عكس تلك القابعة في قبو عفن لا يعلم أحد مكانه سواه التي كانت تتفنن في عصيان كل ما يقوله رغبة في الموت لا أكثر للهروب من سعير حسن ودناوته. علا صوتي بما كان يحوم في عقلي من أفكار محدثة ذلك القابع أمامي:

- «لم يكسر أحد أوامر حسن إلا أنت حتى وإن كان دون قصد منك يا جلال، هل تتذكر؟».

انتبه جلال أنني أحدثه فتبسم بهدوء كما كان يفعل دومًا. واضعًا هاتفه من يده:

- «نعم أتذكر جيدًا. كنت قد أحضرت أحد الحيوانات لأرسم على جسدها بالمدية التي كنت أخفيها في حقيبة مدرستي كتنفيس عن غضبي جراء ما فعله أنور عندما سرق حبيبتي. كنت أريد مكانًا لا يراني فيه أحد فيخبر والدي فينتهي الأمر بضربه لي كما كان يحدث دومًا، أي خطأ ولو صغير كنت أعاقب عليه أشد العقاب، فابن الشيخ

حسن لا يجب أن يخطئ، لأن خطئي سيمسه ويشوه صورته أمام أتباعه. لم ذكرتني يا زنبقتي؟».

قضم حديثه لعلمه بالخطأ الفادح الذي أرتكبه، وقبل اعتذاره وجد أحد الأطباق مهشمًا بجواره رغم مقصدي أن يهشم بوجهه:

- «أعتذر أقسم لك لم أقصد أن أناديك بهذا الاسم، أعلم مدى كرهك له لأن والدي كان يلقبك به دومًا لسواد شعرك. أقسم لك يا سالمين لم أقصد إغضابك، فلتهدئي».

تجاهلته أحضرت ورقتين كانتا على طرف الشارع المؤدي لمنزلي هذا، وضعتهما على المنضدة وسكبت فيهما الطعام نصفه لجلال والنصف الآخر لي. أحضرت الفلفل الحار لأسكب قليلًا منه فوق نصيب جلال، لكن يده أخذته قبل أن أمسكه وسكب لنفسه منه كثيرًا ووضعه بجواره. كان يتحدث وهو يمص إصبعه من بقايا بعض الطعام ليتذوقه:

- «كأول وجبة لنا، أتذكر هذا اليوم، كان أول لقاء بيننا بعد حديث تفصله الجدران لأكثر من شهر. إلى أن علمت كيف يفتح باب القبو. أحضرت الطعام الذي أعدته والدتي بناء على رغبتي شرائح لحم بالبصل لأتناوله معك، أردت أن أتقاسم معك وجبتي المفضلة ولم يكن بحوزتي أطباق فوضعته على بعض الأوراق التي كانت ملقاة بجوارك».

أخذ شريحة ووضعها بفمه يلوكها ببطء بين أسنانه مستمتعًا بطعمها كثيرًا، متحدثًا وهو يضع المزيد:

- «أووووه. كما كانت تطبخها أمي تمامًا. لا يفسدها إلا طعم السم الممزوج بالفلفل الحار، لم أكن لأسمح ليدك الشريفة يا حبيبتي أن تقتل أحدًا. فأنت قلتِها منذ برهة يسيرة أنا كنت دومًا يدك الباطشة التي تبطش بالجميع حتى نفسي».

دمعت عيناه وسقطت إحدى عبراته على شرائح اللحم مبتلعًا بقية دموعه مع غصته الممضوغة مع شريحة اللحم:

- «كم تبقى لي من الوقت؟».

- «ساعتان، لكنني لم أضع السم لك بالطعام. بل بمشروبك الغازي ووضعت أمامه ورقة تخبرك بأن به سمًا زعافًا إن أردت أن تشربه!».

أجبته وأنا أتناول الطعام بيدي دون أن أبالي ببكائه الصامت. تناول مشروبه بيد ثابتة لا تردد فيها. ورفعه على فمه متجرعًا إياه بشربة واحدة:

- «تعلمين أنني لن أقوى على الحياة من دونك».

صمت لبرهة يبتلع غضاضة الموت مع آخر رشفة مساعدة لعزرائيل في إتمام مهمته.

- «حسنًا لنستغلهما في استعادة ذكريات الماضي. اتفقنا؟».

وضعت لقمة من الطعام في فمه وأنا أكمل عنه:

- «عندما سمعت من يستجيب لصرخاتي بالسؤال عن هوية مصدرها، وعلى الرغم بكفري بكل الآلهة العابثة التي تدير هذا الكون، حمدت من في علاه على إرسال أحد ينجدني من الوحدة، لا وحش

كاسر مثل الوحدة يا جلال! رغم أنك كنت مثلي منزوع الأحلام بسبب والدك، لكن كما يقال حمار أعرج أستند عليه خير من السير وحيدة!».

ضحك على تشبيهي له بالحمار. فقال:

- «لم يدر بخلدك أبدًا أن من سيوضع في طريقك هو أنا. في هذا اليوم ارتعدت فرائسي، خفت أن تكون عفريتة من الجن أتت لتنتقم مما أفعله بالقط المضرج في دمائه بين يدي. تتبعت الصوت لأجد فتاة حبيسة تريدني أن أنقذها».

قهقهت عاليًا وشاركني هو في قهقهتي لعلمه بما سأقوله:

- «كانت فكرتك عن الإنقاذ خاطئة تمامًا. جلست خلف الباب تحكي لي ما تفعله بالحيوانات وكيف تعذبها لتعبر عن غضبك. لولا أنك صادفت فتاة لا مشاعر لها لكانت ماتت رعبًا من الخيالات التي كانت تأتيني ليلًا لرسم صورة لك بملامح لعلي أتعرف عليك يومًا ما».

- «نعم، كنت أحمق وما زلت. لكنك لم تأمني لي في بداية لقائنا. فأنت لم تخبريني أن من يحبسك في القبو هو عظيم الأمة حسن الهمام، إلا بعد شهر وخرجت من فمك بالخطأ البحت، وما أجمله خطأ».

كنا قد انتهينا من الطعام، فنهضنا من على الطاولة وجلسنا على الأريكة سويًا، كاثنين متحابين جمعهما القدر بعد فراق طويل قررا الخوض في غمار الماضي ليذهبا معًا إلى المستقبل بأيدٍ متشابكة

وأحلام وردية.

- «كان خطأ، لكن ما تلا الخطأ من معلومات عن حياتي السابقة وأن سجاني هو والدك دونما علم مني عن هويتك كان بمقصد مني ورغبة في ذلك. أردت للحمل أن يشاطره أحد معي. لكنك أيضًا لم تكن تثق بي فأنت لم تخبرني عن هويتك إلا بعد ذلك بكثير. المهم راقبت والدك في هذه الليلة ولم تخف أن تحضر في الليل خلفه لتعرف كيف يفتح القبو وقد علمت».

قبّل جبيني بقوة لا أعلم هل هي قبلة حب أم اعتذار على تلك الذكريات.

- «صدقيني لم أكن أعلم ما الذي يفعله بك إلا عندما رأيته بعد ذلك بسنوات عديدة. وأنت لم تخبريني أيضًا. إن كنت أخبرتني كنت سأحاول تهريبك من القبو يا غالية، لم أكن سأكتفي بالحضور والجلوس معك ومسامرتك يوميًا».

- «إلى أين كنت سأهرب يا جلال، لا أهل لي، وأم تريد محوي من الحياة، هذا القبو رغم بشاعته كان يحميني من سعار البشرية. لم أكن أرغب أكثر من صحبة أهفو لها بحديثي وقد أتيت أنت. خير الصحبة رغم أنك كنت تستغلني أيضًا».

ضحك ضامًا لي بقوة وهو يداعب خصلات شعري السوداء:

- «لا تنسين أبدًا أي صغيرة أو كبيرة. ذاكرة حديدية حقًا، لكنك لا تنكرين أن استغلالي هذا هو ما جعلك بهذا الكم من الثقافة، كنت أكره المذاكرة، أكره كل شيء يمكن أن أخطئ فيه مخافة عقاب

والدي. فأصبحت أوثر الكسل والخنوع وعدم الحركة والتفكير، فقط حتى لا أعاقب. كان يريدني كاملًا متناسيًا أن جمال البشر في نقصانهم، كيف للكمال أن يكون مقره النقصان. لذلك كنت أحضر لك واجباتي وكتبي لتحليها. وكنت كالدودة التي تلتهم الكتب بكل شراهة ولأنني ابن الشيخ حسن كنت أنجح دونما عناء. كنت أحضر لك الكتب من المكتبة وكان والدي يعتقد أنني من يقرؤها وفي الحقيقة كنت أنت خلف كل لحظاتي السعيدة في حياتي. لا تعلمين مدى سروري أنك معي حتى النهاية».

- «ولحظاتك التعيسة أيضًا. أتذكر هذا اليوم الذي أتيت لي ليلًا مخالفًا موعدك الذي اتفقنا عليه، هذا اليوم الذي كنت أرجوك فيه أن ترحل قبل حضور والدك لكن دومًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. سمعنا صوت خطواته يتردد صداها المرعب في جدران القبو الرطب. أخبرتك أنه مهما سمعت أو رأيت لا تخرج من أسفل الفراش الذي كان يزين القبو كقطعة وحيدة كصاحبته. رهبتك من والدك ساعدت كثيرًا في سماعك لتحذيراتك وسكونك أسفل الفراش لا تصدر صوتًا أو حركة إلى أن انتهى والدك ورحل».

أبعدني عنه قليلًا، جاذبًا أطراف أكمامه ليواري بها راحتيه واضعًا رأسه بينهما. وظل يبكي لم تفارقه تلك الذكرى طوال حياته. لم يفارق أذنه لهاث أبيه وهو يعتليني. ملست على ظهره لأخفف من ألمه. قال بصوت مختنق:

- «ما زلت أتذكر كلماته -ما سبب هدوئك اليوم، لم تصارعيني أو تضربيني كما تفعلين كل يوم هل كسرت كرامتك أخيرًا واقتنعت

أنك غانيتي- في هذا اليوم علمت سبب هدوئك خوفًا من أخرج أنا ويحدث ما لا يحمد عقباه، لم تعلمي أن من معك تربى على تنفيذ الأوامر دونما تفكير أو تحوير أو تبديل، أكسل من يفكر ويقرر، بل ينفذ فقط. في هذا اليوم كرهته ليس بسبب كل ما كان يفعله معي، ليس بسبب الصورة المثلى لرجل البر والتقوى التي تهشمت، لمثلي الأعلى الذي أصبح أضحوكة بعد ذلك. بل بسبب أنني رأيت والدي ينتهك حرم حبيبتي الوحيدة جبرًا، إنه كان يفعل ذلك يوميًا غير عابئ بمرضك أو صحتك، والأدهى أنه جعلني أتيقن كم أنا جبان خانع لا حيلة لي ولا قوة».

جذبته من يده لنرقص سويًا على أنغام النهاية غير المعزوفة، ليتناسى هذه المحنة التي فرضت نفسها وبقوة على نهايته التي أصبحت وشيكة، كأنه لا يكفيه ما سيلاقيه من ألم جسدي بعد قليل فأضاف ألمه النفسي الذي أريد تخليصه منه.

- «لولا تلك الحادثة لما كنت ساعدتني في قتل والدك، فمنذ هذا اليوم وأنت ترغب في قتله لكنني كنت أمنعك دومًا، كنت أريد موته في وقت محدد وساعة محددة. كان لا بد من بلوغك أولًا حتى تستطيع التصرف في كل ممتلكاته أيها المليونير، فلولا تلك الممتلكات لما صح لنا تنفيذ انتقامنا من هذه القرية الظالم أهلها، أبوك استغل علمه ووضع دينًا جديدًا يلائم الجميع، دين يغفر للغني ويستغل الفقير، أبوك وسالم حضرا للقرية المناسبة لهما ولشهواتهما، قرية فقيرة تناستها الحكومة، تعيش بلا أساسيات الحياة الآدمية، قررا تحويلها لجنة هذا بماله وذاك بحديثه المفوه لتكون ستارًا لكل أعمالهم غير المشروعة. غرور أبيك واعتزازه بذكائه قام بخداع

الجميع وسيطر بطريقة تامة على عقول قاطني القرية. إذ غطى كل شيء بلباس الدين، محضرًا آيات وأسفارًا من الكتب السماوية لتبرر حديثه وخطبه في هؤلاء المغيبة عقولهم. خلق دينًا جديدًا تقبله الجميع لأنه يوافق شهواتهم، وطبيعتهم الشيطانية الشرهة التي لا ترغب في حد ولا رابط. فقراء القرية أصابهم الغنى والشبع حد تكور البطون نتاج تلك الكفارات التي يدفعها الأغنياء عن ذنوبهم فأحبوا هذا الدين وعشقوه رغم أن تلك الذنوب كانت ترتكب في حقهم. لكن إن أردت التحكم في إنسان املك قوت يومه وأحلامه! فمن كان منهم سيقبل العودة للجوع بعد الشبع، للحصير بعد الفراش، لمهلهل الثياب بعد الفراء والنعومة. من سيقبل الشقاء بعد الراحة. بينما تقبل الأغنياء ذلك الدين الملتوي لأنه مخدر لضمائرهم، فما أجمله من دين هذا الذي في كنفه متاح لنا ارتكاب كل المحرمات مقابل دفع ثمنها تحت مسمى كفارات فأقبلوا بنهم على كل شهواتهم ليشبعوها بكل طريقة ممكنة. فإن سألهم مالك أمر آخرتهم أخبروه أنها فتوى من المسؤول عن دينه معتقدين أن هذا سيحجب عنهم عقوبته إن وجدت. أبوك بخلاف أعماله غير المشروعة مع سالم استفاد بإشباع غروره وأصبح ملكًا متوجًا على الجميع، ألبس الجميع لجامًا وساقهم إلى حيث يريد. إذا أردت أن تكفر عن ذنبك ادفع كفارة أو اصنع معروفًا على حجم ذنبك حتى يزول مثل فكرة الشفاعة وصلب المسيح وحائط المبكى، مثل فكرة إنارة شمعة والحج وغيرها، تلك الأفكار التي وضعت بالأديان فقط لإرضاء غرور الإنسان وشهواته والمستفيد الوحيد هو من وضعها أو بالأصح من قام بتأويلها على غير محل. أبوك أراد السلطة والنفوذ دون مساوئها، فسيطر بالدين

على عقول أصحاب السلطة الحقيقية، جاعلهم كالعرائس كل خيوطهم بيده. إن أردت إفساد دولة أفسد الدين والأغنياء معًا. هذا ما حدث بالقرية، أبوك جعل الدين أداة لتنفيذ الرغبات والشهوات مقابل حفنة من المال وسيطر على كل طبقات المجتمع بالقرية، جعل من في السلطة يحترمونه ويقدرونه للتحويل الجذري الذي صنعه في القرية. وبذلك حصد كل المميزات وهو غير مسؤول قانونًا عما يحدث أسفل القرية لو اكتشف كل شيء. أبوك كان إبليسي التفكير حقًا وقد علمني ذلك!».

صمت جلال تمامًا إلى أن انتهيت من حديثي تمامًا، حملني وهو يدور نصف دورة حول مركزه لكنه لم يكملها بسبب هجوم آلام النهاية عليه. جلس على نصف ركبتيه واضعًا يده على بطنه لدقيقة كاملة. جلست بجواره وأمسكت رأسه ووضعته على حجري، أملّس على شعره، أؤازره فيما يشعر، أخفف عليه لحظات تلاشيه. نظر لي بهدوء وقد زال التقلص الذي أعلم أنه سيداهمه بعد قليل بشراهة أكثر.

- «أعلم تمامًا ما فعله والدي وما ارتكبته والدتك من جرم في حقك. لكن ما لا أعلمه هو لمَ انتقمت من القرية بأكملها، إن كان انتقامك من هذين الاثنين فقط، وكيف علمت كل شيء عن أهل القرية؟ وكيف عرفت هؤلاء القوم الذين أحضروا من إمكانيات استعملتها لانتقامك المسرحي؟».

كنت أداعب وجهه، أمسح عنه قطرات العرق التي قد بدأت في التراكم. انحنيت وقبلت خده الأيسر وأنا أقول:

- «أما عن المعلومات عن القرية فلقد كنت مستودع أسرار والدك، كراهب متخفٍّ خلف ستار يأتي كل ليلة أمامي ليعترف لي بكل شيء فعله، سمعه، حض على ارتكابه، يترك في خزنة خلف أحد الجدران في حجرتي المظلمة كل ما كان يؤتمن عليه من عباده المخلصين. علمت عن مجدي وأبيهم وعن سالم ودواره وعن مراد والطبيب الشرعي والده، لقد كنت العين الباصرة التي ترى كل شيء ولا يراها أحد. من قال إن انتقامي من اثنين فقط! بل شارك الجميع في ظلمي وقهري. إن لم يكن فعلًا كان صمتًا وقبولًا لحاجة أو خوفًا لا يهم المهم فعل الصمت البتار في ذاته. بينما كيف علمت هؤلاء القوم الذين أرسلتك لهم؟ فهم كانوا زبائن لأبيك، لا تستعجب فكما أخبرتك أن أباك وسالم كانت لهما دولة أسفل القرية لكل ما هو غير مشروع يمكن أن تتخيله. استغلا أن القرية نائية بعيدة ورفضا مظاهر الثراء حتى لا يشك أحد بهما وألبسا أعمالهما لباس البر والتقوى فكان هذا أفضل ستار لما يحدث أسفل هذا الرداء. كنت أراقب كل أعماله من فتحة صغيرة بالجدار، تلك التي كنت أسمع منها كل أحاديث واتفاقات أبيك يا جلال، هذا غير إخباري من والدك بكل وساخته وتعليمي كل طرقه كان يعدني لأن أكون مثله ملكًا على مملكته السفلية، لكنه لم ينتبه أن الملك لا يقبل له شريكًا في الحكم فأقصيته هو ومملكته. من هنا علمت كل أسرار أهل القرية وانتظرت كما ينتظر الصياد فريسته ليشتد عودي وأنتقم من الجميع. ما كان يصبرني على تلك الأيام هو تلك الكتب التي كنت تحضرها لي يا جلال».

قبض على يدي بيده المرتجفة وضم ركبته لصدره، ذكرني بهيثم

عند لحظاته الأخيرة. حاول ألا يظهر ما به معتقدًا أن لدي مشاعر فسأحس بألمه.

- «كان يحبك كثيرًا يا سومتي. أحبك وكرهني. قربك وأبعدني. رغم أنني كنت ولده الوحيد. أنا لم أكن أعلم أي شيئًا عن والدي إلا ما أخبرتني أنت به. كانت دائمًا مناقشته لي تتلخص في التعدي بالضرب، لا يريد أن يعلمني شيئًا عن أعماله وكان دومًا يعاملني كأنني صفر على الشمال كما يقولون لا قيمة لي تمامًا».

هززت رأسي رفضًا لحديثه:

- «عيبك الخطير يا جلال أنك كسول وما زلت كسولًا، تنفذ ما يطلب منك دون حتى أن تبحث عما خلفه أو لمَ طلب منك ذلك؟ بل تنفذه بسرعة دون محاولة الابتكار لترجع لكسلك. والدك كان يبعدك بتصرفاته حتى لا تحتقره أو يزول اعتزازك به من عقلك وقلبك. حتى لا يفقد قيمته عندك. كان يريد أن يراك فعلًا كاملًا لذلك كان يقسو عليك. لم يكن يتحمل أن يتحدث أحد عنك بسوء لذلك كان يصب جام غضبه عليك كلما أتت شكوى من فم الرعاع كما كان يسميهم. كان يعتقد أن قسوته تلك هي ما ستجعلك رجلًا قوي الشكيمة ناجحًا، مصدر مفخرة له ولكل أهل القرية. أن تصبح كنجمة عالية لا يمكن أن يطال مكانها أحد، كل ما يستطيعون فعله معك فقط التطلع لك من بعيد وحسدك على ما أنت فيه، هذا ما أخبرني به والدك في إحدى المرات عندما أتى ذكرك عرضًا. كان ما يرعبه أن تعلم وجهه الآخر لكن يا للأسف تصرفه أتى بنتائج عكسية بداخلك فجعلك تمقته، مساهمًا في قتلك له!».

نظر لي مطولًا وتنهد. كان الاحتمالان في عقله أحدهما أصعب من الآخر. إما إنني أكذب عليه وأواسيه في لحظاته الأخيرة وهذا يعني كره والده غير المبرر وتصرفاته غير الآدمية معه فقط للحفاظ على صورته أمام أهل القرية. أو أن كلامي صادق ووالده كان يحبه، حتى وإن كانت طريقة محبته خاطئة لكنه كان يحبه، وهو من كان يعتقد الكره وأنني لم أصحح له معلوماته لاستغلاله في خطتي الكبرى. ظللت أشاهده وأعلم ما يدور في عقله من تساؤلات. من نظرتي له علم صدق حديثي وصدق ظنونه. أخفى عني عينه في قدمي وبدأ في البكاء بصوت شاهق، لا أعلم هل سببه تأنيب ضميره على ما اقترفته يده، أم الألم الحاد الذي يمزقه من الداخل الآن. يبدو أن قلبه وجوفه كانا يتمزقان!

بدأ في السعال بعنف فأحضرت له كيسًا بلاستيكيًا ليفرغ ما يتمزع من أحشائه وينفصل عنها به. كنت أحتضن رأسه كأم رؤوم تحاول إماطة الأذى عن وليدها. ظل يتقيأ لأكثر من عشر دقائق إلى أن أخرج عصارة معدته مخلوطة بخطوط حمراء نتاج حدة هذه التقلصات.

- «أتألم يا سومتي. أتألم قلبًا وقهرًا. تعلمت منك لغتك التي كنت دومًا أجدها غريبة عن زمننا هذا. أنت أيضًا غريبة عن زمننا هذا. أتألم لخداعك لي، ولظلمي لأبي».

- «جلال، أنا لم أخدعك وأنت تعلم هذا. هذا ليس وقت الكذب على أنفسنا، بل الصراحة المطلقة. حتى وإن أخبرتك كنت ستقتل أباك لقد كان ذريعة كسلك ما يفعله هو بك. كنت ستقتله لما فعله بي.

كنت ستجد ألف سبب لتقتلهم، جميعهم لا يتعلقون بمحبته لك من عدمه، بل بتصرفاته معك. أنت لم تظلمه وأنا لم أظلم أحدًا، بل طبقنا العدل الغائب وأرجعنا كل الحقوق لأصحابها المتمثلين في شخصي وشخصك. القرية بأكملها من لم يخطئ في حقي ارتكب خطيئة كبيرة تستوجب الموت. لقد كنا ملائكة القصاص، هل فهمت؟».

بصوت واهن تلفظ بصعوبة:

- «هل تفهمينني ما مقصدك؟».

كان قد بدأ في الهذيان والتيه، لكنني لن أصمت، لن أكسر وعدي له بشرح كل ما حدث حتى وإن غاب عنى قليلًا سيعود وأنا على علم بهذا. جلست خلفه مسندة ظهري إلى الحائط، سحبته بهدوء بين فخذيّ مسندة رأسه على كتفي، وظهره على صدري، حاوطته من خاصرته بكلتا ذراعي ليشعر بالأمان وأنه ليس وحيدًا. علمت أنه يستمع، رغم ما فيه، علمت فضغطت على صدره يعلم دعمي له في كلماته الأخيرة:

- «لقد كنا الملائكة التي استغلت أدوات لوسيفر أبيك وما تحصل عليه يومًا لتدمير مملكته. لقد أخطأ الجميع بحقي وحقك. بدءًا من والدتي وما فعلته مرورًا بوالدك وانتهاكه لحرمتي وحرمتك معي. لهذا الذي سمحت السافلة سنية بتلويث سمعة أبي وتلطيخ سمعته بسببه. كم وددت أن أقتله بيدي العاريتين لأرى عذابها وحزنها عليه. لمراد الذي كان يحضر مخدر الكيتامين لوالدك حتى يسيطر على غضبي وتمردي بدلًا من أذيتي له كل يوم، كنت قد كبرت وكان أبوك قد كبر أيضًا فكانت قوتي أصبحت ضعف قوته وفي النهاية لم يقو

عليّ، لأكون كالجثة الهامدة يفرغ فيها شهوته ويرحل دونما اعتبار لما أريد لمرضي لأحلامي لقلبي، دونما اعتبار لك ولعلاقتك بي التي لم يكن يعلم عنها شيئًا مطلقًا. لأبيه الذي حرر شهادة وفاة لأبي ولي دونما أن يعلم الحقيقة، لمجدي وإخوته. والجميع».

كان متفهمًا لكل ما أقوله. بصوت محشرج واهن قال:

- «قبل أن تبدأ بحكايتنا الأخيرة، سؤال أريد إجابته لأرتاح. هل أحببت مجدي يومًا؟ كانت معاملتك معه كلها شوق وشغف ومداعبة، هل حقًا أحببته؟».

انحنيت لاثمة شفتيه وأنا أطمئنه:

- «إن كان هناك شخص يستحق محبتي لكان أنت يا جلال، لكن قلبي لم يوجد يومًا، أخذه أبي معه عندما رحل عن الدنيا. مجدي كان تمثيلًا لأنفذ مخططي هل فهمت؟ لا أكن مشاعر من أي نوع، لم أشعر يومًا لا بفرح أو حزن أو شفقه، كان كله تصنعًا. لكن على الرغم من هذا فأنت بمكان آخر يا جلال. مكان لم يصل إليه أحد قبلك ولن يصل إليه أحد بعدك بالتأكيد أعدك بذلك، لكنني لم أحبك ولن أكذب عليك وأقول لك أحبك ولو زورًا. لن أكذب على نفسي يومًا فأنت نفسي يا جلال. هل فهمت؟».

شعرت بابتسامته الدامية رغم عدم رؤيتي لوجهه، هذا الدم الذي أحسست بسخونته على إبهامي المقارب لفمه بسبب احتوائي له وهو يقول:

- «فهمت. لكنني أحبك يا ليل، يا سالمين، يا سومتي. أحبك يا

دماري. الآن أكملي حديثك هل حقًا أعطاك والدي صكوك الملكية الخاصة بوالد مجدي؟».

هززت رأسي نافية:

- «لا أبدًا. صكوك الملكية كانت بداخل خزنة مظلمة في قبو عفن أسفل منزل مهجور على أطراف القرية. ولإحقاق الحق لم يخن والدك أمانة أبو مجدي فلم يعطني الصكوك، بل أنا من تحصلت عليها بعد موته. وأعطيتها لهم قبل أن أقتلهم أجمعين. لقد كانت تقبع بجوار خمس ماسات تحصل حسن على خمسة منها من تاجر آثار وأنا أكملت الاثنتين الأخريين. تلك الماسات التي أهداها هذا التاجر لحسن لأنه قد أفتى له بحل المتاجرة بالآثار التي وجدها مدفونة في الأرض لاعتبار أنها من الكنوز التي يجوز الإتجار فيها. لكن مع كل صفقة يتمها لا بد أن يبني مسجدًا من مبالغ تلك الصفقة، أو مشفى أو أي شيء يساعد به الناس! كنت أعلم العلم اليقيني أن يد مراد السارقة ستطال تلك الماسات فور رؤيتها لذلك وضعت له فيروسًا أسفل الماسات، هذا الفيروس الذي تحصل عليه ذات الرجل في قارورة من أحد المقابر الأثرية مخبرًا حسن ألا يفتحها أبدًا لأنها ستصيبه بمرض جلدي معدٍ وقيح بشع المنظر وستصبح رائحته كريهة وسيموت بالنهاية، هذا ما جاء بالتحذير المرفق بالقارورة. لا أعلم حقيقة المرض الذي كان بالقارورتين لكن علمت أنها فتاكة فالقدماء لم يمزحوا يومًا في تحذير سطروه للاحقين لهم. بالطبع كان الشيخ حسن يضع كل ما يجنيه من مهنته الثانية بعيدًا عن يد عائلته حتى لا يستفسروا عن مصدرها. فكان يخبئ كل شيء في ذلك القبو الذي كنت أعيش فيه ومن هنا تحصلت عليه.

كم كنت أتمنى أن يخيب ظني وألا يسرق مراد الماسات كنت سأعفو عن الجميع إن فعلها صدقني، كنت سأظن أن ما زال بهم خير يرجى منه ويمكن إصلاحه، لكن للأسف ظني كان بمحله وسرق الماسات التي وضعت هذا الفيروس بأسفلها لم يكن ألم المرض واستحقار الناس له نابذين إياه كافيًا بأن يشفي غليلي، لذلك اقترحت حرقه حيًا، لأرى إلى مدى قد يتمادى هؤلاء القوم لإنقاذ أنفسهم، إلى أي مدى وصل انحطاطهم. لقد أردت أن استهزئ بهم فوضعت ما عاناه من أعراض على الإنترنت فأخرج أنه مصاب إما بالطاعون أو بالالتهاب السحائي. كنت أسخر من عقلهم الضحل الذي أبدل كل المعرفة والكتب ببضعة سطور سطرت من مجهول لا يعلم صدقها من عدمه. حقًا لا أعلم ما كُنه ما أصابه من مرض أو كيفية علاجه. كل ما أعلمه أن حرقه شفى غليلي منه ومن والده. هذا الذي جرب أن يظلم وينتهك حرمة منزله وتنتهي حياة ابنه ظلمًا وزورًا ولا يستطيع أن يأخذ حقه ممن قتلوه. ما أذاقه للناس طوال عمره ذاقه بين ليلة وضحاها. من كان يجمع له المال حرق مع ماله أمام ناظره ولم يحرك ساكنًا لينقذ أيهما. يستحق حقًا هو وابنه ما حدث لهما».

كان جرس المنزل يدق فذهبت لأفتح لمن أحضر لي ما أحتاجه من ملابس لي ولجلال. فلا أحد يحضر هنا إلا بدعوة مني. أعطيت المال له وأخذت الأكياس، صدم من المبلغ الذي أنقدته إياه فأراد أن يرجع ثلاثة أرباعه وهو يخبرني أنه أخذ حقه وما يزيد عليه بكثير، لكنني أجبته بأنه يستحقه وليذهب ليتنعم به، كان يدعو لي كثيرًا بالهداية وصلاح الحال وزيادة الرزق. تبسمت وأغلقت الباب بوجهه وعدت للراقد أمامي الذي كان وجهه كمرآة عاكسة للألم الذي بداخله رغم

نومه. كنت أعتقد أن المخدر الذي وضعته بالطعام لن يجعله يشعر بشيء عند لفظ أنفاسه لكن لكم كنت واهية.

كان تأثير المخدر واشكًا على النفاذ وسيعود لرشده لذلك جلست بجواره مجددًا حتى لا يصيبه الذعر، أعلم أنه يكره الوحدة والنبذ، فلقد نبذه الجميع في صغره لما كان يفعله في الحيوانات وبسبب هدوئه المخيف وبنيته الضعيفة. لم تحبه الفتيات أيضًا بسبب خجله وانطوائيته فهرب من الجميع لي ولمنزلي المهجور، تلك التي رفضت تمامًا أن تحكم عليه، بل تقبلته بكل علاته وساعدته عليها. فتح عيونه في وهن وكانت هناك مادة رغوية على جانب فمه يهمس باسمي.

- «أنا هنا لا تقلق. بجوارك دومًا وأبدًا».

- «لمَ توقفت عن الحكايات، اجعليها حكاية قبل النوم الأخيرة لي! فلا تتوقفي إلى أن يصدر صوت انقطاع الصياح معلنًا نهاية عمري».

- «كنت أعلم أنك تحب قتل القطط وتعذيبها دون أي حيوان آخر، كأنك كنت تكره مشاكستها وغرورها وحريتها ومحبة الناس لها. فكنت تنتقم من حيوان لا فائدة منه حصل على كل ما تتمناه يومًا. لذلك أحضرت لك هدية ميلادك مئة قط لتعذبها وتقتلها وتنشر بها الرعب بين الناس، هديتي لك في كل هذا المخطط. لم يكن لشيء إلا لإسعادك وكمكافأة لك على مساعدتك لي دومًا».

- «أسعدتني حقًا تلك المفاجأة. تفكيرك فيما أرغب يسعدني، فهو دليل على اهتمامك بي حتى وإن أنكرت هذا الاهتمام. هل تتذكرين ليلة مقتل والدي؟».

- «وهل هذه ليلة تنسى. كنت قد بلغت قبل تلك الليلة ببضعة أشهر، لذا أخبرتك أن لحظة الانتقام قد حانت. ترددت في بداية الأمر رأيت ترددك في نظرتك الغائمة تلك الليلة. لم توافق إلا عندما قلت لك إنه لن يتألم، في هذا اليوم طلبت منه أن يحضر لي طعام ولنأكل سويًا، كنت أنت أحضرت التيفرانيل ذات العلاج الذي مات به والد مجدي. أنا قتلت الشيخ حسن بنفس الطريقة فلا بد لصانع السم أن يتذوقه! جعلتك تتمدد أسفل الفراش وعندما انتهينا من تناول الطعام ناولته العصير المخلوط بهذا العلاج. كان قد بدأ في تحسس جسدي معتقدًا أنني راضية عنه، عندما داهمته أعراض هذا الدواء القاتلة. خرجت أنت من أسفل الفراش، لا أعتقد حقًا أن تلك الأزمة التي أصابته بسبب العصير، بل بسبب رؤيتك له على حقيقته، كل ما كان يطمح فيه هو عدم معرفتك لحقيقته فانهدم ذلك الطموح على رأسه فهشمه وهشم قلبه معه. هذا اليوم لن أنسى نظرة الذل والانكسار في عينه. لن أنسى نظرة المرارة في عينك ولن أنسى نظرة الشماتة التي توّجت عيني وجعلتها!

جعلتك تحمله وتضعه في فراشه لتكتشف خادمتكم موته في صباح اليوم التالي، ولأهرب أنا من القبو إلى القاهرة في مكان قريب من عمل مجدي لأقابله هناك صدفة بعد أن اشتريت أنت لي سيارة وثيابًا جديدة وحجزت لي في منتجع لأسترد عافيتي وجمالي. بعد موت أبيك بأسبوع جعلتك تبيع كل ما كان يملكه لنشتري معدات خطتنا، أصبحت مليونيرًا بنصف ممتلكاته فقط، كان يمكنك أن تهرب بالمال، أن تتركني، أن تبدأ حياة جديدة بعيدًا عن أبيك وسطوته، لكنك لم تفكر واخترت البقاء معي للنهاية».

نفدت قوته لكنه جاهد ليشاركني تسامرنا الأخير: «لأني كنت أحبك، اهتممت بك طوال سنوات معرفتنا لهيامي بك. استمررت معك لأن انتقامك هو انتقامي. كنت على أمل أن نحيا بعد هذا الانتقام سويًا ونكون عائلة ونعيش حقًا. لكن بعد رؤيتي لوجهك بعدما هلكت القرية أن غضبك لم يقل ولو بنسبة ضئيلة جدًا».

أحضرت له الماء ليروي ظمأه فتناول مني الكوب، شرب منه قليلًا، وبدأ في التقيؤ من جديد أمسكت رأسه وهو يتقيأ حتى لا يصاب بالدوار.

- «أعتذر أنني لم أحقق لك حلمك بتحقيق عائلة تحبك، لكنني عوضت ذلك بالقطط. لنعود لقصتنا هل تعلم فور أن رأى مجدي مظاهر الثراء الفاحش التي كنت أتنعم بها قرر أنني فرصته للحصول على المال ما دام والدهم قرر منع المال عنهم. فكان كالكلب المطيع ينفذ كل ما أطلبه منه، حتى عندما طلبت زيارة قريته ورؤيتها على الحقيقة، فلقد كنت لا أصدقه حقًا فيما يقوله على جمال القرية، فلقد تغيرت القرية كثيرًا في تلك السنوات التي قبعتها في القبو. وذهلت مما رأت عيني عندما أتيت للقرية بشخصية سالمين. لقد ارتديت الفستان الأحمر الذي أحضره لك والدي يوم مماته لألبسه له في هذا اليوم وهو يناديني بزنبقته السوداء ويطلب مني أن أناديه بوالدي. لقد كان أبوك مقززًا حقًا يغير اشمئزازي لدرجة أنني كنت أفرغ كل ما في معدتي بعد كل مرة يضاجعني فيها، ارتديت هذا الفستان وحضرت به أربعينه لأغيظه وأجعله يتقلب في رقدته. هل تعلم في هذا اليوم لم أبالِ أن يراني أحد ذهبت ورقصت كثيرًا على قبره

ونثرت عليه الكثير من الزنابق السوداء».

كان يرتجف من كثرة الألم الممزوج بالحمى، يتصبب عرقًا فأخذته بين ذراعي مجددًا مسندة رأسه على صدري «هل تتذكر ليلة مقتل إخوة مجدي، لقد وضعت لهم ذات السم في المشروب الذي أسقيتهم إياه، ما عدا مجدي خلا كوبه من السم، كنت أريد أن أذيقه الألم قدر المستطاع، لا أن أقتله بسهولة كما مات إخوته. كان لا بد أن يبث الرعب بقلبه وأن يتألم وينهار ويفقد كل من أحبه يومًا، أن يشهد النهاية، أن تتكسر عظامه أسفل الأنقاض وأن يحترق مع الباقين».

أغمض عينيه ليستريح وهو يغمغم:

- «لم قتلتهم؟ حقيقة وبعيدًا عن الخطايا وهذا الحديث الذي لا طائل منه. لا تلبسي انتقامك غير ثوبه».

مططت شفتي السفلى ورفعت حاجبي الأيسر وأنا أقول:

- «لأنهم قتلوا والدهم فلم يتسنّ لي الانتقام منه. لم أصب جام غضبي عليه. حالوا بيني وبين قتله فزادوا سعير غضبي. من هم ليقفوا أمام شيء أريده، لم أكن سأقبل أبدًا إلا الانتقام من والد أنور، كيف وهو السبب في كل ما حدث لي، لم يكتف بزوجته، لم يكتف بوالدتي وعاهراته. أراد طفلة صغيرة كأنه خلق للاستحواذ على كل النساء. لذلك قتلتهم جميعًا، تعمدت أن يموت أنور مفضوحًا ملوثًا بعاره مثلما فضحك في صغركم. وتركت مجدي لأنه كان يذكرني بعفونة والده فنال ما كنت قد خططت لعقابه به. هذه هي الحقيقة يا رفيق كفاحي».

كان بدأ يفيق استفاقة الموت وسكراته وهو يهمهم:

- «أتذكر هذا اليوم جيدًا، تسللت من الباب الخفي ووضعت بضع قطرات عطرية في فمهم، ظنوا أنها شيء ما سيسبب هلاكهم، في الوقت ذاته الذي كنت قد حددتِه مسبقًا بيننا، قبل بداية ظهور أعراض السم بخمس دقائق. كانت فريدة وهيثم مستسلمين تمامًا لمصيرهم، لكن أنور هو من قاوم بسبب عريه وخوفه أن يموت على تلك الحالة، لكن السم كان قد بدأ في إنهاك قوته فلم يقدر على مجابهتي ممزعًا جزءًا من ملابسي وأخذه بين يديه!».

جلال كان يتحدث بشفاه تقطر دمًا في كل كلمة يتفوه بها. لذلك وضعت يدي على وجهه ليصمت.

- «اهدأ ولا تنهك نفسك في الحديث، هذا اليوم تصنعت رؤيتي لك ولكل الأموات في القرية وأصدرت تلك الصرخة لجلب مجدي خارج المنزل لحين أن تنتهي من كل ما أمرتك به. كنت خير معين لي حقًا يا جلال في هذا اليوم. فلولاك لما كنت سأستطيع حمل تلك الجثث مرة أخرى لأنزل بها للحظيرة».

- «سؤال يا مهجتي، لمَ كنت تطالبين مجدي بإبلاغ الشرطة؟ ألم تخافي أن يفتضح أمرك؟».

- «بل كنت على يقين بأن مجدي لن يفعل، خوفه من أهل القرية، ومن الفتك به. حال دون ذلك. على الرغم من حزنه على إخوته إلا أن جزءًا منه كان سعيدًا فكل ما ملكه أبوه يومًا سيصبح ملكه هو فقط يتنعم به كيفما يشاء لم يعلم أنني أقف له بالمرصاد. عندما رأيت قطعة القماش التي مزعت من ملابسك بيد أنور كان لا بد أن أجازف

بقول الحقيقة أن هذا من فعل بشري وليس شبحًا، حتى يرفض هو وعقله الفكرة فلا يفكر فيها بعد ذلك. كان لا بد أن أفتعل ضجة حتى يتمنى هو اختفاء تلك القطعة من الوجود التي تذكره بهذا اليوم الأسود، فلا يتفكر فيها، بل يذويها في جنب قصي في ذاكرته لذلك لم يسأل عنها بعد ذلك بل حرقتها حتى لا تكشف كل مخططاتي. دوما أردت أن أعلمك أن تدرس خصمك جيدًا حتى تعرف كيف تتعامل معه وتلاعبه جيدًا».

- «عندما رأيت جثة فريدة في كفنها الذي صممتِه فيه تذكرت يوم مماتي، هذا اليوم الذي دفنت في القبر، كان ما يرعبني ألا تأتي وتخرجيني من ظلمة القبر، تعلمين أنني أخاف الظلام وأرهبه».

آه من هذا اليوم كان يومًا عصيبًا تذكرت كل تفاصيله بعد حديث جلال. لقد أعطيته الميدزولام ليقع في غيبوبة لمدة يومين حتى لا يشك أحد أبدًا في حياته إن تحرك بطريقة مفاجئة خوفًا منه بسبب الظلام فأنا أعلمه جيدًا، جعلت أحد الأشخاص يزور شهادة وفاة له وتنكرت في ملابس طبيب وأخبرت الخادمة أنني طبيب مقيم جديد للقرية، تلك الساذجة صدقت حديثي معلنة بصياحها خبر وفاته. ومعها ما يثبت هذه الوفاة تلك الشهادة المزورة، أتذكر أنني من كفنته في هذا اليوم حتى لا يقترب منه أحد إلا وهو مغلف ومحمول على الأكتاف. أتذكر قبل هذا اليوم أرسلت لوالد مراد دعوة لحضور مؤتمر خارج مصر نهائيًا فقط لأبعده عن القرية لمدة أسبوعين فيكون كل شيء قد انتهى. ذهبت بعد ذلك بجوار القبر الذي كان من المفترض أن يحوي جثته وظللت أنتظر إلى أن أتى أهل القرية ودفنوه ورحلوا. كان قبيل المغرب بدقائق قليلة أتذكر هذا جيدًا. لقد

اخترت موعد وفاته بدقة متناهية. حتى يدفن عند غياب الشمس فيرحل الجميع إلى منازلهم ويكون الإسمنت ما زال طريًا لم يجف بعد فيكون سهلًا على فتاة مثلي هدم باب المقبرة بسهولة وإخراجه منها. كنت قد أحضرت عربة تدفع وضعته عليها ودفعته إلى أن أوصلته للمنزل المهجور ودثرته جيدًا وتركته نائمًا إلى أن يستفيق من العلاج الذي تناوله. وعدت فأغلقت المقبرة ورجعت لمنزل مجدي في هذا الوقت المتأخر حاملة الكتاب الذي كنت قد أعددته من قبل بحروف غريبة هي خليط من كل لغات العالم فلا يستطيع أحد قراءة ما بداخله. ليكون حجة غيابي. أطلقت زفرة بعد تذكري لهذا اليوم.

- «لم أكن أبدًا أسمح لموتك في الظلام، كما لم أسمح بموتك قبل تنفيذ خطتي فهي كانت تعتمد على هذا الميت الذي سيسير بين الناس ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منه، فمنذ متى والبشر يقتربون من الأشباح، الميت الذي عاد لينتقم. الذي إن حكى أحد أن كل الجرائم المرتكبة سببها شبح لن يصدقه أحد وسيصبح نزيل مشفى المجانين، كانت خطة معقدة لكنها أمتعتني، نظرات الخوف والتذلل كانت متعة لم أصادفها قط».

- «لم جعلتني أسمم الحيوانات هذا اليوم».

- «لم أرد أن يموتوا متألمين، أكره تعذيب الحيوان فهي أرواح صامتة لا تستطيع الدفاع عن نفسها. لذلك سممتها حتى لا يتعذب جسدها بالنيران، كان الطريقة الأسرع للتخلص منها هي تسميم مياه القنوات المائية التي في القرية. أنا لست مثلك قلبي مرهف لا أتحمل تعذيب الحيوانات!».

أخذت أقهقه عاليًا، لكن جلال لم يشاركني الضحك كان أوهن من أن يفعل. كان يوفر كلماته وحديثه لفضوله الذي يريد إشباعه قبل موته. لأول مرة يبذل جهد أن يفهم ما الذي حدث وسيحدث.

- «أكمل لك ما حدث أم يكفِ حديثًا عن القرية وأهلها؟».

هز رأسه نافيًا بألا أتوقف أبدًا عن إكمال الحديث.

- «هل تعلم ساعدتني ذاكرتي الحديدية في سرد بعد المقتطفات التي قرأتها في الكتب، وساعدنتي كذلك سرعة بديهتي في مزج بعض النصوص معًا لتكون كالأحجية المفهومة لغة غير المفهومة عقلًا ومنطقًا. ذاكرتي التي لم تخن أبدًا في تذكر تفاصيل فستان غرقي لأحيك مثله العشرات لأعذب والدتي. ذاكرتي التي لم تخذلني عندما تذكرت رسمة الأنفاق التي رأيتها بيد والدك في أحد المرات. تلك الأنفاق التي حفرها والدك منذ زمن أسفل القرية والتي كانت متصلة بأغلب منازل القرية ومنها منزل سالم وسنية ومجدي، ستكون بتلك الأهمية في تنفيذ انتقامي. فلولاها لما تحركت أنت بحرية ولما هربت أنا بسهولة من الجحيم المستعر ولما أبدنا دوار سالم اللوطي بزراعة المتفجرات أسفله. أنت بالطبع لا تعرف ما قصة تلك الأنفاق سأخبرك بها في عجالة فهي والمتفجرات قصتهما واحدة.

لقد كانت القرية ما هي إلا ستار لتهريب الإرهابيين لداخل وخارج البلد، نعم اتخذها والدك وسالم لأجل هذا الغرض. كان يدر عليهم الكثير والكثير من الأموال لذلك كانوا ينفقون النفيس والغالي في تطويرها وتجميلها وجعلها قرية نموذجية من الظاهر تسلب

لُب الناظر لها، وتعمي عيون الحكومة عن أفعالهم السفلية. حتى المتفجرات التي استخدمتها في تفجير بيت سالم كانت المتبقية من هذا الحفر، من الجميل جدًا أنني قضيت على الجميع بما كسبته أيديهم. حتى هذا الدخان الذي كان يصدر من الآلات التي وضعتها في الأنفاق، تلك التي تستخدم في الخدع السينمائية. لقد أنفقنا ما أهدر والدك عمره كله في جمعه في أقل من سنة.

جعلتك تملأ الفراغ أسفل بيت سالم بتلك المتفجرات لذلك عندما انفجرت سحق الدوار بأكمله وسقط بالتجويف الذي بأسفله فاعتقد الجميع أنه خسف به الأرض بكل ما فيه ومن فيه كقوم لوط. أردت التلاعب بعقول أهل القرية حتى أغشي عقولهم عما سيحدث بعد ذلك!».

أخذت في الضحك بهستيرية ووجهت نظري لجلال الذي كان ممددًا يهتز معي لاهتزاز جسدي جراء ضحكاتي. نظرت لملابسي المغرقة بلزوجة عفنة ناتجة عن هذا الجسد الممدد في نزعه الأخير. نظرت للملابس التي أحضرتها لنا لنرتديها بعد قليل، احتضنت رأسه أكثر وقد اختلفت نبرة صوتي من الشماتة إلى السكون.

- «لم يبق إلا القليل، انظر لقد أحضرت لك بدلة ترتديها بلونك المفضل السماوي كلون المحيط في هدوئه. بينما أحضرت لي فستانًا عاري الكتفين باللون الأحمر الناري. سألبسك إياه ما إن تهدأ زفراتك ومنازعتك تمامًا، وحتى ذلك الوقت سأكمل لك بقية الحكاية.

أردت فقط التلاعب بعقول أهل القرية كما كان يفعل حسن طوال حياته، حدثتهم بلغة الدين والاقتباس منه، جعلتك تظهر

على الصليب من بين الأنقاض. لم تر عيونهم المفتوحة ذعرًا في تلك اللحظة. كنت أعلم يقينًا أن تلك اللقطة في كل هذه المسرحية ستجعل عقولهم تذوب وتتلاشى لمعرفتي أن اللعب بمبادئ الدين ومعتقداته التي رسخت في عقولهم منذ ميلادهم، بل قبل ميلادهم بسنين السنين تجعل العقول في حالة صدمة والقلوب تصل للحناجر هلعًا والأجساد تتهاوى رهبة وخوفًا مما نسخ لهم من العقاب، مما حدا بي إلى إضفاء نكهة التقديس على كل خدعي ألبستها رداء الدين.

جعلت الصليب يرتفع بك إلى تلك الطائرة غير المرئية بسبب الكسوف الذي كنت أعلم مسبقًا حدوثه وعلمت ساعته بكل دقة. لذلك صممت عليك أن تكون النهاية في هذا الوقت بالذات حتى وإن لم أنج حتى يواري الظلام تلك الطائرة التي أنفقت ثلثي ثروتك على شرائها، على الرغم من صنعها بتقنية النانو تكنولوجي التي أصبحت تستخدم لإخفاء الطائرات وجعلها عاكسة لما حولها فتصبح كالشبح. أردت أن يكون صعودك مثلما صعد المسيح للسماء وهذا ما جعل أهالي القرية في حالة ذعر وارتباك كيف لمعجزة مثل تلك أن تتكرر مرة أخرى، كيف لجلال الذي توفي أن يبعث من جديد ويكون حيًا يرزق ومصلوبًا أمامهم ليس ذلك فقط، بل ويصعد للسماء بالصليب ويختفي في السماء. كما لم يبصر أحد تلك الطائرة لم يبصر أحد أيضًا ذلك الخيط الشفاف الذي كنت مربوطًا فيه جيدًا والذي يستخدم في الخدع السينمائية. ما دام لديك المال تستطيع أن تفعل ما تريد وتخدع من تريد! لقد كنت أضحك بهستيرية على أهالي القرية وكلما تذكرت وجوههم بتلك اللحظة. بارك الله في مال

أبيك الذي تحصلنا عليه من بيعك كل شيء لذلك أرجأت قتله إلى أن تبلغ».

كان قد استفاق مبتسمًا، إحدى تلك اللحظات التي يبث في الجسد القوة قبل اللهاث الأخير ثم الاختناق والجحوظ. ابتسمت له بالمقابل ممسكة بأسفل ذقنه مقربة وجهي منه وأنا أسأله.

- «أتخيل ذلك اليوم لو كنت تركتك بين ظلمات القبر والوحدة ولم أفتح لك باب المقبرة لم يكن ليحدث شيء بتاتًا ولكان ينعم الجميع بمنازلهم حتى الآن، كيف وثقت لدرجة الدرجة أنني مخرجة إياك. لقد عانقت الموت مرتين إحداهما في القبر وثانيهما على الصليب وسط الدمار ونيران القرية. ألم تخف مني ولو للحظة واحدة، تخف أن يصيبك جزء من حقدي وغضبي. ألهذه الدرجة تثق بأنني لن أؤذيك؟».

أجاب بصوت يكاد يسمع مخنوق ببصاق من الدماء محتضنني يستقوي بجذعي على هزله:

- «أنا لم أثق بك مطلقًا، وكنت على يقين بأن نهايتي ستكون على يدك في نهاية المطاف، كنت دومًا ترددين بأنه لن يهدأ لك بال إلا عند القضاء على أهل القرية أجمعين وأنا من أهل القرية، لكنني كنت على ثقة بحاجتك الماسة لي ولمالي، وأن دوري لم ينته بمخططك لقد كنت اليد التي تظهر في الخفاء لتضربي بها الجميع. حيث أنا من قمت بالتلاعب بسنية، أنا من وضع المتفجرات لسالم، أنا من سممت الحيوانات، ومن وضع المادة المشتعلة في ماء القرية، أنا من كنت السبب في الدخان، وفي النهاية أنا من أغرقت القرية بالمادة سريعة

الاشتعال من على الطائرة على أنها مطر السوء. لقد كنتِ أنت العقل المدبر بينما أنا الجسد المنفذ لكل خيالاتك التي تحركينها كيفما تشائين، لكن ما كان يدور ببالي لمَ لم تحرقي القرية منذ البداية دون تلك الخطة والمجهود والمال الضائع؟ تلك الطائرة وحدها كلفتني ثروة. لمَ لم تحرقيها مباشرة دون التلاعب بهم ودون أن تلفتي انتباه أحد ودون تعريضنا للخطر».

امتعضت قليلًا من حديثه، مططت شفتي السفلى وأنا أهز رأسي نفيًا.

- «أين اللذة في ذلك، لذة الصيد يا عزيزي ليس في قتل الفريسة، بل في التلاعب بها قبل كتابة شهادة وفاتها. يكفي رؤيتي لنظرات الرعب بأعينهم، يكفي تصرفاتهم الهرجة قبل موتهم مباشرة. هذا ما أردته أن أرى الرعب والخوف والذهول، أن أرى تخبطهم بسبب عدم فهمهم لما يحدث حولهم. هذا هو الشيء الوحيد الذي أطفأ نار غضبي قليلًا. حتى تلك الخرافات المقدسة وتمثيلها أمامهم لم تكن إلا لأشعرهم فقط أنه مثلما عاشوا في هناء بسبب تلك الخرافات فإنها ستكون السبب في نهايتهم المأساوية. هل فهمت الآن لمَ فعلت ذلك؟ لقد خططت لكل شيء بدقة لا يسمح فيها بالخطأ.

كان لا بد من موتك في البداية لأن أول من ستتجه إليه أصابع الاتهام هو أنت. فأنت ابن أبيك وبالتأكيد تعلم ما يفعله والدك، كان سالم سيؤلب الجميع ضدك لاعتقاده هذا. فهو لم يعرف الحقيقة أن والدك لم يخبرك بشيء عن أعماله بتاتًا، بل كنت أنا مستودع أسراره الذي لا يعلم سالم بوجوده من الأساس. أنا المخطوطة شهادة وفاتي

منذ أن كنت صغيرة، لذا كان لا بد من مشهد موتك ليزين به البداية».

هز رأسه بهدوء:

- «لقد علمت كل شيء الآن، لكن خطتك ناقصة يا سومتي، لقد فتكت بالقرية انتقامًا وليس بسبب الحديث السخيف عن الكبائر السبع تلك لأنه حتى وإن صح توافرها في كبار القرية قد سقطت منك كبيرتان من أصل السبعة!».

أسندته إلى أحد المساند لأريح يدي قليلًا. تمددت بجواره شاردة في سقف الغرفة، وأنا أبتسم من هذا الساذج رفيق رحلتي:

- «هل تعلم أن تلك الكبيرتين هما الحقيقتان في الموضوع برمته. أما الكبيرة السادسة والتي هي الكسل كانت كبيرتك يا جلال، فعلى مدار حياتك وعلى مدار معرفتك بما كان يحدثه والدك في جسدي لم تحرك ساكنًا، آثرت الخنوع دومًا وطوال عمرك. لم تقف بوجهه ولو لمرة واحدة، لم تحاول تهريبي خشية من أن يعلم أنك الفاعل فيؤذيك. كنت دومًا تختار الكسل بدلًا من مواجهة أبيك بما يفعل، بل تنفذ الأوامر بلا نقاش أو فهم حتى. كنت دومًا تحضر لي الكتب التي يجبرك على قراءتها، فكنت أطلع عليها وألخصها لك، لأنه كان يعتريك الكسل قبل بدء الصفحة الأولى منها. ولم تحرك ساكنًا عندما أخبرتك أني سأقتله ولم تشارك، بل اتخذت موقف المتفرج الشامت في نهايته. اكتفيت بماله السائل بينما العقارات وما إلى ذلك لولا أنني وجدت المشتري لها لما كنت ستتحرك قيد أنملة في بيعها. حتى عندما طلبت منك أن تخطط معي لهلاك القرية أخبرتني أن كل ما عليك التنفيذ فقط وأن التفكير والإعداد وشراء الأشياء هو

اختصاصي. لقد أخذت دومًا موقف المتفرج حتى في حياتك ولم تقم ولو مرة واحدة بالتدخل لتغيير مجراها! وهذا ألعن أنواع الكسل، حتى عندما وضعت لك السم تقبلته بصدر رحب دونما محاولة الفرار أو منعي من الفتك بك، بل فضلت أن تكون ممددًا بجواري تقبع في ألمك وصمتك متقبلًا نهايتك بكل سهولة دون إبداء أي ردة فعل!».

مال على جانبه جعل وجهه في مواجهتي متخذًا من ذراعي مستراحًا لرأسه وهو يهمس في أذني:

- «ما مررت به مع أبي لن أنكر أنه كان كسلًا ممزوجًا بخوف، دراستي ومالي وعدم رغبتي في التفكير هي آثار أفعاله التي ما زالت محفورة في جسدي ونفسي ماحية كل شخصية كان يمكن أن تكون لي يومًا، لكن معك لم يكن كسلًا بقدر ما كان شاطئ نجاة لا أرغب بخسارته، مع من كنت سأتحدث إن هربتِ، ولمن سأعيش بعدما تقتلين نفسك، سأعيش وحيدًا وأنا أخاف من الوحدة، ما أهمية الحياة دون شاطئ أماني سأغرق في النهاية، فليكن غرقي معك إذًا!».

مِلت على جانبي لأواجهه، اقتربت منه لدرجة أن أصبحت أنفاسي تلحف وجهه، ناظرة في عينه بعمق وأنا أهمس بصوت هادئ يناسب رهبة الخاتمة:

- «بينما الكبيرة الأخيرة هي الغضب وتلك الكبيرة قد أصابتني أنا على مدار حياتي. وحتى تلك اللحظة ما زلت غاضبة من اللاشيء. أصبح الغضب جزءًا لا يتجزأ من كيونتي. فعلى الرغم من انتقامي من الجميع فما زال طعم الغضب يملأ جوفي علقمًا كأنها نيران

تستعر كلما انتقمت فلا تطفأ أبدًا مهما حاولت إخمادها، ما زالت روحي غاضبة لن تخمد إلا بموتي. يبدو أنك قد نسيت أننا شيطانان ملعونان من قرية الشياطين لا بد من فنائنا».

بدأ جسده في التشنج تقوس ظهره بشدة مرتجفًا بكل قوة، بدأ يندفع الدم من أنفه وفمه مختلطًا بدموعه المنسابة، احتضنته وقبلته تلك القبلة التي طالما رغب فيها، أمسك ملابسي بقوة وهو يلفظ كلمات مشتتة:

- «لن.. تتركيني طويلًا. أخاف.... دونك!».

احتضنته بشدة بكامل جسدي لأوقف من اهتزازه ولو قليلًا وأنا أهمس:

- «سأظل بجوارك وسألحق بك مباشرة، أعلم أنك تكره البقاء وحيدًا دوني. سنرتدي ملابس الاحتفال لنحتفل سويًا فور لقائنا مجددًا في الجحيم إن وجد. بمجرد أن تموت سألحقك سأطلق الرصاص على عقلي فور موتك. فهو سبب كل المصائب نعم في البداية كنت ضحية لكن ما إن بدأت طريق الانتقام أصبحت شيطانًا يجب القصاص منه مثلي مثل بقية أهل القرية. عليك أن تتقبل موتك وسأظل بجوارك».

ظل جسده يرتجف لعدة دقائق قبل أن يسكن نهائيًا تنساب من مقلتيه كدليل أخير عما يعتريه في أحشائه ظللت أحتضنه مشاهدة علامات الموت قد رسمت على وجهه. ظللت هكذا لعدة دقائق.

هببت من مجلسي، مشغلة سيمفونية ضربة القدر لبيتهوفين أسير

على أطراف أصابعي في دوائر عازفة بأصابعي على أوتار الهواء متراقصة مع شبح خفي إلى أن وصلت لملابسنا أحضرتها وعدت لجلال مجددًا.

جردته من ملابسه وألقيتها في كيس بلاستيكي، غسلته جيدًا بكل هدوء كلوج زجاجي أخاف أن يتهشم جراء لمساتي، شذبت له شعره وذقنه، عطرته بعطره المفضل، ثم ألبسته كل ملابسه الجديدة وأجلسته على الأريكة، رتبت المكان من حولنا، أزلت كل شيء تلوث من معركة جلال الأخيرة مع موته. وأبدلتها بأشياء جديدة ممزوجة باللون الأحمر واللون السماوي، سجادة ووسائد جديدة ومفرش منضدة وضعته وأسندت فوقه جهاز الموسيقى.

ذهبت فاستحممت وصففت شعري على شكل تاج أسمر يحيط برأسي، مرتدية فستاني الأحمر متعطرة بعطر نفاذ يزكم أنوف كل من يستنشقه مداعبًا مشاعره في الوقت ذاته. كنت كالملاك أقرب مني للشيطان في تلك اللحظة. ذهبت ووضعت رأسي على رجل جلال في مشهد حميمي بين اثنين متحابين يقضيان وقت العصاري معًا وهما يشاهدان التلفاز.

في النهاية ساد المكان صمت رهيب، صمت موحش ينبئ بنهاية قصة قرية دفع أهلها المال ليرتكبوا كل الشرور تحت ستار الدين، فكان ذلك المال هو سبب نهايتهم.

لم يقطع ذلك الصمت إلا صوت رصاصة استقرت في جمجمتي، صوت دوّى في أرجاء المكان بأكمله كاتبًا كلمة...

..النهاية..

(1) هذا النص جزء من كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، لأبي نصر محمد الفارابي، لكن تم التعديل عليه.